السِّلم المسلّح

الصفحات مفقودة 8، 9، 12، 13، 16

تأليف

غاستون بوطول

تعريب

أكرم ديري : العقيد الركن محمد رائف المعرّي

منشورات

المكتبة العصرية - بيروت - صيدا

صفحات مفقودة: 8، 9، 12، 13، 16

السِّلم المسلَّح

تأليف

غاستون بوطول

تعريب

أكرم ديري : العقيد الركن محمد رائف المعرّي

منشورات المكتبة العصرية

صيدا - بيروت (لبنان)

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

صفحة مفقودة

صفحة مفقودة

مقدّمة المعربين

هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم الى القراء العرب ، ليس «دعوة» الى السلم او « دعوة » الى الحرب ، بمقدار ما هو تحليل لظاهرتي السلم والحرب كظاهرتين متكاملتين متناوبتين في حياة الدول . والذي دعانا لترجمة هذا الكتاب في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا ، هو انه نمط فريد من بين الكتب التي تعالج مسألتي السلم والحرب معالجة تاريخية متماسكة ، تبين ان الحرب ، في ظروف واوضاع معينة ، هي السبيل الوحيد لاقامة السلم واستقراره . وتبين ان بناء السلم لا يتحقق في منطقة معينة الا بازالة اسباب التناقض الاساسية التي تولد الحرب . وهي بصورة خاصة في وطننا العربي وفي هذه المرحلة ، وجود اسرائيل في ذاته وفيما تجسمه وتعبر عنه مطامع ومطامح امبريالية صهيونية متحالفة موحدة .

ولن نستطيع بناء مستقبل افضل لاولادنا الا بنزع ظاهرة الحرب من منطقتنا . ولن نستطيع نزع ظاهرة الحرب هذه من منطقتنا الا بادراك العلاقة القائمة بين السلم المنشود والحرب المفروضة علينا وصولا الى هذا السلم . ومن هنا تأتي اهمية هذا الكتاب الاكاديمي الاول من نوعه في علم الاجتماع الحربي . فالدراسة المتأنية لهذا الكتاب تبرز لنا ان بحث السلم ينبغي ان يتم كبحث ظاهرة الحرب ، اذ تنمو خلال السلم القوى التي تدفع الى الحرب . ولا يكتفي هذا الكتاب بدراسة الوظيفة العلمية والاجتماعية

صفحة مفقودة

صفحة مفقودة

اسرائيل[1] ، كل هذا يثبت بما لا يدع مجالا للشك بأنه لا استقرار ولا امن للعرب في هذه المنطقة ما دامت اسرائيل فيها • وقد صرح بن غوريون قائلا : « ان علينا ان نناضل بأسلوب الغزو وبالطرق الدبلوماسية من اجل خلق امبراطورية اسرائيلية من النيل الى الفرات » • وقبله صرح مناحيم بيغن في عـام ١٩٤٩ بأن الهدف الصهيوني هـو توسيع حدود الدولـة اليهودية عبر الاردن حتى دمشق وعمان • فأي سلم يمكن ان يتم مع مثل هذه الدولة التي خرجت على كل القوانين الدولية ، وتحدت ارادة المجتمع الدولي وخالفت رغبات هيئـة الامم المتحدة وتجاهلت كـل الاتفاقات الدوليـة ؟ •

ولا بـد لنا ان نشير الى اننا لا نشارك المؤلف في كثير مـن آرائه ــ سواء أكانت منطلقات نظرية او نتائج مستخلصة ــ وعلى الاخص آراءه وتقييمه للقومية وللحركة القومية والدولة القومية عندما يتحدث عنها في غير بلاد اوروبا • فآراء الكاتب قد تصح الى حد بعيد في القومية والدول القومية الاوروبية التي نشأت مع نشوء الرأسمالية وتطورت بتطورها الى دول استعمارية، الامر الذي يصح بعد ذلك في القومية الامريكية ودولتها•ولكنه لا يصح على سبيل القطع في القوميات والحركات والدول القومية في بلاد آسيا وافريقيا• ان ميل الكتاب الاوروبيين بصورة عامة الى تعميم تقييم القومية والدولةالقومية النابع منتحليل التجربةالاوروبية الرأسمالية تعميما شاملا في المكان والزمان خطأ من أكبر الاخطاء التي يقع فيها الفكر الاوروبي فلا بد لنـا من أن ننبه الى ذلك •

وكذلك فان ما يبدو هنا وهناك في هذا الكتاب ، مـن فهم وتقييم لموقف الاسلام من الحرب والسلم هما فهم وتقييم يفتقران على اقل تقدير الى العمق المطلوب والايجابية غير المتحيزة •

في نطاق مـا تقدم من تحفظات ، اقدمنا على تعريب هـذا الكتاب وتقديمه للقراء العرب لعله يكون احد منابع الوعي في معالجة المشكلات التي تواجهنا هذه الايام ــ فعسى ان نوفق ، والله ولي التوفيق •

القاهرة ١٩٧١/٦/١ ــ المعربان ــ

(١) تصريح مناحيم بيغن بتاريخ ١٩٥٠/٤/٧

الفصل الأول

عندما يتراءى السلم

تنتهي الاعمال العدائية دوما ، بعد اشتداد اوارها ، الى الزوال ، ويتوطد السلم بدوره • فلكل مأساة نهاية • وقد كان هذا العبور من الحرب الى السلم موضع التخليد دوما • فنتعرف عليه عبر التاريخ ، من خلال نظرة المنتصرين وبما عبروا عنه ومثلوه بالنصب التذكارية وبالروايات التي تشهد بأمجادهم • والتي تشهد بها أيضا النقوش الاشورية والفارسية والرسوم المصرية ، ونقوش أعمدة تراجان[1] • وترينا كل هذه النقوش نفس مواكب الاسرى الاذلاء أمام القادة الظافرين ، ومواكب حاملي الاسلاب والغنائم ، ومواكب النصر وأضاحي الرحمة •

وهكذا كانت الحروب أكثر الفعاليات عطاء ، اذ يأتي الانتصار بالغنى • ويعوض عن الآلام والمخاطر تعويضا مجزيا •

وكان المهزوم يعيش وضعا معاكسا ، فقد كان يتعرض للاستباحة والفدية والنهب والقتل والاسر • ويخضع لقانون المنتصر • ثم اختلف مصير المغلوب باختلاف العصور والحضارات • ويذهب المؤرخون الى المقارنة بين اعتدال الفاتحين الفرس وبين شراسة الآشوريين • ويعزون أسباب هذه

---

(١) تراجان او تريانوس ماركوس او لبيوس (٥٣ ـ ١١٧ م) امبراطور روماني حكم بين (٩٨ ـ ١١٧ م) ، اسباني المولد . وكان قائدا قديرا وحاكما رشيدا ، استخدم سلطته لدعم حدود امبراطوريته وخلد انتصاراته على النصب التذكارية والساحات العامة .

صفحة مفقودة

صفحة مفقودة

وحتى في اللحظة التي يتوقف فيهـا الطرفان عن الصراع ، نجـد الجيوش ومـن ورائها الشعوب ، التي كانت ترتعد مـن أهوال المعارك الاخيرة ، تحتفظ بترساناتها الحربية التي بلغت حدا أقصى من القوة بفضل تطور مستمر استخدمت فيه كافة القوى والامكانات •

ولا يعني اعلان الهدنة والاستسلام أو « وقف اطلاق النار » ان كل شيء قـد تغير في الاوساط والمؤسسات الحربية ، ومع ذلك فهذا هـو السلم • والكل مدرك أن هذا التغيير جرى بأعجوبة • فماذا يتضمن هذا التحول ؟ • من الناحية الاخلاقية والحقوقية ، أصبح العنف أمرا مرفوضا بعد أن كان هو القاعدة المتبعة • فبالامس كان العنف هو المرغوب فيه ، أمـا اليوم فقـد أصبح مـن الاعمال الشاذة والمدانة • ومـن الناحية الاقتصادية ، يعتبر هذا التباين أكبر من ذلك ، فأعمال التدمير والتبديد ذاتها تتوقف • وبالامس كان التخريب يجري بصورة منهجية أما اليوم فيفكر الجميع باعادة البناء ، ثم ••• باعادة البناء ، بعد قليل •

* * *

الفناء الطبيعي والافناء المخطط

ولكن يجب أن ننظر الى الحرب والسلم من جانب عامل الافناء ، لانه هو الذي يشكل الفرق العميق بينهما وهو الحري بالملاحظة • ويتعرض مفهوم القتل لتحول سريع بمجرد الانتقال من الحرب الى السلم •

وبالرغم من أنه لا يوجد الا طريقة واحدة للولادة ، فان هناك طرقا لا تحصى للقتل • ومع هذا ، وفي مثل هذه الطرق التي لا ينتهي تنوعها ، والتي تنقلنا من الحياة الى الهلاك ، بوسعنا أن نميز بين نوعين اساسيين :

فهناك أولا الفناء الطبيعي : أي الذي يحدث بغير ارادة أو عمل مباشر من اقراننا ، ويتوقف انتشاره على درجة معرفتنا بالتدابير الصحية ، كما يتوقف على مستويات المعيشة •

والنوع الثاني : الافنـاء المخطط : ومـن مقوماته القتل المبـرر والمشروع • فالضحايا فيه متطوعون قتلوا بمحض ارادتهم عملا بالتقاليد والقوانين • وبمعنى آخر يرتبط الافناء المخطط بمعتقداتنا ومفاهيمنا ، وبنماذج منظماتنا الاجتماعية ، وبكيفية فهمنا للتسلسل الاداري والعلاقات

بين الأفراد والجماعات الحاكمة .

وأكبر مثال واضح يميز بين هذين النوعين من عمليات الافناء ، هو ذلك النص الذي ورد في التوراة . ويظهر لنا هذا النص أيضا أن الحروب في كل زمان كانت تعتبر الشكل الرئيسي للافناء المخطط .

عندما وقع الملك داود في خطيئة حب ، جاء اليه الملاك ينقل اليه غضب الاله السرمدي ويطلب منه الاختيار بين عقابين : الوباء أو الغزو . فعاد للملك رشده وسارع بالرجاء والبكاء وبحثو الرماد على رأسه . ثم اعلن اختياره « الوباء » بدلا من استسلامه وشعبه للاعداء . فهو اذن قد اختار ، وهو في مثل هذا الوضع المؤسف : الفناء الطبيعي .

* * *

يقدم كل مجتمع من المجتمعات ، في زمن السلم ، عددا من أسباب الفناء الطبيعي . وقد دهش علماء الاحصاء الاوائل امثال « كوتوليه » من انتظام وثبات احصاءات الوفيات . ويلاحظ هذا الانتظام نفسه حتى في حالات الوفيات الوسيطة الواقعة بين الفناء نتيجة الامراض أو الانهاك وبين الافناء المخطط ذاته الذي يعتبر « مشروعا » . فهناك وفيات حدثت نتيجة مبادهات فردية أدينت اخلاقيا وعوقبت قانونيا . وبالرغم مما تلقاه الجرائم وحوادث الانتحار وحوادث الطرق من انكار في جميع البلاد ، فان عدد ضحايا هذه الحوادث السنوية يكاد يكون واحدا .

وتعبر تغيرات أرقام ومعدلات الوفيات عن تطور المجتمعات . فالتحسن في المستويات المعيشية أو الصحية العامة وانخفاضها والتقدم أو التخلف في العلوم والتقنية ، كلها أمور تؤثر في الفناء الطبيعي .

ومن جهة أخرى ، تعبر تغيرات أرقام الافناء المخطط عن تقدم المؤسسات العلمية ونمو الحرية والكرامة الشخصية والامن . وفي هذا المجال كان تطور القوانين في بعض البلاد المتمدنة ، منذ القرن الثامن عشر ، موضع الدهشة . فقد كانت عقوبات الاعدام حتى ذلك التاريخ لا يحصى لها عدد . وتتفاوت نظم السجون شدة ، ونجد أن عدد المعتقلات والمحكومين بالاشغال الشاقة والقتلة عدد لا يمكن احصاؤه .

وأخيرا يبدل تطور التقنية شكل الافناء . ودليلنا على ذلك : حوادث

صفحة مفقودة

ويضع الانتقال من الحرب الى السلم حدا لهـذه الصيغة الجماعية والبغيضة للافناء المخطط ، ويحد أيضا ، ولكن ببطء شديد ، من تزايد الفناء الطبيعي الذي ينتج بشكل غير مباشر عن المآسي والحرمان ومختلف الاضطرابات الناجمة عن كل عدوان مسلح .

كما أن تحليل التغيرات الطارئة على الحياة الاجتماعية بانتقالها من الحرب الى السلم يسمح بالتنبه « فورا » الى فروق كائنة بين « ظاهرة الحرب » و « ظاهرة السلم » وهذه الفروق هي أولا : ـــ مهما بدا ذلك مباغتا ـــ ذات منشأ قانوني . فالحرب مثل السلم ، شكل من أشكال العقود بين مجتمعات تتمتع بالسيادة .

وهناك ، ثانيا ، فروق ترتكز على حقيقة أن الحرب تطلق شكلا من الافناء المخطط المتسارع . فالمؤسسات التخريبية والهدامة موجودة في زمن السلم كما هي موجودة في زمن الحـرب ، ولكن طريقة عملها وفعاليتها تتباين كلية .

* * *

الفصل الثاني

معرفة السلم

ما هو الوضع الطبيعي للمجتمعات ، هل هو السلم أم الحرب ؟ لقد دعم عدد كبير من الفلاسفة ، كما دعم كبار المؤرخين هذه النظرية أو تلك ، ولكننا في الواقع ، لا نعرف عن الامر شيئا لان محاكماتنا لا تعكس ، لاول وهلة ، الا ما نفضله .

وأول ملاحظة تفرض نفسها ، هي أن الحرب كانت تحتل دوما ، في مجال التفكير ، مكانا أوسع بكثير مما يحتله السلم . ولكنها دون شك ليست « مصدر كل شيء » كما قال هيراقليط ومع ذلك اذا كانت الحرب أمّاً للادب ، فان أول الروائع الادبية كانت قصائد الحماسة وأغاني الفخار، وكلها تدور حول أعمال عنف منسقة . كما أن أول الاعمال التاريخية كانت قصصا حربية وسردا لغزوات ومعارك .

ولقد كتب برودون : أنه ليس من الضروري اعطاء تعريف محدد للحرب «فاننا نحس بها جميعا ، ولسنا بحاجة على الاطلاق لمن يفسرها لنا». ولكن هل تتوفر لدينا نفس المعلومات العفوية والبدهية عن السلم ؟ . وكما يظهر أن كلا من العفوية والبدهية تتلاقى وتتكامل في النقطة التي تتعارض فيها الحرب مع السلم . ويقول ارستيد بريان[1] « السلم هو غياب

---

(١) ارستيد بريان Aristide Briand (١٨٦٢ ــ ١٩٣٢) سياسي فرنسي من أسرة متوسطة درس القانون ، وتعاطى المحاماة ثم الصحافة ــ اشتراكي شغل منصب امين السر العام للحزب الاشتراكي الفرنسي سنة ١٩٠١ . تقلد الوزارة ٢٣ مرة وقد شارك بعدة مؤتمرات دولية ، وكان له فضل توقيع ميثاق بريان ــ كيللوغ سنة ١٩٢٨ حول شجب الحروب . وقد دعا لانشاء اتحاد فيدرالي اوروبي بغية نزع السلاح وتحقيق فرص للسلم أكبر .
ــ المعربان ــ

الحرب » ويضيف جاك بريفير على هذا التعريف ، ولكن بسخرية قاسية : « يكون السلم الحقيقي قائما عندما تكون الحرب مشتعلة في مكان آخر ! ! » • ولسنا بحاجة لان ننصرف الى التفكير فيه أكثر من ذلك ، لان مفهوم السلم ، كمفهوم الحرب ، أمر مسلم به • وتظهر المعلومات العفوية والبدهية عن السلم كما لو كانت معطيات مباشرة في وعينا •

* * *

ولا تستقيم الامور ، اذا نحونا في تفكيرنا بالظاهرة الاجتماعية ، في مركباتها وظواهرها ، اتجاها يخالف المألوف •

ويدور التساؤل : عما اذا كان السلم هو السائد تاريخيا أم الحرب ؟ وخلال القرنين اللذين يعتبران أكثر عصور آثينا تألقا ، كانت آثينا في حرب طيلة سنتين من كل ثلاث سنوات • ونجد لاول وهلة اننا امام ازدواجية لا تنفصم ••• انها ازدواجية وجه جانوس : فقد كانت أبواب المعبد في روما لا تغلق الا خلال السلم[1] • واذا درسنا أية خريطة جغرافية وجدنا ان جميع خطوط الحدود الدولية رسمت بفعل الحرب ، وكان المنطق السياسي بالتالي وراء تبدل الاسباب المبررة لشن الحروب • فقد شجع المنتصرون في عام ١٩١٨ ، الذين أبطلوا نظام التبعية وألغوا النظام الامبراطوري داخل القارة على اقامة مثل هذه الانظمة فيما وراء البحار وعلى العكس الغى المنتصرون في عام ١٩٤٥ ، النظام الاستعماري فيما وراء البحار واعادوا نظام التبعية الجغرافية ونظام المحميات داخل القارات وخاصة في أوروبا •

حتى أن الحدود الروحية التي فصلت بين الكنائس والديانات رسمت هي أيضا ، في معظم الحالات ، بفعل الحرب : بين الاسلام والمسيحية ، بين الممالك الكاثوليكية والبروتستانتية ، بين السنة والشيعة « والناس على دين ملوكهم » • وحدث الشيء ذاته أيضا بالنسبة لعامل اللغة والعنصر في تقسيم خريطة العالم • ولقد كان ذلك بشكل عام ، نتيجة الغزو والاجتياح والانسحاب والهجرات السكانية • واذا كانت الهجرات السلمية نادرة جدا فقد كانت الهجرات المسلحة كثيرة جدا •

فاذا ما توقفت مرحلة العنف استقر السلم في حفر صنعتها الحرب •

---

(١) تسع مرات فقط خلال الف عام (المؤلف)

وغدت اتفاقات السلم نقط الانطلاق لاقامة أي نظام جديد ، أو على الأقل اعادة بناء النظام القديم . وهكذا يمضي كل شيء كما لو أن كل مرحلة سلم هي في الواقع مرحلة تثبيت النتائج التي فرضها نزاع مسلح سابق .

وهكذا نجد ان الحرب تقيم التسلسل الاداري ثم يأتي السلم بعد ذلك ليسبغ عليه الشرعية والدعم . فكأن الاعتداءات الخارجية كانت لتوطيد عظمة الدول وفرض سيادتها . وتعمل الحرب الاهلية بدورها على توطيد السلطة المحلية . وفي عشية الثورة كان بولانفيليه[1] يبرر امتيازات النبلاء بأنهم : ورثة حقوق الفرنج المنتصرين . فقد كان هذا الارث بالنسبة له تبريرا لذلك الفرق بين « الاصل السامي للمنتصرين والاصل الوضيع للمغلوبين » وذلك لانه من الممكن أن تمتد ذيول حرب ما الى جيل آخر . ويقول كومين[2] بهذا الصدد : «للمعارك الخاسرة ذيل طويل وسيء » . ولم تنته اوروبا حتى الآن من هضم العواقب السيئة لاحتلال القسطنطينية . وقد كان على الاسبان أن ينتظروا ثمانية قرون ليمحوا خسارتهم حرب سنة ٧١١ .

* * *

اننا لا نجد جدوى من التساؤل عن أي الظاهرتين جاءت قبل الاخرى وعما اذا كان السلم من نتائج الحرب ؟ أو ان الحرب من نتائج السلم ؟ ولكن المؤكد أن تعاقبهما المحتوم حتى الآن يشكل قوام حياة المجتمعات . ويظهر هذا التذبذب ، الذي لا يمكن تجنبه ، ان كلا من الحرب والسلم ظاهرتان متكاملتان . حتى أن المتشائمين لا يرون في السلم الا هدنة .

ويحمل كل شيء على الاعتقاد أن السلم كان دائما « حاملا »

---

(١) هنري دوبولانفيليه (١٦٥٨ ــ ١٧٢٢) مؤرخ وفيلسوف فرنسي ومن أنصار نظام الاقطاع الذي يقوم على وجود عرقين في فرنسا : عرق الغزاة السامي وعرق المهزومين الغوليين . ومن مؤلفاته تاريخ الدولة الفرنسية القديمة ودولة فرنسا وتجارب نبيلة .

(٢) كومين فيليب مؤرخ وسياسي فرنسي رافق شارل الجسور البورغوندي وتركه ليخدم لويس الحادي عشر وشارل الثامن ملكي فرنسا في عام ١٤٧٢ . ترك مذكرات تتميز بتحليلها العميق للرجال ودوافعهم .

ــ المعربان ــ

بالحرب ، يحملها بين جنبيه • وينتهي الامر به ان آجلا أو عاجلا ـ وحتى وقتنا الحاضر على الاقل ـ لان يضع حمله الوحشي ـ الحرب ـ ولكن لن يكون هناك ابدا عدوان سرمدي ، ومهما كانت الحروب بسيطة أو قاسية جدا ، طويلة أو قصيرة فانها تنتهي دوما بالوصول الى شواطىء السلم •

* * *

عندما يصدمنا أو يغيظنا عمل اجتماعي ولا نجد له حلا ، فان أول ردة فعل لنا هي البحث عمن نحمله مسؤوليته ، وهي ردة فعل انسانية جدا • اننا نتحلل من اخطاء جهلنا بصب اللعنات والتجريم على الغير • ان العقلية البدائية جاهزة دوما لتبرز في الرجل المتحضر • وكما كانت الحرب دوما على وجه التحديد صراعا بين جماعات انسانية منظمة ، فقد كان البعض يلقي الاتهام على رمز النظام وشخصيته ـ أي الدولة ـ وهكذا نجد برودون والفوضويين حتى كارل ماركس الذي كان يصرح ، مناقضا بذلك هيجل ، ان الهدف النهائي لديكتاتورية البروليتاريا هو الغاء دور الدولة لانها المحرضة على الاستغلال والاعتداءات المسلحة •

ومع هذا جوبهت قوة هذا المنطق بأدلة لا تقل عنه فصلا وحسما • فالدولة ليست فقط « آلة حرب » ولكنها ايضا « آلة سلم » •

فوظيفة الدولة ، من وجهة نظر العنف ، ذات وجهين : فهي في الداخل تحول دون قيام العنف وتكبح جماحه • أما في الخارج فهي على العكس تقوم بتهيئته وتنظيمه بل وتعلنه أحيانا • ولكننا بنفس الوقت نجد العنف يقيد الدولة ويهيمن عليها ويقنن خطواتها •

وهكذا ، فانه لا يصح القول بأن مهام الدولة هي مهام قتالية فقط ، حتى في مجال السياسة الخارجية • فقد تكون مهمتها الحرب وقد تكون آنا آخر السلم وذلك حسب الظروف • ولكن لاي من هاتين المهمتين ، السلمية او القتالية ، ستكون السيطرة في الدولة ؟ انه من الصعب اعطاء جواب أكيد على هذا التساؤل •

تناظر اهداف الحرب مع اهداف السلم

ان الذين تجرأوا من رجال الدولة وأعلنوا انهم يتذوقون الحرب

ويحبونها لذاتها ، كلعبة خطـرة ومشوقة ، عـدد قليل • ومـن هؤلاء جنكيزخان ، اذ اعلن ذلك في وصيته ، وكذلك لويس الرابع عشر ، الذي اعترف وهو على فراش الموت : « لقد احببت الحرب اكثر مما ينبغي » • وحتى هؤلاء الذين يغالون بحبهم للعدوان كانوا يغلفون عدوانهم بالدوافع والمبررات • وكانوا يتطلبون اشياء ويطالبون باستردادها ، كما يحلو لهم • فهم بشنهم الحروب ، يريدون ، كما يقولون : ازالة بعض العراقيل غـير المحتملة التي تعيق السلم •

ولكننا نجد ، ويا للدهشة ، ان هذه العراقيل ، المختلفة بشكل عام ، تتمثل احيانا كهدف للحرب واحيانا للسلم •

ويظهر تماثل هاتين الظاهرتين الاساسيتين بشكل افضل ، لو طرحت جانبا كل تلك الادعاءات التي تعلن عند بدء كل عدوان • عند ذاك يلاحظ بدهشة ان اهداف الحرب بالتحديد ليست الا اهداف السلم ، وبالعكس • وليست هذه الاهداف او تلك الا وجهان لحقيقة واحدة • فالامم تتقاتل لتفرض تصوراتها الخاصة بالسلـم • والشروط التـي تعتقدها ضرورية لاستقرار السلم • وكان النائب الجيروندي ايزنارد[1] يقول في سبيـل تمنطقه بالشرعية لبدء « حرب حتى الموت ضد الملوك » : « سوف يتعانق افراد الشعوب امام اعين الطغاة المخلوعين وفي ارض يغمرها الرضا وتحت سماء يملؤها الامتنان » او بقول آخر : ان هذه « الحرب حتى الموت » كانت الشرط الاول والضروري لهذا الوضع الساذج المعلن •

هذان القناعان لجانوس : الاول مفجع والآخر عطوف ، كانا دوما مطلوبين • وقد يتطابقان احيانا في الحقيقة • فهما يعبران عن الرغبات ذاتها ولكن بأسلوب مختلف • فالمآرب السياسية المثالية لجماعة ما ، والقيم التي يتمسكون بها ، تعلن عن نفسها عفويا بصيغة عدوانية ، مثل « الحرب او الموت » او « لنباشر الحرب حتى نربح السلم » •

ويأتي في رأس تسلسل القيم تلك التي يضحي الرجال بحياتهم في

---

(١) ايزنارد ماكسيمان رجـل سياسي فرنسي (١٧٥٥ — ١٨٢٥) متطرف ومن اشد المطالبين بالعنف •

— المعربان —

سبيلها • وهي التي تقدم الطريقة الاكثر دقة لقياس قوة تأثير معتقداتنا •

* * *

التخليـــد والـرعب

يملك أعضاء كل مجتمع منظم ، بصورة مشتركة ، كنوز مخلداتهم ومشاعر ذعرهم ، ويزداد التصاق الاعضاء بالمجتمع بقدر تشاطرهم هذه الذكريات وبدون أي تحفظ •

اننا نعيش خلال الحرب فترات الرعب ، وفي السلم نخلدها • وفيما يخلده السلم تمجيدا لهذا الرعب • وتتم أكبر احتفالات الشعوب ، بشكل عام ، في ذكرى المعارك الكبيرة • وهكذا يعيش السلم في سحر الحروب ، فيمجدها ويندب وقوعها في الماضي أحيانا ، ويتقيها ويترقبها في مستقبله بمزيج من الاشتياق والتردد •

ان الحرب في المفهوم الاجتماعي ، من الطقوس الهدامة • والسلم على العكس مـن الطقوس البناءة ، وهو يتطلع لبلوغ الاوج بمشاريعه السلمية • ولكن أكثر منشآت السلم رونقا هي تلك التي تشاد للتخليد ، وفاء للنذر وللتذكير بشوامخ الاعمال البطولية من كل نوع • فعلى أطراف دور كـل العواصم وساحاتها وشوارعها ، لوحات تخلـد اسماء المعارك الداخلية والخارجية •

وقد نخطىء مع ذلك اذا لم نر في هذه التظاهرات سوى زهو ضائع • فهي تظهر الروابط الضيقة والعلاقات الحقيقية القائمة بين السلم والحرب • فاننا تقول سرا أو علانية (خطأ كان ذلك منا أم صوابا) : « يعود الفضل فيما تتمتع به اليوم من سلم ، الى الحروب السابقة ، والى أولئك الابطال الذين خاضوها وهيئوا لنا الظروف التي نعيشها اليوم متمتعين بالسلم »•

وبمعنى آخر ، يصبح كل شيء مقبولا عندما لا يخامرنا أي شك بأن النظام السياسي ، بكل اطاراته وهيمنته ومؤسساته وثرواته والطمأنينة التي يبثها ، هو نتيجة كسب لسلسلة من الاعمال العسكرية عبر القرون الطويلة السابقة • وبكلمة أخرى أيضا : **الحرب هي التي تشيد السلم** •

* * *

وهكذا فان الرأي العام والتاريخ يعتبران وجود « الدولة ــ الامة »، بوضعها الراهن ، محصلة لتعاقب الاعمال العدوانية • وينسحب هذا القول على النظم السياسية في الداخل ، لان اقامة السلطة في معظمها قد تم نتيجة العنف والحرب الاهلية والانقلابات والفتن والثورات والمؤامرات ، والتي سيشاد بذكراها ، فيما بعد ، بما يقرب من التقديس •

ويساهم احياء هذه المناسبات السنوية في تثقيف الاجيال الجديدة بالتربية الوطنية وتزويدهم في الوقت نفسه بصورة جلية واضحة أو بصورة مستترة ، بالبرهان على الروح العدوانية التي انتصرت لدى اولئك الذين انتزعوا بالقوة هذه القرارات المنقذة ••• « وهكذا وجدت أعياد ١٤ يوليو (تموز) وثورة اكتوبر (تشرين الاول) واعياد الثورة الصينية وكافة أعياد الاستقلال في العالم » • (انها تقاليد تتبع بصرامة ، وبينما تخلد الانتصارات الخارجية بتسمية بعض الاماكن الهامة بأسمائها ، نجد ان الانتصارات الداخلية تخلد بتسمية الاماكن بتواريخ وقوع هذه الانتصارات ٤ سبتمبر (ايلول) ، الاول من اكتوبر (تشرين الاول) الخ•••)•

ومع هذا فان بين العنف الخارجي والعنف الداخلي ، حتى في أكثر الأزمات حدة ، صلة هي في بعض الحالات قوية جدا • ونادرا ما يحدث في الحروب الداخلية الكبرى أن لا يطلب اطراف النزاع الاستعانة بقوى من الخارج • وهذا ما حدث ، على سبيل المثال ، في فرنسا خلال الحروب الدينية وفي أمريكا ، عندما قام «الثوار» من سكان المستعمرات الانكليزية بثورة ضد « العاصمة الام » • وكما يقوم الروديسيون اليوم بمحاولة للحصول على المساعدة الفرنسية •

ويحدث غالبا أن لا ينجح النظام السياسي الداخلي الجديد في تحقيق استقراره • وذلك لانه جاء عقب نظام حطمته ضربات عدو خارجي • فهو اذن نتيجة صراعين مسلحين • ففي كل أوروبا الغربية لم تستطع الاقطاعيات الثرية الوقوف امام انتصارات جيوش الثورة الفرنسية • وقد تأسست الجمهورية الفرنسية الثالثة بعد معركة سيدان • ولولا انتصارات الجيوش الالمانية لما وقعت الثورة الروسية في عام ١٩١٧ وكان لا بد من قنبلة هيروشيما لطبع اليابان بالطابع الديموقراطي •

وقد فهم كل العالم اليوم الامثولة : عندما تعلن الحرب تهتم الدول بابراز اهتمامها بالعطف على شعوب الخصم • وتقسم ، وهي تهاجم تلك الشعوب انها تسابق الرياح لنجدتها وانقاذها من قياداتها السيئة •

* * *

مــاهــو السلم

يتضح مما سبق أنه من الضروري في هذه الدراسة الهادفة أن نولي ظاهرة الحرب اهتماما لا يقل عن اهتمامنا بدراسة ظاهرة السلم • فكمــا أوجدنا ما يسمى بـ علم الحرب Polémologie [1] فانه بوسعنا أيضا أن نوجد ما يمكن أن يسمى علم السلم Trénologie ومن المأمول أن تتوضح كــل من هاتين الظاهرتين الاساسيتين والمتناوبتين في حياة الدول بحيث تتوضح كل واحدة بواسطة الاخرى أي تفسر كل منهما الاخرى بصورة متبادلــة •

وتكمن صعوبة هذه الدراسة في ذلك الارتباط الوثيق بين الحرب والسلم • فهما مثل وجه قطعة القماش وظهرها • اذ يظهر السلم كأنه تابع للحرب ، الذي غير اطاره الجغرافي والسياسي ونظرته العقائدية • انهما مثل ايرين ومارس[2] زوجان لا يفترقان •

وخلال فترة السلم يتعاظم اختلال التوازن ويزداد نمو القوى التي تدفع الى الحرب ، وهكذا تبقى كاساندرا [3] العرافة أكبر تجسيد مأساوي

(١) استخدمت هذه التسمية عقب نهاية الحرب العالمية الثانية لدراسة الحرب . ومضمونها اعتبار الحرب ظاهرة تشمل النظام الاجتماعي والانساني في كل اسبابها ونتائجها وعلى جميع أوجه النشاطات الاقتصادية ، والسياسية ، السكانية ، المعنوية ... الخ .

(٢) ربة السلم واله الحرب .

ـ المعربان ـ

(٣) كاساندرا : ابنة بريام وهيكوب احبها ابولون ومنه اكتسبت المقدرة على التنبؤ . ولما غضب عليها ابولون انتقم لنفسه بأن لعنها بعدم تصديق نبؤاتها ابدا من قبل احد . ولما تنبأت بانهيار طرواده هزأ منها أهلها . ولما سقطت المدينة التجأت الى معبد اثينا . تطلق كلمة كاساندريا الآن على وصف الانسان المسن الخرف الغرير الساذج .

ـ المعربان ـ

للتنبؤ في المجالات السياسية • فقد كانت كاساندرا تتابع تصاعد الاخطار وتعجز عـن التدخل ، لان تحذيراتها لقومهـا كانت تقابـل باللامبالاة وبالازدراء • ويمكن القول بشكل عام ــ وينطبق ذلك حتى يومنا هذا ــ ان أحزاب كاساندرا كانوا دائما على حق • فلا يوجد على الاطلاق سلم الا وينتهي آجلا أو عاجلا بولادة الحرب • وان كل معاهدة سلم تحمل تحت سطورها (كالدمغة المائية) تصاميم عدوان مقبل •

يقول النبي محمد في حديثه « الجنة تحت ظلال السيوف » والسلم كذلك ، لانه سلم مسلح في أكثر الاحوال • في هذه الجنة تشحذ السيوف وتنبعث الاضطرابات الجديدة في النظام • فمن هذه الجنة تنبثق معارك المستقبل • وكل شيء يمر كما لـو أن كـل فترة سلم تفضي بالضرورة لمواجهة دموية حيث يؤكد كل مجتمع من جديد حقه بالبقاء ، ويظهر افراده على الملأ حيويتهم وقوة حقدهم ، وقدرتهم على الايذاء •

* * *

يهتم الفكر الانساني بفترات الحرو ب، وذلك نتيجة ميل طبيعي فيه ولهذا ، كان الشعراء الاقدمون يتغنون بقعقعة سلاح المعارك وبشجاعة المحاربين كما قلنا سابقا • فقد كانت مظاهر العنف جذابة دوما • ويجب أن نضيف أن الحرب كانت ، وحتى يومنا هذا ، بالنسبة للمنتصر علـى الاقل اغزر الفعاليات عطاء • وكانت ثمرات الحروب ومـا تزال احيانا ، الاكثر ربحا • (وخسارة ايضا) فليس هناك من لعبة بلغ رأس مال الرهان فيها مثل هذه الضخامة ، وليس هناك من لعبة تفوقها تشويقا ، عفوية احيانا ومخططة احيانا اخرى ، قاسية ومؤثرة ، نزيهة وجشعة •

ان الحرب تحرك الحماسة الشعرية التي تتناول بالتناوب اغنيات النصر والرثاء • ويندر بـين المؤرخين ، حتى أكثرهم موضوعية ، من لـم يتأثر بحماسة الرعايا الشديدة • وكذلك لم يكن هؤلاء المؤرخون ، وهم يدونون تاريخ هذه الحروب ، ليسمحوا بأن تخمد لدى هؤلاء الرعايا الحماسة أو أن ينتقص من اعجابهم أو كراهيتهم لهذا أو ذاك من ممثلي هذه المآسي الجماعية •

وبالنسبة للحرب ، منبع كل الالهام الحماسي ، فان السلم مثل بارز

للمعاملة المحتقرة . فاذا كان باستطاعة السلم منحنا السعادة ، فانه لا يعطينا الفخار ولا شعور المحاربين الفياض . الا انه ليس للشعوب السعيدة تاريخا. ولن يغفر المؤرخون لها ذلك .

أوجه ومشاكل السلم

ان الحديث عن السلم بعبارات عامة ، لا يقدمنا كثيرا . فما هو السلم ؟ وما هي المظاهر التي كان يتخذها في مختلف الاماكن والعصور ؟ وما هي النماذج الرئيسية للسلم ، وكيف يتسنى لنا تمييزها اذا لم تقم بدراسة احداث واقعية ؟ ان الذي ينير لنا الطريق هو دراسة الاشكال التاريخية للسلم . لان فترات « السلم » هذه متباينة تماما : فهي متباينة في جذورها ، وفي تركيبها ، وبالعقليات التي عبرت عنها ، وبظروفها التاريخية .

ويزخر التاريخ بالفترات السلمية . ولكل منها جوانب تفرض الاسئلة التالية :

١ ـ ما هي الجذور التي انبثقت عنها هذه الفترات السلمية ؟ أي ما هي اشكال الحوادث التي أدت نتائجها لقيام أو فرض استمرار النظام والبنى الاجتماعية التي سمحت لفترات السلم بالظهور ؟ وما هي المفاهيم والمعتقدات اللاهوتية والفلسفية الاخلاقية والقانونية التي سادت تنظيم كل فترة من فترات السلم ؟ وعلى أي اساس بنى كل سلم نظامه وسلطاته ؟

٢ ـ بأي الاساليب أو بنتيجة أي انموذج تنظيمي استطاعت الدولة التي نجحت بالتمتع بفترات سلم طويلة أن تتجنب الصدمات الخارجية أو التقليل من شأنها ؟

٣ ـ هل نجحت ـ هذه الدولة ـ باقرار السلم الداخلي أي بتجنب الحروب الاهلية ؟ وفي حال الايجاب ما هي الاساليب التي اتبعتها ؟

٤ ـ كيف نجحت بكبح جماح روحها العدوانية ؟ أي كيف لم تغتر وتقدم على شن عدوان مسلح خارجي ؟

وبكلمة واحدة ، كيف حالت هي أيضا دون تحرك أجهزتها الخاصة للتسبب باحداث دفع عدواني جماعي غير متزن .

٥ ـ وأخيرا ،فان السؤال الاكثر ايلاما هو : بتأثير أي من الظروف

اتنهت تلك الفترات المتباينة ؟ كيف اتنهت كل من هذه الفترات السلمية الطويلة الى أن تسقط هي بدورها في عالم الحرب والدمار ؟

وبسبب هذا السؤال الاخير ، يخيل الينا ، بصورة خاصة ، انه لا يمكن دراسة السلم الا من خلال دراسة علم الحرب • وعندها هل يمكن أن لا تذهلنا شدة هذا التماثل بين السلم والحرب ؟ والى هذا التماثل يجب أن نشير • لان الكثيرين ، كما يظهر ، لم يعيروه الاهتمام الكافي • ومما يثير الغرابة أكثر ، أنه لم يكتب عن السلم ، على كثرة الكتب التي تعرضت لموضوعه ، الا بأسلوب طوباوي وبالتقريظ وبأسلوب المواعظ أو الامنيات • ان السلمية ، بما تبعثه فينا من تلهف عليها ، وبالحاح مشروع جدا للحصول عليها ، ولوضوح اغراضها ، تحجبنا عن فهم ودراسة السلم•

وما دام الامر كذلك ، افلا يكون من الاهمية بمكان دراسة كل فترة سلم على حدة ، واعتبار كل فترة منها ، ولو مؤقتا ، شيئا مستقلا بذاته ؟ ان هذا يتيح لنا بالمقارنة أن نفصل على سبيل التجربة (بأخذ التاريخ كبديل عن التجربة الاجتماعية) بين السمات الاساسية لكل فترة ، وبين مثيلاتها الوظيفية •

لقد خسر المنتصرون والمنهزمون على السواء السلم بشكل دائم وتام في كل الحروب ، واستمر هذا حتى الآن • ونأمل بمعرفتنا لاسس السلم الاجتماعية المكملة لمعلوماتنا عن علم الحرب ، أن تسمح لنا هذه الاسس بالاقتراب أكثر فأكثر من حل هذه المشكلة : فما هي الشروط التي من شأنها أن تمد في فرص استتباب السلم ؟ ولقد حاولت كل المدنيات الاجابة على هذا السؤال عمليا ونظريا ــ ففي كل مرة كان السلم فيها مستقرا ، كان كل المسؤولين ، كما كانت كل الشعوب ، تحاول جهدها دعم السلم والحفاظ عليه وحمايته باتخاذ عدة اجراءات سياسية • وقد أوجدت كل مدنية وفي كل عصر ، على الصعيد النظري ، عقائد للسلم ، بعضها فلسفية وبعضها دينية وأخرى قانونية • وهناك أخيرا نظريات أقيمت على دعائم الدعاية والارشاد •

الفصل الثالث

إقامة السلم

آ- على دعائم اجتماعية

القوميــة :

اعتقد رجال الثورة الفرنسية ان الغاء السلطة الملكية سوف يجلب السلم للشعوب ، وان الامم لـن تجـد محيصا من التحـاب فيما بينهـا بعد أن تخلصت من ملوكها .

وعـزا رجال منتصف القرن التاسع عشر ، الذيـن فطنوا لتأثـير الديموقراطيات السلمي ، عزوا سبب بقاء الروح الحربية ، الى عدم تمتع بعض الامم باستقلالها ، أو للتجزئة التي حلت بها ، وردد رجال الدولة من أمثال : نابليون الثالث ، كافور ، البولونيون ــ الهنغاريون ــ التشيك ــ البلطيقيون ، الايرلنديون : « اذا اقتنعت كل جنسية بواقعها استتب السلم في أوروبا » . حتى أن بسمارك ذاته ردد هذا القول .

* * *

لقد حذت القومية ، منذ بدء ظهورها ، حذو العاهلين القدماء ، ولكن بسذاجة ، وعنف أكبر .

فقد أخذت الحكومات ، في قتالها ضد نابليون ، تؤجج لدى الشعوب المحتلة نزعة الانتقام من المغيرين عليها . وبلغت هذه الروح الانتقامية من القوة حدا جعلها أداة حربية طغت بعنفها على كل شعور بالولاء تجـاه

هؤلاء الحكام • فسمحت باظهار الحرب كأنها غاية الشعب نفسه ، يقاتل لنفسه وليس لرئيس آخر • وهكذا بلغ مجموع التضحيات ، التي كان لا بد من تقديمها ، حدا متناهيا في الكبر • ونشر تبني مبدأ التجنس فوائد التجنيد بين جميع الشعوب الاوروبية • وأتاح توجيه هذه الشعوب بهدوء كبير نحو الحرب الشاملة •

يحمل مبدأ التجنس في طواياه روح الضغينة • فان اعطاء الشعوب نوعا من السيادة في حقوق قدسيه ، لا تجزأ ولا تمس ، سوف يزيد في تمسكها بها ، ويصبح من المستحيل عليها قبول أي انتقاص منها ، سواء أكان ذلك لصالح اتحاد كونفيدرالي أم لصالح بناء دولة عظمى • وفي هذا يقول برودون « ان ذلك يتطلب منها التنازل عن بعض سيادتها ، وقبول التحكيم في بعض الحالات الخاصة على الاقل • ومن طبع الشعوب ممارسة القيادة لا التساهل والخضوع » •

ومن جهة أخرى ، اذا تبنى الجميع ضمنيا كل نظريات جان جاك روسو عن عدم سقوط حقوق الشعب بالتقادم ، فان ذلك من شأنه أن يبقي الامور قيد البحث دون البت بها الى ما لانهاية • ان العدالة المجردة هي التي ربحت من كل هذا ، وليس الاستقرار •

* * *

ونجد ، مع كل أسف ، ان نهم القوميات يجد له سندا بمذاهب القانون الدولي • اذ يقدم هذا القانون للقوميات كل المبررات لشن حرب مشروعة وللمطالبة باسترداد شيء ما • فكثيرا ما نرى مثلا أمة تطالب بمناطق كانت تملكها منذ خمسة قرون •

ان القانون الدولي العام لا يقبل في جوهره ، ابدا **التوثيق أو الكسب بالتقادم** ، اذ بوسعنا ، في نطاق القانون الدولي ، ان نعيد النظر دوما وابدا بكل شيء • فالقانون الدولي يرفض كل مبدأ يؤدي للاستقرار ، فلا توجد معاهدة ولا وعود يمكنها أن تقاوم شرط « **قيام الاتفاق بقيام الحالة التى انعقد عليها** » وهذا الشرط ، باجماع كل الفقهاء ، معروف ضمنا في كل المعاهدات بين الدول ذات السيادة •

الا نشاهد الآن ان البولونيين يطردون الالمان من المناطق التي

استعمرها فرسان التيوتون في القرون الوسطى ؟ • وعلى هذا الأساس ، الا يمكن أن نرى في المستقبل المونغوليين يطالبون ببكين والتتار بموسكو ؟ •

وأخيرا يكشف مبدأ التجنس الذي كان يعد بعصر مثالي ، عند التطبيق ، انه باعث للانشقاق أكثر من ذلك الانشقاق الذي يبعثه المبدأ الملكي •

* * *

ومهما يكن من أمر ، فهناك نقطة مؤكدة : لقد استطاعت القوميات بنشاطها عقب قرن من التمزق ، اسقاط أوروبا من مرتبة الدولة المتحكمة بالعالم الى مرتبة دولة نصف مستعمرة • وكما كان الحال في السابق فقد أخذت الصين اليوم تستخدم الحدود المغلقة خانقة كل حق بابداء الرأي ، لكي تجابه الامبريالية العالمية • والتي تشدها هي أيضا قومياتها الخاصة •

ومع هذا هناك ، بالنسبة للتماسك بين القوميين ، فرق كبير بين قوميي الولايات المتحدة الذين هم ، من وجهة نظر المنطق والتاريخ ، كتلة متراصة ، وبين قوميي دولتي الاتحاد السوفياتي والصين ، حيث تسيطر أمة على مجموعة من شعوب مختلفة تفكر كلها دوما باستقلالها الماضي ، وكان ذلك أيضا ، منذ بضع سنوات فقط ، شأن الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية •

* * *

وتتجه كل الدول ، وخاصة تلك التي استقلت مؤخرا ، نحو القومية • وتقوم هي أيضا ، متذرعة بأي ادعاء ، وفي سبيل توطيد تماسكها أمام الخارج ، باختيار اعداد معينين ، وبايجاد خلافات على الحدود ، مدعية باستعادة اراضي مغتصبة منها • أي انها ، آجلا أو عاجلا ، سوف تضع نصب عينها تهيئة صدام دموي • ومنذ عام ١٩٤٥ اصبح عالمنا ، الذي تقاربت أقطاره فاختنقت منه الحروب البعيدة ، قد اصبح عرضة للاضطراب وللتسربل بالدماء من جراء « حروب المستقلين حديثا » والذين يتحرقون شوقا ليصبحوا بدورهم غزاة • وهكذا كانت حرب كوريا وفلسطين

وحروب الهيمالايا والفيجيج[1] وكشمير ، والكونجو والفيتنام وكردستان واليمن ، الخ •••

وأكثر ما يدعو للسخرية والرثاء هو حالة العالم الثالث (أو البلاد النامية أو أي اصطلاح آخر يطلق عليه من أصل هذا السيل المتزايد من الاصطلاحات التـي نكاد لا نعرف له نهاية) • فبينما لا يستطيع سكانه تأمين غذائهم نراهم ينصرفون الـى التسلح ، ويريدون الغزو • وكلهـم يطالبون بأراض متنازع عليها أو بتعديل حدود غير عادلة • وتتحول ثرواتهم القليلة لاقتناء وسائل حرب مر عليها الزمن ، والتي تقدمها اليهم الدول الكبرى بسادية • ووراء هذه المطالب وهذه « الانضمامية »[2] يختفي الموجهون الذين اثقلتهم المشاكل الاقتصادية ومشاكل التفجر السكاني[3] •

* * *

لقد اعتقد الملوك والحكام المستبدون من أمثال هتلر ، انهم ما زالوا في القرن الثامن عشر فاندفعوا في مغامرات حربية • واعتقدوا أن بوسعهم استخدام الحرب كمـا يستخدمون آلة من الآلات يسيرونها متى ارادوا ويوقفونها متى شاؤوا • لقد كان خطأ الحاكمين في عام ١٩١٤ هو اعتقادهم ان في استطاعتهم ، ووفقا لاهوائهم أن يوقفوا حربا كما كان الحال في عهد

---

(١) الفيجيج : نسبة لنزاع قام على واحة الفجيج الكائنة في جنوب شرق المغرب قرب الحدود الجزائرية •

(٢) الانضمامية Irrédentisme : نظرية سياسية نادى بها الوطنيون الايطاليون بعد عام ١٨٧٠ • غايتها ضم المناطق التي يسكنها أبناء جنسهم ولغتهم والتي كانت خاضعة لدول أجنبية •
— المعربـان —

(٣) لنتذكر أن رأينا حول التفجر السكاني يستبعد الارقام المطلقـة وكل البيانات المتفائلة وذلك لانها كلها كيفية ولا تعكس الا التفضيلات التي يستهدفها كل واحد • (مثلا لو أراد الفرنسيون تبني مستوى معيشي يعادل المستوى المعيشي الهندي وذلك بتجنب اللحوم والخمور والعربات وأن يرتدوا الأزار ، فسيبلغ سكان فرنسا أربع أو خمسمائة مليون نسمة) • والمقصود من التفجر السكاني ببساطة هو أن بلدا ما ازداد عدد سكانه بأكثر من ازدياد نمو موارده • وهذه حالـة نسبية وقابلة للتغيير •
— المؤلف —

لويس الرابع عشر أو فريدريك الكبير ، بينما هم في وقت عم فيه التجنيد وانتشرت فيه الجيوش الشعبية .

لقد تجاوزت ديناميكية الحرب الشعبية . هؤلاء الحكام جميعا . فلم يعرفوا ولم يستطيعوا السيطرة على شعوبهم أو على الشعوب المعادية ، لان الشعور بالكرامة لدى الدول الديموقراطية اكثر اتقادا فيها منه لدى الدول الارستوقراطية ، وأصبح العالم في أعلى درجة من التطرف . فكل من يتحدث عن قبول سلم اتفاقي ، يعتبر خائنا يجب نبذه . ولا يمكن في مثل هذه الشروط أن يعنى الا بالحروب الشاملة وبالاستسلام دون أي قيد أو شرط . فقد امتطى كل الرؤساء صهوات خيولهم المتحفزة . ومن الغرابة أن تذكرنا برلين ـــ في بعض جوانبها ـــ بنهاية الكومونة[1] ، كما وصفها زولا في كتابه « الانهيار » . ان هذا يمثل القنوط من فك حصار محكم في المدن القديمة التي كانت في أغلب الحالات ديموقراطية .

***

وفضلا عن ذلك ، تجد القوميات السلوك السياسي ، وخاصة السلوك المرتبط بالحرب ، طبيعيا جدا ، في العصر القبلي . فهي تعتبر الابادة في الدرجة الاولى ، تصرفا طبيعيا من قبل هؤلاء « المتوحشين الطيبين » . ويروي السيد هوبرت ديشامب ، الاستاذ في السوربون وحاكم المستعمرات القديم ، أنه ، وهو في أول عهده بادارة المستعمرات ، صادف وقوع الحادث الشنيع التالي : ان سكان قرية احدى المقاطعات البعيدة في جنوب مدغسقر (على حدود قبائل آتتاندروي و ماهافلي) التي نقل اليها ، قاموا ذات ليلة بالاغارة على القرية المجاورة . فأحرقوها وذبحوا كل سكانها : الرجال

---

(١) اسم اطلق في العصور الوسطى على كل مدينة تلقت براءة حريتها من الملك او السيد الاقطاعي . وهذا كان يعطيها الحق باقامة التحصينات وتنظيم التجارة وجمع الضرائب وتدفع الاتاوة للسيد الاقطاعي . وقد قامت تحت اسم كومون باريس (مارس ـــ مايو ١٨٧١) حكومة لمقاومة حكومة تيير تعبيرا عن رفض الباريسيين شروط الصلح التي فرضها بسمارك . وقد تمكن جنود تيير من انهاء هذه الحكومة وقتلوا ١٧٠٠٠ شخصا . معظمهم من النساء والاطفال .

ـــ المعربان ـــ

والنساء والأطفال ، وبلغ عدد الضحايا ما يقرب من ٤٠٠ ضحية • ثم غادروها وهم يطلقون صرخات الفرح • ولدى استجوابهم استمدوا من تقاليدهم العذر : انهم احترموها عندما قاموا بالاعلان عن هجومهم قبل يومين من وقوعه •

* * *

منذ أن ظهرت القوميات في أوروبا أصبح تاريخها عبارة عن مجموعة أعمال فاشلة ، وذلك لعدم استطاعة أي شعب فيها القضاء على اعدائه البينين • ولا زال كل شعب في أوروبا يعتقد بأنه مظلوم وعرضة للتهديد الدائم • ويقول كل اطباء الامراض العقلية أن الاعمال الفاشلة هي مبعث التوتر العصبي •

* * *

فما هي الابادة الشاملة ؟ انها ليست الا انهاء كل مطالبة ، بالقضاء على المطالبين •

ان مثل منطقية هذا الاسلوب يجب أن توصل الى مثل هذه النتيجة • ولهذا لم يتأخر ظهوره على المسرح • وقد اعطتنا أوروبا الانموذج الاول • لقد اعتقدت أوروبا انه عندما تجسد الطغيان الآسيوي القديم بصيغته التقليدية ، وعندما خلع السلطان عبد الحميد عن العرش ، هذا السلطان الذي كنا ندعوه ، في فترة ساذجة ، بحماسة « السلطان الاحمر » اعتقدت أوروبا بأن كل ذلك قد وضع حدا للمذابح ، ومنذ ••• ولكن ماذا يفيدنا هذا التعداد ؟ فان لم تدخل المذابح في عاداتنا بعد ، فانها على كل حال دخلت في ذكرياتنا القريبة أو التي عشناها مثل النفي ، ومعسكرات الاعتقال ، والتي يضاف عليها في ايامنا هذه « ذكرياتنا عن المستقبل » الابعاد الذرية • ولكن ماذا يمكن لاخلاقي أن يقول ؟ هل اختلف الامر عندما تعرضت هيروشيما للافناء ، عن الافناء الذي تعرضت له مدن أخرى بحد السيف كقرطاجة والقدس ودمشق ووارسو ؟ ترى أيهما أكثر بشاعة : اهلاك الابرياء مع الحفاظ على كرامتهم ؟ ام احراقهم بعد تعذيبهم وتحقيرهم بسفالة في اوشويتز ؟ هل الافضل احراقهم بنار قليلة أم بنار كبيرة ؟ ولكن هل علينا أن نقتصر اليوم على بحث مثل هذه الانواع من المشاكل ؟ وهل

هذا يعني ان الانسانية ما زالت في موقفها ذاته .

* * *

يظهر السلم في يومنا هذا كأنه بني فوق أرض متحركة تموج بالاحقاد والضغائن وبالمطالبين باسترداد الحقوق ، لانه جاء فعلا عقب حروب شعبية . ان ثمة آثاما كثيرة تحيط بقواعد السلم ، آثاما تبعده عن أن يكون مصدر هدوء حقيقي . انه سلم بدون صفاء ، تمور فيه الاشباح والمخاوف. ان سلمنا هذا مثل سلم ديموقلس مليء بالوعيد والرعب .

لقد استهدف الاتراك ، مثلا ، تصفية الارمن المقيمين بارضهم . ولكنهم لم يجنوا من هذا العمل شيئا . لأن روسيا قامت بتجميع من بقي حيا من هؤلاء الارمن ، وحشدتهم على حدود تركيا لتستخدمهم كجوقة تتصايح بالانتقام ولتتخذهم ، في كل مناسبة ، ذريعة لتهدد تركيا باسمهم. وحدث الشيء نفسه لروسيا : عندما نقلت الكثير من الشعوب المسلمة الى سبيريا مثل التتار من سكان القرم أو التشيتشين من القفقاس . هذا العمل لم يؤد الى نتيجة ما ، لانه بفعل الواقع ومن ذلك اليوم غدت المطالبة بهم من صميم نشاط كل مسلمي العالم . وسوف تزداد المطالبة بهم وضوحا حتما بمجرد ملاءمة الظروف السياسية لذلك .

في وقت ما قال ابناء الذين كانوا منتصرين عبثا : « هتلر .. نحن لا نعرف عنه شيئا » ان هذا لا يعني أنهم استطاعوا محوه من ذاكرتهم أو ذاكرتنا . ومع هذا فانه من أغلى الامنيات أن ينسى العالم الضحايا كما ينسى الجلادين . ولكن كيف يمكن خنق هذه الذكريات التي تثقل كاهل الجميع ؟ كيف يمكن وضع حد نهائي لهذه السلسلة من أعمال العنف والظلم ؟ وما هو العلاج النفسي الكبير الذي نلجأ اليه ؟ وهل هناك مثيل لنهر ليتي[1] يحمل الينا النسيان ؟

---

(١) نهر ليتي ورد ذكره في الاساطير اليونانية .وتعني كلمة ليتي بالاغريقية النسيان ، وهو عند اللاتين نهر في الجحيم وجعله دانتي في الفردوس الارضي . (انظر الكوميديا الالهية ــ المطهر ــ الانشودة ١٨ ص ٣٦٦)

ــ المعربان ــ

ان لدينا الآن نماذج عن ارقاء بأبل • فالاسر المسلمة الموجودة في افريقيا الشمالية والتي سبق أن طردت من اسبانيا منذ خمسة قرون لا تزال تحتفظ بمفاتيح منازلها في غرناطة • ويحتفظ رجال « الاقدام السوداء »[1] اليوم بمفاتيح دورهم في الجزائر ، تلك الدور التي اضطروا لمغادرتها تحت ضغط مماثل من الفزع •

وكان كثير من جنرالات جيش الاحتلال الالماني يحملون اسماء فرنسية • انهم من سلالة أولئك الهيوجونوت الذين عوقبوا بدون أية محاكمة من قبل لويس الرابع عشر • (يجب أن لا ننسى أن الغاء مرسوم نانت[2] كان تدبيرا مقبولا جدا من الشعب في تلك الفترة) • ولكل أعمال التشريد آثار ، حتى أن أعمال السلب تحمل الرفاه للمغتصبين ولو عند وقوعها على الاقل • ويشبه ابتهاج المنتصرين بالنصر ، وكذلك ابتهاج المعتدلين منهم ، ابتهاج الرياء الذي يسود ورثة أي تركة من التركات •

* * *

ان سلم عام ١٩١٨ كان مثلوما منذ بدايته بتلك المطالبة العامة : باعتماد الامة على مواردها الاقتصادية • وكان هذا السلم ، النتيجة الاولى العملية التي تمخض عنها مؤتمر جنيف عام ١٩٢٠ • ولم يسفر هذا المؤتمر ، الذي كان يجب أن يقام على اساس من التعاون الاقتصادي بين الامم باعتراف الجميع ، الا عن تخيل مثالي • والبرهان على هذا ان كل أمة تحاول التخلص من القواعد التقليدية التي تحكم التجارة الدولية ، من

---

(١) الفرنسيون أحفاد المستعمرين الاوائل .

(٢) الهيوجونوت هم بروتستانت فرنسا المعتنقون لمذهب كالفان . وقد منحهم هنري الرابع بعد الحرب الدينية في فرنسا (١٥٦٢ ــ ١٥٩٨) تسامحا دينيا تاما بموجب ما عرف باسم مرسوم نانت ثم ما لبثت الفتن الدينية أن اشتعلت وخاصة اثر ادخال المذهب الكاثوليكي . فاستند اليها ريشليو لحرمان الهيوجونوت من امتيازاتهم وحقوقهم وسلطاتهم السياسية . وازداد هذا الاضطهاد عنفا في عهد لويس الرابع عشر ، الذي الغى مرسوم نانت ولاذ الكثيرون من الهيوجونوت بالفرار الى انكلترا وهولاندا والمانيا وسويسرا وامريكا حيث شاركوا بالحياة العامة بايجابية مطلقة .
ــ المعربان ــ

الوظيفة المعدلة لاسعار الصرف ، بحجة انشاء سوق انتاجية مستقلة وخلق نقد سوف تحدد قيمته بشكل تحكمي ومطلق • وكانت كل الحكومات الاوروبية تريد أن تجعل مــن نفسها منفذة لشريعة الغاب بحيث تحدد تحكميا مراتب الاشياء والناس •

وقد قاد مبدأ التجنس ذاته أيضا ، ولكن بطرق ملتوية ، الى تقديس الدولة محققا آمال هيجل • وقــد يكون مــن أكبر مساوىء حظ المانيا وأوروبا أن هجرت المانيا عبقرية « كانت » الانسانية والعالمية والمتواضعة في الوقت نفسه لكي تتبنى ادعاءات هيجل الشرسة • ومنذ ذلك الوقت أخذت كل أمة من الامم بعبادة ذاتها وحبها لنفسها بدون كلل أو ملل •

وكانت هكذا ايضا وجهة النظر الاقتصادية : فمنذ فريدريك ليست (الاقتصادي الذي كان أول من قال بنظرية الاقتصاد القومي وبالاكتفاء الذاتي قبل أن تكتب) ، كان الاقتصاد الوطني يؤكد على الظهور أكثر فأكثر بمظهر المتشكك ، المتلهف والمتخوف من كل تعاون دولي • وكان فيخته قد رسم ، قبل ليست ، في كتاب طواه النسيان « الدولة التجارية المغلقة » الانموذج المثالي لامة أغلقت حدودها نهائيا في وجه كل تبادل ادين باللااخلاقية • فانكمشت في معيشتها معتمدة على الموارد المقدسة التــي تنتجها ارضها المحرمة • حتى ان فيخته يعارض دخول السائحين العاديين الى البلاد لانهم سيفسدون ، حسب رأيه ، اخلاق السكان بمظاهر البطالة وبالامثولات السيئة التي يقدمونها •

الفصل الرابع

إقامة السلم

ب ـ على دعائم حقوقية

المعاهدات والمشروعات السلمية

تعاقبت الهدنات والتسويات أو الاستسلامات كما تعاقبت معاهدات السلم عبر العصور . ففي عام ١٩٠٠ وضع أحد المؤرخين لائحة بثمانية آلاف معاهدة معروفة ومصنفة . ولكن الى جانب تلك الاتفاقات الرامية لوضع حد للاعمال العدوانية أو تلك التي تقر وقوع حالة عنف جديدة تبرز ، وعلى فترات متقطعة اتفاقات أكثر تعقيدا ولكنها تشكل خطط سلم حقيقي وتطمح باقامته الى ما لا نهاية .

وقد صمم كل اتفاق من تلك الاتفاقات ، بعد سلسلة طويلة من الحروب ، واستمد قوته من التجربة الدموية ، بقصد الحيلولة دون أية عودة لمثل هذه التجربة . ولهذا كانت كل خطة سلم تحمل في طياتها بصورة ضمنية أو مستترة نظرية عن الحرب واسبابها وأساليب معالجتها .

* * *

ان الانموذج التقليدي لخطط السلم هو ذلك الانموذج الذي رأينا كبار الغزاة يستخدمونه ، مرارا وتكرارا ، لتبرير أعمال التدمير والمذابح التي قاموا بها . اما في الحقيقة فانهم لم يكونوا يفكرون أولا بهذا التبرير . ولكنهم كانوا يتطوعون لايضاح هدفهم النهائي بأنه اقرار السلم العالمي ،

تحت سلطانهم الوحيد وفي كنف دولة كبرى ، بحكم المهنة . ان ذلك اذن نزعة فردية كنزعة قيصر أو شارلمان (اذا حصرنا حديثنا عن الاقدمين) أو نزعة جماعية كتلك التي فرضها الشعب الروماني ، أو نزعة عقائدية تدعو المتمسكين بها ليكونوا هم المدافعين عنها والمنتفعين منها على السواء .

وقد خلبت فكرة الدولة الكبرى ، حتى تلك التي اقيمت بأحط الوسائل خسة أو شراسة ، لب أكثر من مفكر واحد . فالتاريخ يرفع أو يخفض من شأنها أو يقترب أو يبتعد عنها ، وذلك دون أي كلل منه . ويأمل هؤلاء المفكرون بأن تضع الدولة الكبرى حدا لهذا التنافس المزعج والباهظ الثمن ، لان الحرب هي اداة هذا التنافس المفضلة . وبما أن الحرب ليست الا نتيجة صدام بين الحكام فانهم يقبلون ، أو يأملون أحيانا ، قيام غاز يطيح بهم اطاحة شاملة . ولهذا فهم يعتقدون أن التاريخ أو على الاقل « التاريخ الحربي » سوف يريحهم جميعا .

ومن المؤسف أن تظهر التجربة أن السلم الذي يمليه كبار الغزاة كان دائما قصير الاجل وغير مستقر . ونادرا ما كان يستمر أكثر من استمرار فترة حياتهم . ولنتذكر خلفاء الاسكندر وشارلمان او جنكيزخان ، فقد اقاموا الامبراطوريات أو قوضوها بالدماء . ولما تقم — ويا له من ثمن (الدولة — الكبرى) حتى قامت المعارك بين الاحزاب ، والمصادمات بين الملكيين ، والمنافسات بين المقاطعات الريفية ، بين الجنود ، بين الرؤساء . والثورات الاقطاعية الخ ... وتعرضت الامبراطورية الرومانية منذ عهد « سيلا » لموجات مستمرة من الحروب الاهلية كانت من الاتساع والافقار بحيث توازي تلك التي سببتها النزاعات الدولية الكبرى .

* * *

وجاءت مخططات الاتحاديين على جميع صيغها لترد على هذه الاعتراضات . وكانت الغاية من هذه المخططات تجنب مساوىء الدولة الكبرى ، من جهة ، وتجنب مساوىء تفتيت السيادات من جهة أخرى . وقد اقيمت هذه التجربة مرارا ، منذ عهد منتدى المدينة في اليونان القديمة وعهد أحلاف المدن القديمة والامبراطورية المقدسة والدول الاتحادية الحديثة . وقد جمعت هذه التجارب دولا ذات سيادة بواسطة اقامة روابط

سياسية واقتصادية مستمرة فيما بينها .

وإذا أخذنا الامر من زاوية الحروب الخارجية وجدنا أن الدول الاتحادية أو الاتحاديين ليسوا بأقل ولا أكثر شراسة من الآخرين . ولكن الاكثر خطورة هو عدم امكان هذا البنيان السياسي ضمانة السلم الداخلي ، هذا السلم الذي رأيناه أكثر ما يكون مهتزا منذ عهد سادووا[١] وحتى عهد الانشلوس[٢] في التاريخ الداخلي للامبراطورية المقدسة . وكانت الحرب الاهلية بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية ، كأنموذج فريد ، أكثر نزاعات القرن التاسع عشر دموية . فقد جاوزت خسائرها خسائر الحرب الفرنسية ــ الالمانية عام ١٨٧٠ . ونشاهد اليوم أن عقيدة القوة السوداء (التي لا تقل اثارتها للرعب عن الغموض الذي يكتنفها) تهيء لمذابح مماثلة[٣] .

* * *

وتتأثر بعض مخططات السلم بشكل السلطة السياسية الداخلية للدول . وبالتالي فانها تفرض مبدئيا وجود انظمة سلمية وأنظمة حربية بروحها .

وإذا صفقت شعوب القرون الوسطى كثيرا لاقامة الملكيات الكبرى التي وضعت حدا لحروب الاقطاع ، فانه بعد ثلاثة قرون من الحرب الملكية ، وعشية الثورة الفرنسية بالذات ، كان الرأي العام يرى أن الملوك هم المسببون الرئيسيون للحروب وأنه لا يرجى صلاحهم . وسبق لايزنارد أن قال أمام المجلس التشريعي : « سيتعانق أفراد الشعوب امام اعين الطغاة المخلوعين وفي أرض يغمرها الرضا ، وتحت سماء يملؤها الامتنان » . وربما تصل النزعة السلمية لاقصى مداها عندما تشن الحرب في سبيل الدفاع عن السلم . الم يقل ايزنارد نفسه « سنجند الشعوب في حرب ضد الملوك حتى الموت .. » .

(١) سادووا : قرية في بوهيميا اشتهرت بمعركة كبيرة هزم فيها البروسيون بقيادة الملك غليوم النمسويين في عام ١٨٦٦ .
(٢) انشلوس مصطلح اطلق على مشروع توحيد النمسا والمانيا بالقوة .
(٣) انظر « القوة السوداء » تأليف مالكوم .
ــ المعربان ــ

وبقدر ما كان الايمان يضعف بشرعية النظام الملكي ، كان القانون الدولي يبحث عن مبدأ صالح ليحل محل ذلك النظام • وكان هذا البديل ، كما رأينا ، مبدأ التجنس ، الذي توطد عقب الثورة الفرنسية • فمن رأي نابليون الثالث : « ان الرضا بالجنسيات سوف يدعم الرابطة الاوروبية » ولكن برودون ، الوحيد الذي لم يكن يشاطر نابليون هذا الحماس ، يقول متنبئا « ان ديموقراطية الامبراطوريات » سوف تكون أكثر شراهة للامجاد والغزو من الملكية القديمة » • واذا منح المتمتعون بالجنسية حقا مقدسا لا ينتقص ولا يناقش ، فان هذا يعني أن مبدأ التجنس سوف يحفز على التشبث والطموح • ونجاح نظرية جان جاك روسو ، حول عدم سقوط حقوق الشعب بالتقادم ، سوف يتيح من جديد اعادة بحث الحدود والمعاهدات • وما دام التقادم غير موجود في القانون الدولي ، فان أكثر النزاعات قدما يمكن أن تبعث من جديد وبصورة شرعية •

وهكذا ظهر مبدأ التجنس زاخرا بمنابع الشقاق والنزاع • واعطى الشعوب شعورا نفسيا بعدم الاستقرار الدائم ، مماثل للشعور الذي ساد القبائل البدائية • لقد اصبحت كل الحدود المجاورة مناطق متنازع عليها بوضوح ويطالب بها عدد من الدول المجاورة •

وعندما أصبح مبدأ التجنس ، ذا نزعة قومية ، انحط الى نوع من عبادة الشعوب لذاتها ، وأفضى به الامر الى تبرير أشد الاعمال شراسة • وليست مذابح هتلر ، ومشروعاته المخيفة للقضاء على شعوب بكاملها أو تهجيرها في سبيل تعديل خريطة الجنسيات ، ليست هذه المذابح الا نتيجة جنون هذياني ، ولكنها مع الاسف منطق يستخدمه قوميون مثارون •

* * *

ولا يمكن القول بأن الحروب قد قامت بسبب المطالبة بالحقوق فقط أو بسبب الدفاع عن مصالح الاسر الحاكمة أو الدفاع عن المصالح الوطنية • ففي بعض الفترات كان الدافع الاساسي للعدوان الجماعي هو الدفاع عن عقيدة ما أو مهاجمتها ومهاجمة أولئك الذين يعتنقونها • ففي سبيل اقامة الدولة الكبرى اتخذت العقيدة الواحدة كمبرر لاقامة تلك المجازر الكبرى • والتاريخ غني بالحروب المقدسة والحروب التي أملتها

العقائد ، حيث كان اسر النفوس يرتبط بحتمية أسر الاجساد واستباحة الامـوال .

ولكن هـل يمكن للعقيدة الواحدة المنتصرة التـي أصبحت قاعدة أساسية لنظام سياسي ، أن تأتي بالسلم ؟

في القرون الوسطى ، عهد سيطرة العقيدة الواحدة ، نجـد الامم المسيحية تتقاتل فيما بينها أكثر من تقاتلها مـع غير المؤمنين بالمسيحية . وكذلك نجد أن الفتح الاسلامي لم يستطع أن يوقف القتال بين المؤمنين بالنبي بعد أن أغرق جزءا من العالم في النار والدم[١] . كما لـم يؤمن الاهتداء الى الاسس التي أجمعت عليها آراء الجمهوريين أو الاشتراكيين سلاما أكثر بين معتنقي هذه الآراء . حتى انا نرى الفرد كان يبتسم رثاء كلما استعاد في خاطره ذكرى أولئك الذين انتزعوا احشاءهم في سبيـل جملة من أقوال القديس اوغسطين ، نرى هذا الفرد مستعدا لتحمل كل شيء ، ولاتخاذ كل اجراء في سبيل جملة من أقوال كارل ماركس .

ونرى أيضا أن اقتراح خطط سلم ايديولوجية يأتي بصورة منتظمة بعد فترات من حروب عقائدية . وقد بنيت المعاهدات التي أعقبت نهاية حرب الثلاثين عاما على ما نسميه الآن « مبدأ التعايش » وترتب على الدول الكاثوليكية والبروتستانتية بموجب هذه المعاهدات أن تمتنع عن تدمير بعضها بعضا . ولكن التسامح الذي تأكد بين الدول ، لـم يتأكد داخل الدولة . فلم يكن « الناس على دين ملوكهم » . وظهرت بعـد الحروب الدينية الفرنسية محاولات جدية لتلافي مـا سبق بالتعاهد على التسامح داخل المملكة . ومن الغرابة أن تنجح أغراض صلح وستفاليا أكثر مـن نجـاح أغراض مرسوم نانت . وحقيقة الامـر أن تجريـد الفرنسيين البروتستانت من « دواعي أمنهم» جعل منهم أقلية مهملة لا تملك أيـة وسيلة للدفاع ، وانحدرت من سيء الى أسوأ فأدى هذا الوضع الى نقض هذا المرسوم .

---

(١) لقد سبق لوغستاف لوبون ان قال رايه الصريح ب : ان التاريخ لم يعرف فاتحا ارحم من العرب ويكفينا ذلك ردا على المؤلف .
ــ المعربان ــ

ومع هذا لم يتعرض أي مخطط للسلم الى اخفاق كامل • فكل مخطط اما أن يكون تعبيرا عن الاختلال ، أو تعبيرا عن نهاية صراع ما • ذلك لان هذه المخططات كانت تجابه ، على الارجح ، في كل مرة حربا ، فقد هدفها قيمته ـ أو اذا امكن القول ـ اصبح هدفا باليا • ومما يدعو للاسى اننا نشاهد بانتظام ولادة جرثوم عدوان وبيل جديد سيكون باعثا لنزاعات دموية • فما أن أبعد مبدأ الملكية عن عرشه حتى حل محله مبدأ القومية • وما أن هدأ التعصب الديني ، أو خيل للمراقبين أنه هدأ ، حتى اكتسحته العقائد السياسية • ونحن الآن في مرحلة العقائد السياسية •

لقد نجحت كل خطط السلم ، أو ساهمت في القضاء على نزاع ما أو على سببه ، ولكن خطط السلم لم تتمكن من القضاء على الحرب ذاتها • وتختلف المبررات والحرب باقية • وتستند هذه الحرب في كل مرة على أسباب جديدة ، صالحة ومثيرة • لان خطط السلم ، مثلها مثل النزعة السلمية التقليدية لا تعالج الاسباب الاجتماعية التي تشكل القوام الدائم للحرب وانما تعالج المظاهر التاريخية والمرحلية للحروب •

كل هذا يحملنا على الاعتقاد بأن الحرب ليست هي الاداة التي اعتمدتها المسببات لتفجيرها ولكن ، على العكس ، كانت تلك المسببات مبررات لشن الحروب دوريا •

ولنعد الآن للمشكلة المعلنة : هل نفقد كل أمل في حلها ، فلا نتوصل لاستتباب السلم ؟ نحن لا نعتقد ذلك : اذا كانت الحرب صدى لهوى الرجال وخبثهم ، فالمشكلة لا تنتهي الا بتغيير الطبيعة الانسانية • اما اذا كانت الحرب ظاهرة مستقرة مراقبة ، خاضعة لشروط وسنن ، ولو بأدنى مستوى ، فاننا نأمل بأن نتحكم بالمشكلة كما نتحكم اليوم بالثقالة أو بالكهرباء •

وقد رافقت « ظاهرة الحرب » كل اشكال المجتمعات منذ عهد ما قبل التاريخ • فهي تشكل ، حتى يومنا هذا ، وظيفة متصلة بوجود هذه المجتمعات • فالحرب ، كمذهب أو عمل هادم للثروات وللحياة الانسانية ، تظهر ـ اذا ما جردت من وقائعها التاريخية ـ كأنها شكل مكرر من أشكال

اعادة التوازن السكاني ـ الاقتصادي وانطلاقة مفاجئة مهلكة تأتي بعد تراكم بشري بطيء •

ولو طرحنا المشكلة بتعابير سياسية ، وجدنا أن مشكلة السلم ستبقى مرتبطة بالتقاليد القديمة الشاقة • وبهـذا تتماثل المشكلة مـع الاوهام الحقوقية التي بقيت ، رغم خذلانها آلاف المرات ، حية ، فهي تشبه الحرب بأنها نزاع بـين الخاصة • وتتماثل أيضا مشكلة السلم مـع نزعة السلم التقليدية أيضا التي تشبه محاولة طبيب مكافحة الاوبئة بالاشادة بمحاسن الصحة التامة •

لقد آن الاوان لكي نعالج مشكلة السلم بتعابير أخرى وأن تتعرض للجذور العميقة للعدوان الجماعي وليس لظواهره المتغيرة • ان علينا أن نعيد اكتشاف السلم •

الفصل الخامس

وقاية السّلم

١ـ بالعمل وبالعقائد السياسيّة

عندما يعود السلم نطرح السؤال على أنفسنا حول النزاع الذي سبقه • ما هي أسبابه ؟ ومن هو المسؤول عنه ؟ كما تتساءل في الوقت ذاته عن كيفية تجنب الوقوع من جديد في اخطاء النزاع السابق ذاتها •

وتبدو الحرب لنا لاول وهلة كحدث سياسي • ولهذا فان أول تحرك نقوم به هو وضع ملاحظاتنا في هذا المجال •

غير أن النظرة هنا تختلف تمام الاختلاف تبعا لموقفنا في معسكر المنتصرين أو معسكر المغلوبين • وتختلف نظرتنا ايضا تبعا للعصور التي نعيشها • ففي مرحلة الاجماع على الرأي لا يتغير شيء سوى تبديل الرجال الموجودين في السلطة • بيد ان الحرب ، في زمننا هذا تعتبر اختبارا للانظمة السياسية • فالانتصار يثبت هذه الانظمة ويقويها ، في حين تقوضها الهزيمة •

وهناك اتجاه عام لتحميل النظام السياسي مسؤولية الهزيمة • ولا تقتصر هذه المسؤولية على الهزيمة فحسب ، بل على مسؤولية الحرب • ويتهم النظام بأنه لم يعرف كيف يصون السلم ، بصورة ايجابية أو سلبية •

ولنأخذ مثلا على ذلك حالة فرنسا : فمن أصل خمسة تغيرات في أنظمة سياسية ثابتة منذ عام ١٨١٥ ، انبثق ثلاثة منها عن حرب خاسرة •

* * *

ولنفترض الآن أن المواطنين في كل بلد من البلدان يعقلون بهذا الشكل ، كل من ناحيته ، أي أنهم يحملون أنظمتهم السياسية مسؤولية عدم وقاية السلم ، وبأنهم لم يحولوا دون فساده ، فأصبح هذا السلم بدوره أرضية للحرب واطارا لها • ولنتساءل الآن ماذا سيقولون عن أحداث ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ ؟

ان من حق الالمان ان يعزوا هذه الاحداث الى ديكتاتورية الحزب الوطني ـ الاشتراكي • أما الروس فيعزونها الى النظام الشيوعي والى ديكتاتوريته التي يمارسها نظريا باسم البروليتاريا[1] • ويعزو الامريكيون هذه الاحداث الى الديموقراطية الرأسمالية ، كما يعزوها الانكليز الى السلطة البرلمانية ، ويحمل الفرنسيون مسؤولية الحرب وأحداثها ووقائعها في هذه الفترة للجمهورية الديموقراطية • وسيكون كل طرف من هذه الاطراف على حق ، لان لكل حكومة من الحكومات قسطا لا بأس به من المسؤولية في النزاع • فالروح العدوانية للبعض ، وسلبية وعمى البعض الآخر ، أو ماكيافيليته القصيرة النظر ، كل هذا قد ساهم في جرنا الى الحرب العامة •

غير أن المشكلة في الحقيقة أوسع مما نظن ، لان بنيان الدولة التقليدي آلة لصنع الحرب بصورة خاصة • ولهذا السبب ، تشترك كل الانظمة السياسية في النقطة التالية : فهي تحارب ، والانكى من ذلك ، تصل هذه الانظمة السياسية الى الحرب دائما ، من خلال أكثر النوايا ، والتحولات ، تنوعا ، واختلافا • وليست المشكلة سوى مسألة مراحل متتابعة • فالحرب هي الشيء الوحيد الذي تستطيع كل الانظمة السياسية خوضه بدءا من اكثر الانظمة جمودا وقدما ، الى اكثرها جدة وتحسينا • ان اعداد الحرب اسهل بكثير من اشادة السلم وتنظيمه •

---

(١) اننا لا نرى أي ارتباط في هذا الكلام . فسمؤولية الحرب العامة معروفة تمام المعرفة ، فسواء اكان الحزب الحاكم في روسيا هو الحزب الشيوعي او أي حزب آخر ، فمن الطبيعي ان تندلع الحرب ضد روسيا لان المانيا تريد التوسع ، وهناك اسباب اقتصادية لهذه الحرب .

ـ المعربان ـ

وبعد التوصل الى مسؤولية الانظمة السياسية عن الحرب ، من الممكن أن تتحرى عن الايديولوجية التي تعبر عنها الانظمة السياسية ، أي عن العقائد المطبقة أو السائدة ــ أو المتمشية مع الاعراف الحالية (المودة).

فما هي النزاعات الايديولوجية التي قامت منذ القرن الثامن عشر ، أي منذ الفترة التي زهت البشرية فيها وشمخت بالكبرياء ، والغربية منها على الاقل ، لانها تغلبت على التعصب الديني ؟ لقد اشعلت الثورة النار في البارود تحت علم مذهب السيادة القومية في مجابهة السلطة الملكية . ثم جاءت النظرية التاريخية التي قيل انها نظرية الحدود الطبيعية . ونشب الخلاف بين خصوم الثورة باسم مذهب شرعية الخلافة الملكية ، وباسم نظرية حقوق النبالة المكتسبة ، وهي نظرية بولانفيليه وجوزيف دوميستر(١) . وأضيف الى كل هذا التمرد الفاندي الذي كان اختلاف وجهات النظر حول كيان الاكليروس هو سببه الاساسي .

وفي غضون ذلك ، حدث تقسيم بولونيا ، ووقعت الحروب النابليونية التي يصعب ايجاد مدلول ايديولوجي لها . غير أن العقائد وجدت تعويضها الضروري في غزو التحالف المقدس لاسبانيا ، ثم في سلسلة لا تنتهي من الحروب المستمرة ، والتي كان مبدأ القوميات مبررها وذريعتها ، أي كان المبرر هو المذهب السياسي اللغوي . وفسرت حرب عام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ كحرب توسع اقتصادي : فاذا كان هذا التفسير صحيحا ، يكون سبب اندلاعها اذن نظرية التسويق ، وايجاد المنافذ والاسواق ، والتنظيم الرأسمالي للاعمال . وهناك سلسلة أخرى من الحروب الاهلية أو العالمية ، كان الدافع الى اندلاعها نظريات اخرى اقتصادية ، واشتراكية في هذه المرة يستهدف بعضها مشكلة التوزيع ، في حين يستهدف البعض الآخر القيمة أو فضل القيمة . وكان الدافع الى الحرب الاهلية الامريكية (من

---

(١) جوزيف دوميستر : (١٧٥٤ ــ ١٨٢١) كاتب فرنسي اشتغل بالسياسة . وكان سفيرا لبلاده في سردينيا وبطرسبورغ . واسع الاطلاع وصاحب منهج منطقي دقيق . أهم مؤلفاته : « عن البابا » و « امسيات بطرسبورغ » ، عام ١٨٢١ ، التي يعبر فيها عن رأيه في توحيد العالم تحت السلطان الروحي للبابا .
ــ المعربان ــ

الناحية الرسمية على الاقل) نظرية المساواة بين العروق • وعلى العكس كان الدافع الى حرب عام ١٩٤٠ النظرية البيولوجية او الحيوانية في عدم تساوي العروق •

لقد انتهت كل هذه العقائد ــ التي كان هدفها المعلن هو تزويد السلم بأسس فكرية متينة ــ بأن آلت الى خمائر للنزاع •

وحدث الشيء ذاته بالنسبة للنزعة السلمية • أفليست اكثر تأكيداتها حماسا وانفعالا هو الذهاب الى الحرب لنشر السلم واشادته ؟

* * *

ثم تأتي عقائد وقاية السلم بواسطة العدالة الاجتماعية ، أي بتلبية الحاجات والمطالب بصورة أفضل في نهاية المطاف ، وذلك بتنمية الثروة وتطويرها • ولكن هل تجلب الثروة السلم حقا ؟ ألا تعتبر الحرب من الكماليات ، المخصصة لاغنى الشعوب ؟ أفليست الامبريالية في أكثر الاحيان عدوان الدولة الاغنى على أكثر الدول فقرا من مستعمرات ، ودول تدور في فلك دول أخرى ، ومن دول موضوعة تحت الحماية بالقانون أو بالامر الواقع ؟

وبالمقابل ، فان تقدم الاقتصاد التوزيعي قد خدم طيلة المائة عام الاخيرة اعداد النزاعات المسلحة وتحضيرها ، وخدم بالتالي استمرارها بفضل التحسن الطارىء على فنون نظام الحصص • وسمح هذا التقدم أيضا بزيادة خضوع المواطنين • وحيثما يطبق نظام الحصص بشكل جيد ، تتصرف الدولة بحق حياة أو موت من يأكلون • ويعتبر سحب بطاقة التموين حكما بالموت صدر عن الدولة ضد المواطن •

وهكذا نجد أن السياسيين في مثل هذا النظام يملكون سلاحا لا يقارن بأي سلاح آخر • فلا تعتبر الدولة ، في مثل هذا النظام ، خصومها خارجين على القانون وعلى سلطتها الشرعية بصورة واضحة ومكشوفة ، بل انها تحرمهم سرا من الغذاء والحياة • ولهذا فان القضاء على الفقر

وانهاءه اختبار قاس للانظمة الشمولية[1] • وربما كان هـذا الاختبار اصعب اختبار ينبغي النجاح فيـه لان الوفرة في الاقتصاد تجلب الرخاء وتحرر الفكر • وتضع الوفرة حدا للخوف المادي الدائم ، وتقضي على الرعب الذي يطبق على المواطن من كل جانب ، هذا الرعب الذي يولد صيغة مندفعة وشرسة للسلطة • ويولد حالة الحصار التي تقوم بصورة عفوية في المدن المعرضة للمجاعات •

وعلى كل حال ، فقد برهنت التجربة العالمية للعشرين عاما الاخيرة على استحالة تطبيق النظام الديموقراطي مـن الناحية المادية في البلدان الفقيرة والمتخلفة ، بالرغم من اكثر النوايا « الليبرالية » تحررا • وتحتاج الى قبضة حديدية للمحافظة على النظام في حرمات المعجزات •

(1) Régime t a talitaire النظـام السياسـي ذو الحـزب الواحد ، الذي لا يقبل أية معارضة منظمة • وتسيطر السلطـة السياسية فيه سيطرة صارمة على جميع نشاطات الامة وطاقاتها المنتجة •

ـ المعربان ـ

الفصل السادس

وقاية السّلم

٢ ـ بالدولة الموحّدة

ما دامت هناك دول مستقلة ، فلسوف يقع فيما بينها حتما نزاعات مسلحة ، لانها تتائج منطقية لمفهوم السيادة التامة والمطلقة • بناء على هذا ، يرى الكثيرون أنه ينبغي لمنع وقوع الحروب آن يقوم حكم فردي أو دولة عالمية باخضاع او ابتلاع الدول الموجودة وامتصاصها • تلك هي نظرية أنصار الدولة الموحدة •

وليست خطة تحقيق دولة موحدة ، بالقوة عند الضرورة ، بدعة جديدة • فهي خطة من أقدم الخطط المعروفة • فقد كانت هذه الخطة خطة كبار قادة الغزو والفتح • وهي نظريتهم المفضلة ومحاكمتهم التبريرية ــ النموذجية ، التي رأيناهم يطبقونها منذ قرون سحيقة • واستخدم الجميع الحجة الاولى أو الثانية من الحجتين الرئيسيتين التاليتين : الاولى وهي البحث عن الامن ، والثانية ، اقامة سلم شامل • ولكن الامن يشبه الشيء الخفي الذي يكبر سطحه كلما زادت معارفنا عنه غنى وثراء • وبتوسيع الحدود ، وباطالة خطوط المواصلات وتمديدها ، يزيد كل فتح من الفتوح المناطق التي ينبغي الدفاع عنها ضد المعتدين المحتملين •

وكلما ضحت الشعوب ، وضحى حكامها لصالح عقيدة الدولة الموحدة ولصالح الحكومة العالمية ، كلما ازداد ايمانهم بتبعات المهمة المقدسة في انشاء هذه الدولة بالحديد والنار • السياسية **الكبرى** ، وغالبا ما تؤدي الافكار

في ايامنا هذه ، الى هذا المنهاج المغري : سوف نبدأ بتدمير جيل بكامله ، لكي نحقق السعادة العامة بعد قرون !

* * *

ان المثلين التاريخيين اللذين يعتبران من اكثر الامثلة ثباتا وشهرة على الاقل ، ان لم يعتبرا من أكبر الامثلة التاريخية لدول كبرى موحدة حققت كل واحدة منها حدود عالمها الجغرافي هما الدولة الرومانية والدولة الصينية • وقد شمخت كل منهما زهوا وفخارا بانتشار السلم واستقراره في ربوعهما • ولكن من حقنا **أن نتساءل كيف كان السلم الروماني والسلم الصيني بالضبط ؟**

لقد تم انشاء هاتين الامبراطوريتين بعد سلسلة طويلة من الحروب ، يقدمها المدافعون عن هاتين الدولتين كثمن متواضع نسبيا اذا ما قورن بالنتيجة • ورافق عمليات التوحيد تدمير مخيف ، وابادة وقتل للجنس البشري • ويكفي أن نستشهد بدمار قرطاجة وكورنتيا او رودوس ، وحرب الغاليين ، وان تتذكر أن شعوبا بكاملها بيعت عبيدا ، وان مدنا كثيرة قد دمرت ، كما احرقت آلاف القرى •

غير أن السلم الذي ادعت هاتان الامبراطوريتان تقديمه تعويضا عن قسوتهما وصرامتهما كان سلما نسبيا تماما • وفي الحقيقة ، كانت فترات السلم هذه قصيرة • فقد عرفت كل الشعوب التي أخضعتها هاتان الامبراطوريتان ، في عهد استقلالها فترات سلم مماثلة في امتدادها لمدة السلم التي عاشتها في ظل التبعية دون أن تكون مضطرة للخضوع الى القهر والسحق •

وحل الصراع فيما بين الاحزاب ، ونشب الصراع الداخلي بين الاسر الحاكمة ، وقامت الخصومات بين الجيوش وقادتها ، وتمرد الاتباع • حدثت كل هذه الامور بديلا عن الحروب الدولية في الفترة الباقية من حكم هاتين الامبراطوريتين العالميتين •

* * *

ولنأخذ من جديد مثل امبراطورية روما :

بدأت الحروب الاهلية فيها بعد أن استتبت السيطرة الرومانية اثر الحروب البونية[1] ، وبعد تدمير القوة المقدونية[2] ، وقبل انهاء سلسلة الغزوات والفتوحات • فقد جند القادة المنتصرون جيوشا لم يقودوها لصالح الدولة ، انما تصرفوا بها وقادوها لتحقيق مصالحهم الخاصة ، معتمدين على الانقسامات وعلى ما تحت أيديهم من ثروات هائلة تراكمت من جراء نهب البلاد التي فتحوها •

وبهذا الشكل امتدت المرحلة الاولى من اقامة الدولة الموحدة أكثر من قرن ، وكان هذا القرن مليئا بالحروب والاعتداءات المدمرة أكثر من القرون السابقة • وكان الثمن مرتفعا جدا مقابل كسب موهوم تبدى فيما بعد اشبه بالسراب الخادع •

* * *

وبعد خمسة وعشرين عاما من الحرب ، أقام يوليوس قيصر النظـام الديكتاتوري • وكان العالم كله يخضع له ويعطيه عندما اغتيل • وفي اليوم التالي لجنازته وقعت الاضطرابات من جديد • واخيرا وفي عام ٢٧ ق•م• ، اقام اوكتافيوس اغسطوس الامبراطورية بصورة نهائية بعد حروب شملت كل العالم القديم ، من الاندلس الى مصر الى آسيا الصغرى •

غير أن هذا السلم الروماني الاول ، الذي بذل في سبيل الحصول عليه كثير من الضحايا ، هذا السلم لم يدم الا ثلاثين عاما (الى أن توفي نيرون) • فاشتعلت مـن جديد حـرب أهلية استمرت الـى أن انتصر

---

(١) **الحروب البونية :** الحروب التي حدثت بين الرومان وقرطاجه ، عندما تحدت روما سيطرة قرطاجة التامة على غرب البحر الابيض المتوسط . وهناك الحروب البونية الاولى ، والحرب البونيـة الثانية ، والحرب البونية الثالثة . انتهت هذه الحرب الاخيرة بتدمير قرطاجة وقوتها واستتباب النصر الكامل لروما .

(٢) **مقدونية :** دولة قوية قديمة في شرق شبه جزيرة البلقان . تمزقت بعد موت اسكندر الاكبر ، وسقطت تحت قبضة روما واصبحت ولاية رومانية (١٤٦ ق•م) .

فيسباسيان[1] .

وكانت كل فترة من هذه الفترات في حقيقة الامر تبدو وكأنها حلقات أو فصول في السياسة الداخلية حربا بلغ عدد الدول المتنازعة فيها ومساحة الاراضي التي شملتها أكبر وأوسع من الاراضي التي شملتها الحروب النابليونية .

* * *

واستمر ذلك فيما بعد : ويقدم تاريخ الدولة الموحدة الرومانية تماثلا محيرا لتاريخ امبراطورية المركز[2] : فترات هائلة ومدمرة من الحروب الداخلية بين اسياد الحرب . وكان من الضروري لوضع حد للمرحلة الاخيرة من حكم اسياد الحرب ، بالاضافة الى الحروب الداخلية ، أن يتم الغزو والاحتلال اليابانيين ، **والذي لم تتحرر منهما الصين الا بالانتصار الامريكي ، أي بواسطة القنبلة الذرية .** لانه ، ينبغي أن لا ننسى ان هيروشيما وناغازاكي هما اللتان حررتا بكين .

وينبغي أن نضيف ان هاتين الامبراطوريتين الجبارتين لم تنجوا من الهجمات الخارجية بالرغم من قوتهما . فقد تعرضت الصين عبر تاريخها لكثير من الغزوات الظافرة . ولم تتوقف روما ابدا عن خوض الحروب على حدودها ، وانتهت بالركوع امام الغزوات البربرية .

* * *

وكانت نتيجة المحاولات البسيطة لخلق دولة موحدة بالقوة تدمير التوازنات السياسية والاجتماعية التي احتاج تشكيلها لقرون عديدة . فهل كان انشاء هذه الدولة الموحدة خطوة نحو الافضل أم نحو الاسوأ ؟ ان من المستحيل بصورة عامة أن نعرف ذلك ، فكيف تتنبأ بما كان من

---

(1) **فيسباسيان :** امبراطور روماني من ٦٩ الى ٧٩ عاما ، ولد في ريات . وكان يتمتع بشخصية قوية واخلاق بسيطة . اصلح الامبراطورية الرومانية .

(2) **امبراطورية المركز ،** الاسم الذي اعطاه الصينيون في الماضي لامبراطوريتهم ، اذ كانوا يعتبرونها مركز العالم .

ـ **المعربان** ـ

الممكن أن يحدث لولا هذه الصدامات المدمرة ؟ ولا يستطيع المؤرخون أن يقدموا حول هــذه المواضيع سوى الفرضيات • وحتى عندما يقدمون الفرضيات ، نراهم يعبرون بصورة خاصة عن اهوائهم •

ويحتوي أول تقسيم لامبراطورية شارلمان على جرثومة التجزئــة الاوروبية • فحول الخطوط التي رسمها حلف ستراسبورغ دارت كــل المعارك التي استمرت اثني عشر قرنا ، وانبثقت كل المطالب واندفعت •

والمثل الثاني لمحاولات التوحيد المستقى من القرون الوسطى هــو امبراطورية الخلفاء الراشدين • فلم تتوصل هذه الامبراطورية ايضا ، بعد أن دمرت حضارات البلدان المفتوحة الى فرض السلم على مواطني هذه البلدان بصورة فعلية ، وعندما تمكنت من فرضه لم يستتب سوى فترات قصيرة • وكانت الفواصل الزمنية بين فترات السلــم والحرب تجيش بالاضطراب دوما بسبب الخصومات بين المدعين بحق الخلافة ، ســواء أكانوا من الاتباع أم من حكام الاقاليم •

اما فيما يتعلق بالمحاولات القصيرة لنابليون وهتلر ، والتي لا تقل عنفا عن هذه المحاولات ، فان كلا منها لم يحقق « للبلد ــ المطية »[1] الا الضعف النهائي • وهكذا نرى أن هذه المحاولات اضعفت البلد الذي تحمل الثقل الرئيسي لهذه الاهداف الوحدوية الكبرى والديكتاتورية • ولنفكر ايضا « بخسارة الهيبة » السياسية التي تعرضت لها فرنسا فيما بين القرن السابع عشر ، وفترة ما بعد حكم نابليون • ولنفكر اكثر أيضا في خسارة المانيا السياسية فيما بين القرن التاسع عشر وعام ١٩٤٥ !

* * *

وهناك خطر آخر : **فكلما كانت الدولة كبيرة ، كانت الاضرار التي يسببها اقل خطأ يرتكبــه حكامها ، جسيمة وخطيرة** • وبهذا الشكل نرى أن الاخطاء الاقتصادية والاجتماعية لديوكليسيان[2] (وخاصــة مرسوم الحد الاقصى للاسعار ونظام الطبقات والعمل الالزامي) ادت الى خراب

(١) Pays-Monture

(٢) **ديوكليسيان** ــ امبراطور روماني حكم من ٢٨٤ ــ ٣٠٥ وتوفي في عام ٣٠٧ •

العالم الغربي بأسره وتخلفه • وكان من الافضل أن تتحرر بعض الاجزاء مــن هذه الوحدة ، لا لسبب آخــر الا لكي تكون نموذجا للمقارنة • **وبما ان البشرية غير معصومة عن الضلال فان لها مصلحة في تجزئة الاخطار ،** وبالتالي فليس من مصلحتها أن تجزيء السلطة فحسب ، بل أن تجزيء ايضا المناطق التي تمارس السلطة فيها ارادتها •

ولنقارن في العالم المعاصر اعتدال التجارب الاجتماعية القائمــة في الدول الصغيرة : زيلانده الجديدة ، البلاد السكاندينافية ، اسرائيل (١) مــع الشراسة واللامبالاة ازاء آلام اجيال بكاملها ، والمذابح وعمليات التشريد التي رافقت التجارب ذاتها في الامبراطوريات الكبرى ذات النزعة الكنسية كروسيا والصين • ومع ذلك ، كانت النوايا واحدة وهي : تحسين مصير الانسان • غير أن النزعة الانسانية في الامبراطوريات الكبرى تعطي على العكس نتائج مميتة • وفي وسعنا أن نقدم تفسيرات وتبريرات ، غير أن الوقائع هنا ، وقائع شنيعة ، فالدولة الموحدة لا تسمح بتجزئة الاخطار وتقسيمها ، كما انها لا تسمح بالتعويض عن الاخطاء المرتكبة ، الا اذا تمتعت قيادتها بحكمة سياسية هائلة •

***

فلنفترض ان كندا كانت جزءا من الولايات المتحدة في عام ١٨٥٠ • فلو صح هذا الافتراض ، لاشتركت كنــدا ، سواء طوعا ام كرها ، في الحرب الاهلية الامريكية التي كان استقلالها سببا في ابتعادها عنها • وكان من الممكن أن تقل المآسي والآلام التي تعرضت لها الشعوب في الصين عما هي عليه الآن لو أن الصين كانت مؤلفة من عدة دول مستقلة ومتوازنة •

ففي البلدان الكبيرة المتحالفة ، ينقاد الجميع الى الازمات التــي يسببها خطأ ترتكبه القيادة السياسية الواحدة • فقــد ضحى كثير مــن الاستراليين والنيوزيلانديين ، وسكان الهند أو سنغافورة بحياتهم نتيجة تردد شامبرلان أمام الاستفزازات الهتلرية • ان اخطاء الحكام تدمر المدن وتملأ المقابر : فلنعمل على تحديد المخاطر وتضييق نطاقها على الاقل •

---

(١) ان اقحام اسرائيل بين هذه الدول تحيز واضح يفتقر الى الدقة العلمية — المعربان

الفصل السابع

وقاية السلم

٣ ـ وذلك بتحديده أنه "سبب النزاع"

هناك عدد من الكتب التي عالجت جذور الحرب التي قامت في عام ١٩١٤ • وقد حاول مؤلفوها عن طريق تحليل الوثائق التي سبقت العمليات الحربية ومناقشتها ، تحديد مسؤوليات هذه المذبحة البشرية ، كمؤرخين تقليديين • وقد ألقى كل مؤلف منهم مسؤولية هذه المجازر على عاتق الخصم • فكل منهم يحاول البحث عن كبش الفداء في هذا المجال •

غير أن مصنفات النزاع ووثائقه المحفوظة تظهر أنه ما زال هناك شك كبير في تحديد المسؤولين عن نشوبه •

وتعتبر **مذكرات فون بولوف** من بين كل هذه الوثائق التاريخية اكثرها ازعاجا • ففي اغسطس (آب) ١٩١٤ ، كان بولوف سفيرا في روما • وعند اذاعة نبأ هذه الكارثة العالمية ، سافر الى برلين ، وهرع الى زميله بيتهمان ـ هولويج ، الذي كان في ذلك الوقت مستشارا يمارس مسؤولياته • ويعتبر الحوار الذي دار بينهما حوارا حافلا بالتعاليم والدروس ، اذ سأله بولوف قائلا : « ماذا حدث اذن ؟ » ، فيجيبه بيتهمان هولويج وهو يرفع يديه الى السماء : « اني لا اعرف شيئا • ولم أفهم شيئا حتى الآن » •

ان مثل هذا الاعتراف الذي ادلى به المستشار هولويج لا يمكن أن يفلت عن مسؤول الا وسط الفوضى والاضطراب • وهو يكشف بوضوح

عن ذعر المسؤولين الذين انقادوا الى خوض الحروب ، دون أن يفهموا بصورة صحيحة سياق الاحداث والظروف التي قادتهم اليها . ومع هذا ، فان كل شيء في اوروبا كان معدا للحرب . وكانت كل السيادات القومية تمهد لها وتعد ، غير أن رجال الدولة كانوا في قرارة أنفسهم غير مؤمنين بحدوثها .

وبهذا الشكل تحولت المأساة الى معضلة شائكة . لان العمى عندما يصيب رجالا بارزين فان الامر يحتاج الى تفسير . ومما لا شك فيه انه كانت هناك في كل مكان أطراف في النزاع قد اتسمت بالعزيمة . ولكن لكي تكون الحرب أمرا يقبله المسؤولون وتقبله الاغلبية الساحقة من الرأي العام أيضا كان لا بد من أن تبدو أمرا حتميا .

ولو أخذنا كل الناس ، من الناحية الفردية ، وجدنا انهم نزاعون الى السلم . غير أنهم ، جماعيا ، وحتى الآن على الاقل ، عاجزون عن الاجابة على السؤال التالي : « اذا لم نخض الحرب ، فماذا نحن صانعون ؟ » . وتتوصل الامم وزعماؤها في النهاية دوما الى حصر اهتمامها حصرا تاما في عداء معين لدرجة لا تستطيع أن تتحرر منه الا باستخدام سلاحها .

* * *

وتشترك الحربان العالميتان الاولى والثانية في أن أيا منهما لم تكن مفاجأة . وقد شاهد الملأ أجمع نذر الانفجار من أمد بعيد . وحذر كثير من المفكرين الكبار امثال تولستوي ورومان رولاند ، وويلز ، ونورمان انجل ، وروجيه مارتان دو جارد ، وكثيرون غيرهم ، حذروا أوروبا من الانجرار العدائي . وقبل انفجار هاتين الحربين بعدة اعوام كان السباق الى التسلح قد بلغ أقصى ذروته . وكان التوتر يزداد يوما بعد يوم . وكان كل شيء يبرهن على تفاقم احتمال الصدام . ومع ذلك كان الحكام والمحكومون يدركون ان انقاذ السلم لا يتم الا باعداد برنامج للتسليح ، وتطبيق الحكمة القديمة التي لم يثبت صدقها ، وهي « اذا اردت السلام ، فاستعد للحرب » أي انهم لم يكونوا يدركون شيئا آخر غير زيادة التسليح بدلا من الابطاء فيه ، وعمدوا الى الجموح بدلا من التؤدة ، وأثاروا القلق بدلا من التهدئة ، وحشوا اللغم بدلا من نزع طعمه .

وكانت النتيجة واحدة في هذه الموضوعات • فقد كانت الحكومات المستبدة او الحكومات الشعبية ، والملكيات والديكتاتوريات أو الجمهوريات ، والنظم الاقطاعية ، والنظم « البلوتوقراطية »[1] وانظمة الديموقراطيات أو الانظمة الاشتراكية ، تشترك في شيء واحد هو أنها تفضي جميعها الى الحرب • وتبذل أقصى جهدها في الاعداد لها وتوكيد اعلانها ، وتسويغ أقصى لربحها •

* * *

وقد كان الاهتمام الاول من بين اهتمامات الدول ، حتى الدول القديمة المنقرضة منها ، هو رسم حد فاصل دقيق بين عالم السلم وعالم الحرب • ففي العهود القديمة التقليدية كان اعلان الحرب يتم وسط طقوس تتسم بالفخامة والابهة ، وباحتفالات دينية • وكان المبشرون بالحرب يعلنون قيامها وهم يتحدون الخصم •

بعد هذا الاهتمام الشكلي الخالص ، يأتي الاهتمام الاخلاقي ، المتعلق بشرعية الاهداف التي يستهدف المتنازعون تحقيقها • فبالنسبة لسانت توماس ــ دا كان لا تعتبر الحرب حربا عادلة ــ أي حربا لا يرتكب أي اثم فيها ــ الا اذا كانت دوافع الامراء الذين يصرحون بها دوافع شرعية • ولكن موقف سانت توماس المتشدد نسبيا أدى خلال عدة قرون الى رأي مولينا القائل : « لكي تكون حرب ما عادلة ، يكفي أن يقتنع كل من الطرفين المتنازعين بحقه الكامل في خوضها » •

وكان رأي المنظر العبقري صائبا : فقد نقل مشكلة الحرب من المجال الحقوقي للمسؤوليات المحددة الى مجال الاستجرار شبه اللاارادي ، والى الحوادث التي لا خلق لها •

* * *

عندما تكون الاعمال الحربية مهيأة منذ مدة طويلة ومتوقعة ، فمن النادر أن تنفجر عن قصد وتصميم ، وبدون أي انفعال أو حماسة • فكما

---

(١) البلوتوقراطية : حكومة الاثرياء

ــ المعربان ــ

ينطلق البرق اخيرا بين سحابتين محملتين بالصواعق ، فان نقطة انطلاق المذبحة هي خلاف أو حادث يقع بسبب نقطة محددة • ويقدم **سبب النزاع** الموجب تفسيرا فوريا • ويجنبنا هذا السبب التفكير المتأني في الاسباب العميقة للزخم الجماعي الذي يدعو بغموض الى الحرب ويتمنى وقوعها ، وبعدها بارادة حسنة ، ثم يقبلها بوعي عميق كأنها مصير محتوم •

ويسمح **سبب النزاع** ، سواء أكان حادثا من حوادث الحدود التي تقـع بصورة عامة ، أو نزاعا عارضا ينفجر بصورة دورية ، يسمح سبب الحرب بنسيان ان الحرب ظاهرة اجتماعية تتجاوز الانسان ، كما تتجاوز دوافعه الفردية • ويعيد هـذا السبب النزاع الـى الطابع « الانساني والانساني جدا » لاي نزاع عادي • ويقوم المؤرخ فيما بعد بالتحقيق ، مثله مثل مفوض الشرطة عند قيامه بالتحقيق في نزاع أو شجار ، وينطلق دوما مـن موقف الديان يـوم الحساب ، فيبدأ بطرح الاسئلة التالية : « من الذي وجه الضربة الاولى ؟ » « ومن الذي أهان الآخر أو اثاره ؟ » • وهكذا نجد أن تفسير أشنع المذابح يتقلص ليقتصر على منظر الواقع المتنوع • وللتدليل على صحة ما نقول ، نضرب المثل التالي : عندما يقرأ المرء الجزء من مذكرات بوانكاريه الذي يناقش فيها أسباب حرب عام ١٩١٤ ، يخيل له أنه يقرأ مصنفا لقضية من قضايـا الجنح العـادية التي وقعت فيهـا « طلقات وحدثت جروح » أو أنه يقرأ « قضية من قضايا الفضائح » •

* * *

ان « التعلق » بسبب النزاع هو الاساس الرئيسي **للوهم الحقيقي** الذي يتمثل الحرب وينظر اليها كما ينظر الى العنف بين الافراد ، ويريد تجنبها ومعالجتها على هذا الاساس •

ويتمسك الفقهاء والمشرعون بالظروف العرضية ، بينما هم يواجهون هجوما متدفقا كالسيل لاكثر الاوبئة خطرا ، وأكثرها رعبا • ويعتبر موقفهم هذا موقفا نفسيا كانت ذروته انشاء محكمة لاهاي • ومن سخرية القدر أن فكرة انشاء محكمة لاهاي قد نشأت اثناء حرب الترانسفال ، وبدأت اعمالها في أمسية الحرب الروسية ــ اليابانية ، وافتتحت اعمالها في عـام ١٩١٤ • وتنظر هذه المحكمة في الحوادث العارضة ــ الحوادث فقط ــ

بعد وقوعها ، وعندما يريد الطرفان المتنازعان عرضها عليها •

ومما لا شك فيه أن تنكر العدوان في ثياب الدفاع الشرعي عن النفس طفولة في الفن السياسي • ومع ذلك ، برهنت الدول الكبرى ، اثناء القرن التاسع عشر عن روح قانونية لا تلام عليها • فقد كان سبب الحرب محددا بصورة واضحة فيما بينها •

* * *

واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩١٤ • ثم فقدت الحدود بين الحرب والسلم وضوحها فيما بعـد ، حتى فيما بين الدول الكبرى • وفي اليوم التالي لهدنة عام ١٩١٨ رأى الجميع استمرار عمليات عسكرية هامة في روسيا وبولونيا دون أن تكون الحرب معلنة •

ثم جرت فيما بعد عمليات أوسع بكثير في آسيا ، كعمليات احتلال منشوريا أو غزو اليابانيين للصين• واصطدم اليابانيون من جديد بالروس ، وجرت معارك كبيرة في شمال منشوريا • وبقيت هذه المعارك محدودة في جوار الحدود دون أن تمتد الى ابعد من ذلك ، وذلك باتفاق ضمني تـم بين الروس واليابانيين أذهل العالم كله وفاجأه •

وازداد الذهول ايضا عندما رأى الجميع في أوروبا اجهاض اكثـر **اسباب الحرب** جلاء ووضوحا بصورة متتابعة • فقد كانت المانيا تخرق المعاهدات ، وتغزو البلدان المجاورة ، وتضم اليها أرضا جديدة ، ولا تجد امامها في أوروبا سوى الادبار والتراجع •

ويبدو الوضع ، في ايامنا هذه ، ادعى تثبيطا للمعنويات أيضا مما كان عليه في أوروبا في تلك الفترة • فقد رأينا اندلاع سلسلة من الحروب ، تقوم بها دول من دول التبعية للدول الكبرى تشكل طرفا ثالثا في النزاع ، وهـي حروب بالوكالة قامت في اليونان ، وفي كوريـا ، وفي السويس ، وفي ماليزيا ، وفي الهند الصينية • ولم يكن كل طرف من أطراف النزاع مدعوما بصورة مكشوفة فحسب ، بل كان مسلحا وموجها من قبل معلميه الكبار أيضا • وعاصرنا جيوشا تألفت من جنود دول كبرى انتحلت صفة التطوع ، دربت وشكلت في البلدان الكبرى ، وجاءت الى ساحات النزاع لتبدل الجيوش الوطنية أو لتقودها • مع أن موقفا أضعف من هذا الموقف

في الماضي ، كان كافيا لاشعال النار في البارود • وعرف المعلمون الذين يدفعون اتباعهم للحرب الوقت الملائم لايقافهم عن متابعتها ، قبل أن ينجرفوا فيخوضوا المعركة بأنفسهم •

وقد عرف عالمنا انذارات جديدة (بودابست ، كوبا ، السويس) التي كانت تؤدي بنا الى حد المأساة • وتشكل برلين سبب نزاع دائم • وقد تم القتال على حدود الهند والصين دون اعلان الحرب ، كما وقعت الحرب على الحدود الجزائرية ـ المغربية دون أي انذار • ولكن هل سنتوصل دوما الى نزع فتيل سبب النزاع في الوقت الملائم ؟ لقد نجونا حتى الآن من كل هذه المآسي بأعجوبة • ولكن الى متى سنتمكن من اللعب بالنار دون أن تحرقنا ؟ والجواب على هذا اننا سنتمكن من متابعة اللعب بالنار الى أن تكبر الاجيال التي لم تعرف الحرب ، وحتى تصبح البنى « الديموغرافية » في مرحلة الانفجار •

ومن أهم التجارب الواضحة التي قام بها بافلوف ، هي التجربة التي تضمنت تلقين احد الكلاب بعض ردود الفعل المتوافقة مع مواقف معينة ، وتشويش اسبابها فيما بعد • فأصبحت الضحية وكأنها مصابة بمرض عصبي • ولو اننا الححنا على التجربة ، لانتهت الضحية بالوقوع فريسة لازمات قلق متكررة • ان البشرية المفكرة اليوم تائهة ككلب بافلوف •

ونحن لا نعرف بالضبط أكثر الاعمال خطورة على السلم • فليس لدينا مقياس يسمح لنا بالتمييز فيما بينها بصورة مؤكدة • ونظرا لاختفاء الموانع المتفق والمصطلح عليها ، فلا شيء يمكن أن يعتبر سببا للحرب في الوقت الحاضر • ونفهم ، في الوقت ذاته ، أن كل شيء يمكن أن يصبح سببا للحرب واستفزازا لا يمكن تحمله والسكوت عليه ، بالنسبة للمحركين الاساسيين الذين اعمتهم اندفاعاتهم العدوانية • أفليس الامر على هذا الشكل بالنسبة للخط الساخن المؤلف من « التليكس » الاحمر بين العاصمتين المتنافستين • ان لهذا الخط قيمتين متعارضتين • فمن الممكن أن يصبح أداة لتذليل أسباب الحروب والقضاء عليها • ويمكنه أيضا أن يكون اداة لاعلان الحرب بصورة فورية ، في اللحظة التي يضغط

فيها العملاقان على أزرار المقذوفات الصاروخية • وتندلع الحرب عندئذ بصورة افضل واسرع مما تم في بيرل هاربور •

ان خضوع الشعوب واستسلامها الكئيب ، وعدم اكتراثها عفويا بالسياسة هي علامة ضياعها الحالي • فهل مـا زال هناك شعوب تؤمن بفضيلة التصريحات ، والمواعظ ، أو المناهج السلمية ؟ ان الشعوب محاطة برجال سياسيين وايديولوجيين يفتشون عن السلم في كل مكان مع وثوقهم تماما بأنهم لن يعثروا عليه • والى أن يتم ذلك فاننا نعيش عصر القنابل الهيدروجينية من عيار الكيلو ــ ميغاطن •

ويظهر انهيار فكرة سبب النزاع وانحلالها أن مشكلة السلم الحقيقي ليست في نزع فتيل الاشتعال يوما بيوم • فمن واجب الداعية الى سلم علمي أن يتجاوز بنظرته هذا المذهب التجريبي ، والذي مضى عليه عشرة قرون والذي ما زال وسيبقى مخيبا للآمال •

الفصل الثامن

وقاية السلم

٤ ـ بنزع السلاح

بدأت حرب عام ١٩١٤ التي مر على نشوبها منذ فترة قصيرة خمسون عاما ، في جو من الحماسة الواعية • وانتهت هذه الحرب بثورات وحركات تمردية عمت وشملت أنحاء كثيرة في العالم • ففي الشرق ، حدثت ثورة جبارة فتحت الباب أمام كل الانقلابات السياسية في العالم • وهكذا ، وكما قال تروتسكي «أدلى الجنود الروس بأصواتهم الانتخابية بأقدامهم» • وتخلوا عن الجبهة بصورة مفاجئة • وانتزعت فلول الجيش الالماني المهزوم من قائد جيشها الاعلى غليوم الثاني ، وسط الهزيمة والفرار أكثر الاقوال التاريخية سوداوية : « ما رأيكم في هذه الخنزرة ؟ » (كذا) •

ومع ذلك ، كانت الشعوب سواء اكانت منتصرة في هذه الحرب أو مهزومة تفكر بأن البطولة التي حدثت في الحرب ، والتضحيات التي تمت لن تذهب سدى • فقد قيل أن هذه المذبحة ستكون آخر مذبحة تعرفها البشرية ، وانها كانت حربا ضد الحروب • وكان السلم هو التعويض عن ذلك الخسران الجسيم بالضحايا والابطال ، الذين تعرضوا لكثير من الآلام ، وعمرت نفوسهم الآمال الكبار • وهكذا بدأت الشعوب في العمل •

ولقد سبق حرب عام ١٩١٤ ، كما كانت الحال في عام ١٩٤٠ ، سباق هائل على التسلح • وكان أول تدبير من التدابير المتخذة لاقامة نظام

جديد ، ووضع قانون دولي سلمي جديد ، هو عقد اجتماع لمؤتمر نزع السلاح • وها قد مضى على انعقاد هذا المؤتمر ما يقارب نصف قرن من الزمن • وبوسعنا أن نستبق الزمن قليــلا لاستعراض اعماله وعرضهــا بمناسبة قرب ذكرى مرور خمسين عاما على انعقاد أول مؤتمراته •

واجه المؤتمر في بادىء الامر العامل البشري • فقد كان همه الاول تخفيض الجيوش وملاكاتها • وخيل للمؤتمرين أنه لا أسهل من مقارنة التعداد لدى كل الاطراف •

وهكذا تبدت الصعوبات الاولى أمام المؤتمرين : اذ في خلال عشر سنوات مـــن النقاش والجدال ، **لم يتمكن كبار الخبراء السياسيين والعسكريين من الاتفاق على تعريف ملائم للجندي**

وهناك سابقة تاريخية مشهورة في هـــذا الموضوع : فعندمـــا أراد نابليون بعد معركة يينا[1] ضمان حياد بروسيا ، فرض حدا أقصى لتعداد جيشها • غير أن الوزير شتاين احتال على تدبير نابليون بتنظيمه لسوقات التجنيد على اساس دوري • وهكذا حصل المجندون بالتتالي على تدريب عسكري سريع ، ولكنه كان كافيا لخوض الحرب • وبهذا الشكل كان المجندون مستعدين للقتال لدى أول فرصة سانحة •

ولكن الامر في هذه المرة كان أسوأ مما كان عليه في الماضي • فمنذ عام ١٩١٩ ولدت في كل البلدان قطعات من الانصار ، وأنشئت تشكيلات شبه عسكرية ساعدت الاضطرابات السياسية والاجتماعية على تشكيلها • وتغطت أوروبا كلهـــا بوحدات المليشيـــا ، وبالقطعات غـــير النظامية ، وبالمنظمات التي تمخضت عنهـــا وحدات الـ .S.S المشؤومة ، ووحدات الكشافة ــ المشوربين ، وبجمعيات رياضية زائفة تدرب الشباب علـــى استعمال السلاح ، تحت ستار الرياضة وتشجيعها[2] •

---

(١) ((**يينا**)) : مدينةفي وسط المانيا على نهر « سال » هزم فيها نابليون البروسيين في عام ١٨٠٦ .

ــ المعربان ــ

(٢) منذ فترة قصيرة دعيت صحيفة فرنسية الى زيارة مدرسة للفتيات أسسها **غاندي** فذهلت عندما رأت الطالبات يقمن بتنفيذ تمارين عسكرية ويستخدمن الرشاشات .

ــ المؤلف ــ

بيد أن مشكلة « وحدات الأحتياط المدربة » لم تحل أبدا . اذ أستمر الجميع في تجنب حلها بكل عناية . وتوجه التحسن الطارىء على صناعة الاسلحة ايضا الى جعل هذه المشكلة غير قابلة للحل . وقد كانوا يحتاجون في الماضي الى سنة واحدة لتدريب المجندين على حشو بندقياتهم في اثنتي عشرة مرحلة . اما اليوم ، ففي وسع أي امرىء ، دون تدريب أن يطلق رشة من رشيشة ، أو أن يصبح بسرعة راميا من الرماة الممتازين اذا زود سلاحه بمنظار للتسديد .

وعندما أخفق الخبراء في مؤتمر نزع السلاح وفشلوا هذا الفشل الاولي في نزع السلاح البري توجهوا الى نزع السلاح البحري . وكانوا يأملون أن يعوض هذا الاتجاه الجديد خيبات الامل التي تعرضوا لها في نزع سلاح القوات البرية . وبدا لهم نزع السلاح في هذا المجال سهلا ، فحمولة المراكب البحرية ، تشكل قاسما مشتركا لكل القوى البحرية في العالم . غير أن توزيع هذه الحمولة طرح فورا مشكلة تسلسل الدول ، وأهميتها . فقد وجدت كل دولة من الدول أن الآخرين يقللون من شأنها ولا يقدرونها حق قدرها ، حتى أن المؤتمر انتهى الى السماح بزيادة البرامج البحرية للدول بدلا من تقليصها ، وذلك مراعاة لكبرياء هذه الدول وهيبتها . بل ان ما هو أسوأ ايضا هو أن كل دولة من الدول سارعت فورا الى البدء بصناعة المراكب الموافقة للحمولة الاضافية التي اتيحت لها ، وذلك لتثبيت مكانتها ومرتبتها . أما المانيا فقد اضافت اضافة غريبة وطريفة الى التوسع العام في الاساطيل البحرية . فقد منعت من انشاء مراكب حربية حمولتها اكثر من عشرة آلاف طن ، فاخترعت « بوارج الجيب » (١) التي تعادل قوة نيرانها قوة البوارج الضخمة .

وهكذا لم تكن كل هجمة لمؤتمر نزع السلاح على موضوع من المواضيع تؤدي بصورة منتظمة ، الى التهدئة ، بل الى الخصومة فيما بين الدول . وفي وسعنا أن نقول ان مؤتمر نزع السلاح أدى الى سلسلة من الافعال وردود الافعال . وقد توصل بوليتيس الذي ترأس هذا المؤتمر

---

(1) Cuirassés de Pache

مدة طويلة ، الى الاستنتاج التالي بعد أن أفاق من الوهم الذي سيطر عليه مدة طويلة : « ان كل الطرق تؤدي بالتأكيد الى اعادة التسلح » ، ونادرا ما كانت سخرية القدر بمثل هذا الايذاء •

وقد نوقش ، بالتوازي مع الجدل الذي قام حول الامور التقنية ، موضوع جرى حوله جدال متواصل ولكنه كان يمس موقفا مبدئيا في هذه المرة • فقد كان الجميع قد قبلوا بمبدأ انشاء نظام دولي سلمي يتضمن نزع السلاح ، واقرار الامن الدولي في الوقت ذاته • وكان الجميع يرون للسلم هذين الوجهين اللذين لا يمكن فصلهما • ولكن هل كان من الواجب البدء بنزع السلاح ، ام كان من الواجب البدء بموضوع نظام الامن ؟ ـ فقال البعض ينبغي أن ننزع السلاح أولا ، ثم يستتب الامن بالتالي ••• وقال آخرون • ـ ينبغي أن ننظم الامن في بادىء الامر ••• ولكن كيف يمكن الاشراف على نزع السلاح اذا كانت معظم الدول المسيطرة ترفض باشمئزاز فكرة اجراء تفتيش اجنبي فوق اراضيها ؟ ••• وتناقضات لا حل لها تلح علينا وتلاحقنا باستمرار •

وهكذا تبين أنه لا يمكن التوصل الى اي اتفاق حول هذه المسائل • حتى راحت الاطراف المعنية بنزع السلاح،بعد أن أخذت كثيرا من الدروس من هذا الاخفاق ، راحت تتجنب فتح الحوار والجدل في هذه النقاط من جديـد •

ونظرا لان المؤتمر لـم يتوصل الـى نتائج أخرى ، وقـع ميثاق كيللوغ[1] • وينص هـذا الميثاق على التعهد بالامتناع عـن الحرب في العلاقات الدولية • بيد أن الوقائع كذبته فيما بعد • لان ضماناته مخالفة للمنطق والحكمة • فهل كنا نعرف في ذلك الوقت ما اذا كانت الحرب نوعا من الوباء الاجتماعي أم لا ؟ ففي هذا الشك حول طبيعة الحرب الحقيقية

---

(١) ميثاق كيللوغ ـ بريان ، عقد في ٢٧ أغسطس (آب) ١٩٢٨ . يندد بالحرب ويطالب بتسوية الخلافات بصورة ودية . والاسم الصحيح للميثاق هو : ميثاق باريس . وكان اريستيد بريان الفرنسـي وكيللوغ الامريكي صاحبي الفضل في عقده . بيد أن وجه الضعف فيه كان خلوه من الوسائل اللازمة لتنفيذه .

ـ المعربان ـ

ووظائفها كان الميثاق عديم الجدوى كأي ميثاق يتضمن الامتناع عن المرض • وأضيفت اليه سلسلة من المواثيق الثنائية لعدم الاعتداء • وكان أشهرها الميثاق الذي ابرم بين هتلر وستالين ، وكان أحدهما يخدع الآخر •

* * *

وتسارعت الاحداث فيما بعد ، وأنسى انتصار هتلر العالم كله عصبة الامم ومؤتمر نزع السلاح • وعندما عاد السلم ، بعثوا مؤتمر نزع السلاح من رماده على شواطىء بحيرة ليمان • وكان ذلك بعد القاء القنبلة الذرية على هيروشيما ، وتركز الانتباه كله على القنبلة الذرية • فقد نسوا ملايين الرجال الذين ما زالوا تحت السلاح ، في كل مكان من العالم ، حتى أن قسما منهم ما زال يحارب • وسمح لهم مؤتمر نزع السلاح بتركيز كل انتباههم وحصره في موضوع واحد ومحدد بدقة • اما بقية المواضيع فتبحث تكملة لهذا الموضوع الاساسي • حتى أن الظروف سمحت لهم بالتوصل الى نسيان تفاهة عدد ضحايا القنبلة الذرية بالمقارنة مع عدد ضحايا الاسلحة التقليدية طيلة حرب عام ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ • وكانت نسبة ضحايا هذه الحرب الاخيرة أقل بكثير من ضحايا معسكرات الموت الهتلرية والستالينية ، التي لم تكن تحتاج الى أي سلاح من أي نوع كان •

ومع ذلك ، كانوا كلما استمروا في مناقشتهم ، يتغير طابع المشكلة طبقا لتبدلات التقنية والاستراتيجية • فقد تفوقت القنبلة الهيدروجينية على القنبلة الذرية • وتفوقت الصواريخ على القاذفات وعلى الطائرات الحاملة للقنابل الذرية • وقللت الصواريخ العابرة للقارات والغواصات المزودة بصواريخ بولاريس من اهمية مدارج اطلاق الصواريخ ، والقواعد القريبة • وربما اضحت الاقمار الصناعية في الوقت القريب قاذفات للقنابل والصواريخ • واغتنت الاستراتيجية بمفاهيم جديدة ، فهناك الآن مفاهيم : الرد الفوري ، الردع ، التصعيد التدريجي ، المناطق المنزوعة من السلاح من الذري الخ•••وفي الوقت ذاته ولدت الاسلحة الذرية التكتيكية والقنابل « ذات الحجم الصغير » ، فهل يمكننا القول أين تبدأ الحرب الذرية حقا ، بعد ميلاد هذه الاسلحة التكتيكية ؟ وبانتظار الجواب على هذا السؤال يتعقد النقاش ويضيق مداه ، لانه لا يتوصل ابدا الى متابعة

كل الاختراعات والمستحدثات الحربية الجديدة • ولكن ، بانتظار هذا الجواب تتراكم القنابل الذرية من عيار الميغاطن وتتكدس •

* * *

ان الاستراتيجيين « المتعقلين » الذين استبعدوا نهاية العالم كثيرون• فهم يؤمنون بأن توازن الرعب الذري هو توازن ثابت • ولكنهم بدلا من أن يستنتجوا من ذلك أن هذا التوازن سيضطر الامم الى طلب السلم ، فانهم يفكرون على الشكل التالي : بما أن مفعول الاسلحة الذرية قد أدركه الشلل بهذا الشكل فسوف يفتح الطريق من جديد لقيام « حرب الآباء » كما حدث في عام ١٩٤٠ بالنسبة لغازات القتال • وسيتجمد استخدام القنبلة الذرية من تلقاء ذاته لانها خطرة بالتأكيد ، وستخلى ساحة الحرب للاسلحة التقليدية • بهذا تنقذ الحرب وتستعيد وجهها «الانساني» والمقبول • وهكذا نعود الى وضع ما قبل قنبلة هيروشيما ، ولنعد من جديد حربا كحرب عام ١٩٤٠ ، وحرب عام ١٩١٤ ايضا •

فاذا كان الوضع على هذا الشكل يكفي أن يعود مؤتمر نزع السلاح لعام ١٩٢٠ الى النقطة التي توقف عندها عندما تسلم هتلر السلطة في المانيا• ويستخدم الجميع من جديد العقل الهادىء للمماحكة حول تعريف الجندي وتعريف « الوحدات الاحتياطية المدربة » • وسوف تبدو المشكلات ذاتها امام اعيننا في نفس تعابيرها قبل نصف قرن •

ولكن لنفترض اننا توصلنا الى الغاء استخدام بعض أدوات التدمير على ضوء أكثر لفرضيات ملاءمة ، فهل ستكون الحرب أسوأ وأقل تدميرا لهذا السبب ؟ هنا ينبغي علينا أن نتذكر أن المغول قاموا بأكبر المذابح التي عرفها التاريخ ، ونفذوها بالاقواس ، والسهام ، والحراب • ومن الامور العميقة الدلالة أن كلمة ذراع Bras تعني في الانكليزية Arms سلاح •

ويسمح امتلاك السلاح الذري بممارسة مزايدات رهيبة ، بما فيها الشعار القائل بأننا « سنموت معا » • فالاستعداد للموت ليس أمرا جديدا في الحرب • أليس من المعروف بأن كل من ذهب للحرب ، حتى ولو كان مسلحا بفأس من الصوان ، قد ضحى بحياته ؟ انه يغامر بكل ما يملك ،

لا في سبيل ذاته ، بل في سبيل زملائه وأبناء وطنه • وتشير كل مدينة من المدن التي دمرتها حروب الماضي ، والتي يكشف علماء الآثار كل يـوم انقاضها وآثارها ، تشير كل مدينة للمذبحة التاريخية التي تعرضت لها ، وكانت مآسيها وآلامها ضمن اطارها التاريخي ، كالمآسي والآلام التي تعرضت لها هيروشيما • وقد تعرضت مدينة قرطاجة في عام ١٤٦ ق•م• الى خسائر تعادل الخسائر التي تعرضت لهـا هيروشيما مضروبة بخمس مرات • واذا ما قورنت هذه الخسائر بعدد السكان في العالم كله آنئذ ، وجدنا أن نسبة خسائر قرطاجة تفوق نسبة خسائر هيروشيما مائة مرة • ومع ذلك ، لـم يستخدم في تدميرها والقضاء عليهـا أي متفجر مـن المتفجرات •

* * *

ربما كان المخرج الوحيد لمؤتمر نزع السلاح هو أن يحاول معالجة الموضوع بشكل آخر • ومما لا شك فيه أن هناك نوعا مـن الاحتيال المبتذل يسيطر ويتحكم في هذا النوع من المؤتمرات • فكل طرف مـن الاطراف يحاول استدراج الطرف الآخر للتخلي عن أفضل اسلحته ، بينما هو يحافظ على أسلحته الخاصة •

ان نزع السلاح في طريق مسدود سواء مع الماكيافيلية التي تتسم بها سياسات بعض الدول أو بدونها • لان الاسلحة سواء اكانت بدائية أم اسلحة علمية ، فهي ليست سوى قطع من الحديد البريء بـين ايدينا • فالانسان هو الذي يقتل ، لا السيف أو المدفع • ولنتذكر ايضا ما كنا قد اشرنا اليه اشارة عابرة وهو : ان معسكرات الاعتقال ، التي مثلت قمـة ابادة الجنس البشري وتوجته لم تتطلب أي سلاح •

* * *

وقد عشنا مؤخرا وضعا كان في نظرنا أفضل دليل على أن السياسة والروح العدوانية لدولة من الدول لا تتعلق بأهمية تسليحها وقيمته •

فقد كانت الولايات المتحدة الامريكية ، بعد القاء قنبلتي هيروشيما وناغازاكي ، المالكة **الوحيدة للقنبلة الذرية** • وكان في وسعها أن تسمح لنفسها بالقيام بأي عمل امبريالي لانها تملك التفوق التام على بقية الدول

الاخرى • وكان في وسعها أن تتخلص من كل الدول المنافسة لها ، وأن تفرض ارادتها عليها بمجرد التهديد باستخدام سلاحها الذري • فمن ذا الذي كـان يستطيع في ذلك الوقت أن يسمح لنفسه بتحديها والوقوف في وجهها ؟[١]

ومع ذلك لم تفعل الولايات المتحدة شيئا من هذا • وكان هذا الدليل أفضل برهان على أن اسباب العدوان لا تكمن في قوة تسليح الدول ، مهما كانت أهمية هـذا التسليح وقيمته • فأسباب العدوان أسباب داخلية • فالاسلحة كما تقول التوراة : « عصا الغضب » غير أن الغضب يأتي قبل العصـا •

* * *

وقد حان الوقت للاهتمام بالعناصر المكونة للروح العدوانية اكثر من الاهتمام بالادوات التي تستخدمها •

فالدعاية ، والاعلام ، والتكييف النفسي عناصر هامة جدا • ولكن هل يكفـي الاعتماد علـى البنى الفوقية[٢] السيكولوجية والايديولوجية لوحدها ؟ ان من السهولة بمكان اخفاء العدوان في حالة الدفاع الشرعي • ولكن هل نحن واثقون من أن جذور العدوان الجماعي لا تكمن في مكان آخـر ؟

ومع ذلك ، فان اخفاق مؤتمر نزع السلاح الذي استمر نصف قرن لا يعني أبدا أن وضع الحرب والسلم وضعان ثابتان،ولا ينبغي أن يفهم منه أن علينا أن نيأس من وضع حد للمجازر الدورية التي تعانيها البشرية • **فلا يمكن اعتبار مشكلة من المشاكل غير قابلة للحل بالضرورة اذ ربما كانت**

---

(١) لم يكن في وسع الولايات المتحدة استخدام القنبلة الذرية ، فقـد اتخذ الاتحاد السوفييتي كل التدابير لاخفاء قواته ، ودفنها تحت الارض ، وكان في وسعه الالتحـام بالقوات الغربيـة في أوروبـا واجتياحها ليمنع استخدامها ضد قواته . وقد استخدمت الولايات المتحدة قوتها الذرية للضغط في المحافل الدولية والهيئات العالمية في كثير من القضايا .

ـ المعربان ـ

(٢) Superstructures

طريقة عرضها سيئة • ولكن ينبغي أن نغير طريقتنا وأن نفتش عن وسائل أخرى لحلها •

ولهذا فاننا في مجال الاستنتاج المتفائل ، سنذكر المثـــل الاخلاقي التالي : اذا اجتمع في القرن الثامن عشر مؤتمر عالمي للمواصلات ، ونوقش فيه « بحكمة » تحسين جنس الخيول ونوعية بلاط الطرق العامة ، ونوابض العربات • ولو أن احدا مــن الاشخاص قطــع تلك المناقشات ليقول : « هذه الابحاث التي تقومون بها لا نهاية لها ، انظروا الماء الغالي والقوى المغناطيسية » الا يصدم كلامه كل الناس ويعتبرونه وكأنه يسخر منهم ؟

ان من الواجب علينا أن نبحث عن اشكال أخرى لنزع السلاح ، لم تنشر بعد وغير مألوفة في المقام الاول • وأن تكون مرتبطة بشروط حياتنا الجديدة في عالمنا « الموزون ، والمحسوب ، والمجزأ » منــذ الآن أي في عالم ينتهي ويتحدد ، حيث الانسان فيه ، في كل مكان ، خاضع لسلطات العلم والتقنية ، ومتأثر بها ، سواء أراد أم لم يرد •

فالمشكلة هي اذن معالجة أسس الاندفاعات الجماعية التي نجحت الــى يومنا هــذا في دفع مراكب الحــرب كالقاذفات وتحريك المقاليــع كالصواريخ العابرة للقارات •

* * *

الفصل التاسع

تعليم السلم

١ـ طابعان حديثان للنزعة السلمية

ان النزعة السلمية موجودة على الدوام • فالى جانب طقوس الحرب ، عند البدائيين ، كانت هناك طقوس للسلم ، ومن اشهرها مجلس « كالومه »[1] لدى الهنود الحمر • وتحض كل الديانات على السلم وتصلي من اجله • وصيغ السلم كلها مشربة ، على درجات متفاوتة ، بسحر فطري وتحمل بين طياتها مصطلحات على شاكلة « ليكن السلام حليفك » •

وتظهر كل قصائد الحرب ، حتى الحماسية منها ، بعض الاسف من اعمال العنف والقسوة ، او تظهر بعض الشفقة على المهزومين • ولكن في العصور القريبة ظهرت الاعمال الادبية وكأنها تضع نهاية عصر القصائد الحماسية ، فلقد تناولت قصص المعارك بحماسة أقل • وكانت أعمالها تلك ، غناء حزينا غير مثير •

ثم جاء بعد ذلك أولئك الذين ارادوا استخدام سلاح السخرية ضد الوحش المقدس • لقد حدث هذا مع نهاية القرون الوسطى ، عندما اصبحت الفروسية ، بمثالياتها وابطالها ، موضع التفكه • وكانت قصة

---

(١) كالومه : مجلس لرؤساء الهنود الامريكيين القدماء • كانوا يناقشون فيه امور الحرب والسلم اثناء تدخينهم الغليون الخاص بمثل هذه المناسبات •

« دون كيشوت »[1] قمة اعمال الفكاهة هذه . ولكن تلك القوى الجديدة ما كانت لتتخطىء في هذا المجال . فقد كان اتباعها ، مع سخريتهم بالفروسية وبرجالها المغامرين ، يمتدحون السلطة الملكية وفارسها الذي لا يجارى . وكان هذا الاسلوب ايضا هو الاسلوب الذي اتبعه فولتير فيما بعد ، عندما سخر بالحروب الملكية وبخبراء استراتيجيتها الامناء . وما كان انتقاد جيبر لفريدريك الا عندما ابتدأت مجازر الامة المسلحة بالاستعداد . لقد انتهت الاساليب المخادعة التي كان يتبعها مندوبو التطويع لتحل محلها اعلانات التجنيد والتعبئة . وفي هذا يقول لاو ــ تزه[2] « اذا لم تعد مقدرتك تحظى باحترام الآخرين ، فان ثمة مقدرة اخرى في الطريق لتحل محلها » .

* * *

وانقسم الفلاسفة بصورة عامة في ايامنا هذه الى مجموعتين : تضم الاولى : أولئك الذين يميلون في اعماقهم لنظرية الحرب العادلة ، وهم ، بدون أن يظهروا ميلهم هذا علانية ، قد اشاروا الى ذلك من خلال تعضيدهم قضايا التطوع وبالدعوة للمشاركة في النزاعات السائدة . ان نزعة السلم لدى هذه المجموعات ذات اتجاه واحد . فهم يجيزون الحرب لاتباعهم ولا يجيزونها لغيرهم . انهم كتاب اخلاقيون ذوو نزعة هجومية .

وتضم المجموعة الثانية أولئك الذين يعتنقون اللامعقول . ويبنون عليه فلسفة اللاعنف . وهم في اعماقهم ، يطابقون بين اللامعقول والمؤلم . واللامعقول بالنسبة لكاموس هو كل ما يصدم قيمه المعنوية . واللامعقول بصورة عامة ، هو كل ما يجرح منفعة الفرد والمجتمع وكل ما ينال من لذتنا

---

(١) دون كيشوت أو دون كيخوته دي لا مانتشا ، رواية خيالية كتبها الروائي الاسباني سرفانتس سفدرا (١٥٤٧ ــ ١٦١٦)

(٢) لاو ــ تزه: (٦٠٤ ق . م) فيلسوف صيني كان يتخذ الطبيعة مرشدا لانها القانون العادل للاشياء الذي يقره العقل . ويقال انه مؤسس المذهب الطاوي الذي يقول ان من الحكمة العودة للطبيعة والامتناع عن التدخل في سير الامور . والفضيلة هي في مقابلة الاساءة بالاحسان .

ــ المعربان ــ

وانسانيتنا . ولكن المتشككين من امثال جان بريفو عارضوا هذه الفلسفة ابان حرب عام ١٩٤٠ . وقد قال بريفو ، والحرب في أوج حدتها : « ان الرجل لا يتغذى بالخبز فقط ، بل بالطلقات أيضا » .

* * *

وفي أيامنا هذه ، وجدت القصائد الحماسية وكذلك القصص الحربية، وسيلة مدهشة للتعبير : عن طريق السينما . ففيما تقدمه السينما من هذه القصائد والقصص تمجيد واضح لها أكثر من استهجانها . الا أن السينما تتميز بأن لها تأثيرا يفوق بكثير تأثير القصيدة الحماسية . فالسينما نوع من المخدر ، فهي قادرة على أن تقدم لنا ، حسب الطلب ، عالما كله احلام ، بحيث يستطيع المشاهد ، وهو في مجاهل القاعة المظلمة ، وبكل تراخ وبعيدا عن كل خطر ، أن يتمثل نفسه مع هؤلاء الابطال ، وأن يعيش بهدوء مع خفقان قلبه أكثر الساعات اثارة .

ومع هذا فان هذا التمثل لن يدوم طويلا . فما ان تنار القاعة حتى ينصرف المشاهد وقد تمالك نفسه . في حين كان يتخيل نفسه خلال ساعتين انه هانيبال أو سبارتاكوس أو نابليون . ومهما كانت نوعية الافلام الحربية فانها لا تخيب ظن منتجيها . وسيكون من المهم جدا لو راعينا التفصيل في تعداد وتصنيف كل هذه الاعمال حسب موضوعاتها . وهذا هو ما سوف نقوم به .

* * *

يعكس الانتاج الادبي في عصر ما افكار ذلك العصر . فاذا اردنا تتبع مظاهر التطورات الفكرية لأي عصر فيجب أن نرجع الى انتاجه الادبي . ففي فرنسا ، حتى عام ١٨٧٠ كان كل من ميشليه[1] وفيكتور هوغو من أكبر المواهب واكثرها خصوبة . فهما اللذان خلدا الحرب والانتصارات في ميادين القتال . ومما لا شك فيه أن مثل هذا النوع من

(١) جول ميشليه J. Michelet (١٧٩٨ – ١٨٧٤) كاتب فرنسي واكبر مؤرخ للمدرسة الرومانطيقية . ويعتقد أن الشعب هو العقل الحقيقي للتاريخ . وتعد كتاباته من روائع الادب الفرنسي : (تاريخ فرنسا و جان دارك ، والعصفور والبحر) .

الالهام لن ينطفيء ابدا . وكانت أكثر المواهب تأثيرا في الادب الاوروبي تلك التي تبنت مواقف جديدة . ونجد في المانيا ، أن ارنست يونجر[1] بعد تمجيده القوة في كتابه « عواصف من فولاذ » نراه في جريدته قد بدل اتجاهه وأخذ يميل لجانب الانسانية المعذبة . ومع هذا فان لهجته الذكية الانسانية ما كانت لتخفي عجرفته الارستوقراطية مشابها في ذلك الامير دولين . ومثله في ايامنا هذه غونترجراس فيما يظهره من حمية نحو السلمية ولكن بأسلوب رابوليه[2] .

وتميز الادب الفرنسي بعد عام ١٩١٤ بالقصص التي كان طابعها المسيطر « استثارة العطف » . ويمكن اعتبار كل من دورجولس وباربوس وجنفوي ودوهامل وروجيه مارتان دوجارد كل هؤلاء يمكن اعتبارهم ، بشكل غير مباشر ، دعاة لتعليم السلم .

ولكن كل موقف من المواقف الاصيلة في هذا المجال ما كان يظهر الا بعد حرب : عقب حر ب١٨٧٠ ظهرت قصة هادفة ومحددة ، وصفية وفريدة في تطورها ، تلك هي قصة اميل زولا[3] «الانهيار» La Débâcle . وعقب حرب ١٩١٤ ظهرت قصة أخرى في اشراقة شعرية ذات اصالة كبيرة تلك هي قصة « شباب جاك بريفير » . وتضمنت هاتان القصتان كل الحجج التي

---

(١) **ارنست يونجر :** (١٨٥٩ — ....) كاتب الماني اشترك في الحرب العالمية الاولى ، وكتب عدة روايات عنها وصف فيها جبهات القتال وصفا واقعيا مجد فيها تضحية الجندي من اجل الوطن . ومن مؤلفاته عواصف من الفولاذ (١٩١٩) النار والدم(٩٢٤)ومن مؤلفاته عن الحرب العالمية الثانية : حدائق وطرقات (١٩٤٢) وفيها تضاءل ميله لتمجيد القوة .

(٢) هو (رابوليه فرانسوا) : من مشاهير الادباء الفرنسيين امتاز في عصر النهضة باحياء المثل الاعلى في الفلسفة والادب مزج الجد بالهزل في كتبه واشهرها حياة غارغانتوا وأعمال بانتاغروبل .

(٣) **اميل زولا :** (١٨٤٠ — ١٩٠٢) روائي فرنسي بدأ صحفيا ثم اصبح المدافع الاول عن المذهب الطبيعي في الادب الذي يقول بوجوب قيام القصة على التفكير العلمي والوصف الدقيق لما هو كائن في المجتمع . وقد كتب قصته هذه في عام ١٨٩٢ عن انهيار اسرة روجون ماكار نتيجة لتاثير الوراثة والبيئة ، وبخاصة الاسراف في الخمر والانحلال الخلقي .

استندت عليها النزعة السلمية الحديثة فيما بعد . ولهذه الاسباب اخذناهما كنموذجين لحديثنا حول السلم .

* * *

٢ ـ « الانهيار » لاميل زولا

مثلت في مطلع القرن التاسع عشر ، أكبر مأساة للانسانية المعاصرة . فحتى هـذا التاريخ لـم تعتبر الحرب الا ملهاة الامراء الخبيثة . وكان للشعوب كل الحق في شجب الحرب ونقدها . وفي تشهيرات جان جاك ، وفي تهكميات كانديد[1] وفي القاموس الفلسفي ، نجـد كلمة الفصل . واستمر هذا الادراك الحميد حتى قيام الثورة (الفرنسية) ولكن لوحظ أن هذه الصيغ المثالية تغيرت بعد سقوط نابليون . فنجد أن كلا من : مالتوس وهيجل ودوميستر وداروين ثم من بعدهم فون برنهاردي ، قد اتفقوا في الرأي على اضفاء كل الصفات المغرية على الحرب وعلى أنها لا يمكن تجنبها .

ولكن اصحاب النظريات كانوا في افكارهم اكثر تقدما من الادباء : لقد عظم هيجل الحرب ، وكانت بالنسبة اليه الوسيلة التي يمكن للدولة أن تبني بواسطتها نفسها . ولا تصل الآلة الى أقصى انتاج لها الا بواسطة الحرب ، ولا يصل الانتاج الى الكمال الا بمساعدة الحرب . ووقف آخرون من أصحاب النظريات الى جانب الحرب دون قناعة كلية بها ، ودخلوا الميدان مع عقائديات النشوئيين ، التي كانت تركز على الجانب القاسي في الطبيعة : البقاء للاصلح ، النضال لاجل الحياة ، الانتقـاء بلا رحمة . وقد اتاح اتفاق وجهتي النظر : الهيجلية والنشوئية ، فيمـا بعد ، مجالا لاخراج اكبر كتاب لم يسبق له مثيل في تقريظ الحرب ، هو كتاب برودون . لقد كان فيه تصور مسبق لما يعانيه الآن العقـل الحديث من قلق عميق . ذلك لان شعور التضحية الذي نبذ في كل مكان

---

(١) **كانديد** : شخصية ممتازة من شخصيات فولتير يحاول ان يعبر عن طريقها بأن على الرجل ان يتقبل الامر الواقع وأن يرمي ظهريا بكل القواعد دون أن يحاول معرفة اسباب ما يجري امامه . وان عليه ملء وقته بالعمل الذي من شأنه اسعاده .
ـ المعربان ـ

وجد اليوم ملاذه في الحرب • ففيها قدست التضحية أكثر فأكثر • وتقدم مجتمعاتنا اليوم مشاهد متناقضة : يؤمن بعض قادة تلك المجتمعات بالعدالة الالهية بينما هم ينكرون وجود الله اصلا •

* * *

واستغرق الادب مدة طويلة حتى تمكن من تبديل وجهات النظر بعد أن ظلت متطابقة منذ عهد الالياذة وقصيدة رولان • فقد كان الادب يسجل وقائع التاريخ ويقص الاعمال الكبيرة التي حققها اولئك المعلمون الذين كانوا يعلنون الحرب ويقودونها •

ومما لا شك فيه أنه كان هناك العديد من المذكرات التي حملت الينا الكثير من الوقائع • كمذكرات النقيب كوانيه أو الرقيب بورغوني وكصفحات ستاندال المشهورة عن معركة واترلو • الا أن اميل زولا هو أول من حاول بحزم ادراك المعاني المجردة الحديثة وتطلع لبحثها في كتاب أدبي • فمن أول صفحات كتابه **« الانهيار »** عرض على لسان بطل قصته موريس لوفاسور Maurice Levasseur وجهة نظره :

« كان موقف موريس الى جانب الحرب وكان يراها حتمية في بعض الاحيان لاستمرار بقاء الامم » هذا الموقف ألح وفرض نفسه عليه ، منذ أن اعتنق الافكار التطورية ومنذ أن اقتنع بتلك النظريات النشوئية التي كانت تؤثر في الشبيبة المثقفة منذ ذلك الوقت • أليست الحياة حربا تشن كل ثانية ؟ أليست الظروف ، حتى ما تعلق منها بالطبيعة ، معركة مستمرة للنصر فيها اكبر اعتبار • وتجدد القوة وتصان بالعمل وتنبثق الحياة من الموت دوما وهي شابة ؟

ثم يتابع زولا على لسان بطل قصته (موريس) ليظهر كيف كان النقاش عن المسؤوليات ، يثير غروره :

« لقد كانوا يتناقشون حول ترشيح احد الامراء الالمان لعرش اسبانيا ، وحول ذلك الارتباك الذي تفاقم شيئا فشيئا ، واظهر أن الجميع على خطأ لدرجة أصبح لا يعرف أحد من أي جهة يأتي الاستفزاز • بينما يقف القدر وحيدا صامدا • فهو القضاء المحتم الذي سيدفع في الساعة المحددة شعبا ضد آخر » •

ان موريس،بطل القصة رجل مثقف ولكنه ايضا من عتاة اللاأخلاقيين، انه متأنق مريب بتصرفاته ومفسد : ألم تدفع اباحيته الكالحة باسرته الى الهلاك وبوالده الى الانتحار ؟ انه يشبه « رابامبره » بل ويفوقه • فهو أكثر تعمقا منه بالفلسفة عدا عن انه انهى دراسته الحقوقية • ولهذا نجد أن ارتيابية موريس هي السبب الاكيد الذي دفعه الى الاستهانة بالحب الابوي والى سخريته بالدين • فتنكر لجميع واجباته ووجد نفسه متأثرا بنشوة الحرب الجماعية ، هذه النشوة الكبرى التي بدلته من حال الى حال •

هنا أوضح زولا ، بطريقة عبقرية ، كيف بدل التقديس موضعه الذي كان عليه طيلة القرن الاخير • فأصبحت الحرب ذاتها موضع التقديس وليس شيئا آخر • فلم يعد موريس ذلك المؤمن بوجود الله ولا بالدولة الممثلة بالامبراطور ، كما لم يعد متحمسا للتضحية بنفسه في حرب بين الاسر المالكة ، تلك الحرب التي كان يزدريها تماما •

وأوضح زولا أن النخبة المثقفة وعت بان العلم والتقنية يسهلان عملية الانتاج • ولما وجد الانسان ان عملية الخلق عملية عادية اتجه الى احترام قوى التدمير • ولانه افتقد القدرة العلوية التي يريدها دوما متحكمة به ، ذهب يفتش عنها في القوى الجهنمية • فهل أصبحت الحرب مجالا ممتازا للتقديس ؟ حتى أن كلمة القدر اتخذت لها معنى آخر ، معنى جنائزيا لدى بودلير ، و « الشعراء المنبوذين » • فلا يظهر القدر جذابا بالنسبة اليهم الا في اشكاله المدمرة •

ولحق هذا التحول بموريس ايضا • اذ بعد أن كان يلقي بالقدسية جانبا ويرفض حتى الخضوع لسنن الاخلاق السائدة ، أصبح يجد أن افكار التوبة والفداء طبيعية جدا • ولكن هذا التحول كان لصالح الحرب (وليس لهدف الحرب أو لسببها) تماما كما لو أنه وجد نفسه امام دين جديد أو آلهة تجسدت أمامه فجأة وطلبت منه التوبة والتضحية فاستجاب لطلبها بسرعة : « لقد تذكر تلك الانطلاقة الكبرى التي انقذته مما هو فيه ، هذه الانطلاقة التي جعلته يفكر بأن يكون جنديا ، وبأن يذهب ويقاتل في الجبهة ، وبذلك يداري أخطاءه » •

ويصف زولا كيف أن هذه المناقشة المفاجئة جرت من خلال تحول جماعي :

« ان رعشة كبيرة شملت مدينة باريس . واستعاد ــ موريس ــ ذكرى تلك الامسية الجياشة : الشوارع زاخرة بافراد الشعب ، والجموع تلوح بالمشاعل صارخة : الى برلين ! الى برلين !! ان صدى صوت تلك المرأة الرائعة الجمال لا يزال يرن في الاسماع . لقد كانت تنشد النشيد الوطني الفرنسي ــ المارسيلييز امام دار البلدية وهي واقفة على سرج سائق عربة متشحه بالعلم الفرنسي كأنها الملكة . وتتساءل هل كان زولا كاذبا في وصفه لهذا التحول الجماعي ؟ ألم يرتعش فعلا قلب باريس ؟

* * *

ان « الانهيار » كتاب فريد من مؤلفات زولا . (والعلاقة التي تربط بين بعض الشخصيات وبين افراد اسرة روجون ماكار علاقة سمحة بالفعل وذات شكل موضوعي) ولم يستطع زولا أن يضع ، بشكل أفضل، نظريته في « القصة الجريبية » قيد التطبيق الا في كتابه هذا.

هنا نجد أن شاعرية زولا الطبيعية واسلوبه قد تكاملا . وكما تعود اللازمة الكبيرة دوما للظهور خلال مشاهد الحزن وحالات اليأس والمجازر، تعود رؤية السلم في الحقول : هناك كان فلاح عجوز يدفع محراثه في احد الوديان ، بينما كانت تحيط بميادين القتال طبيعة صيفية رائعة :

« ثم ، هناك بعيدا في الحقول ، التي عادت يبابا ، وبالقرب من دونكري وكارينيان كان ثمة سلم دافىء ومشع . كانت مياه الموز رقراقة. والاشجار سعيدة ببقائها على قيد الحياة . والاراضي الكبيرة الخصبة والسهول الواسعة الخضراء تغرقها حرارة شمس الظهيرة القوية . »

وبتأثير هذه الحماسة الشعرية نجد زولا ، الذي يرى في نفسه مراقبا « علميا » قبل كل شيء ، يندمج كلية بشخصياته ، يعرض افكارهم ونفسياتهم باسلوب شديد الحرارة . لقد كان يستشعر خلجاتهم دون أن يعنى كثيرا بوصفهم . ولذلك نراه في قصصه ، التي تدور حول موضوعات حياتية معاصرة ، يعني بتحليل الآلاف من دوافع المنفعة والطموح ويأتي في ذروتها دوافع الشهرةوالتعرض لما يشين . وهذا الاسلوب الذي اتبعه

زولا جعل انتاجه حافلا بذرات من الحقائق متناهية الصغر فليس في كتابه الاجماعي [1] هذا أي مجال لاعتبارات الانانية أو لاي سلوك شائن • فكل مشاعر شخصيات هذه القصة كانت مشاعر صافية ، من نسيج واحد• ولقد استحوذ على تلك الشخصيات ، ودفع بها مد اجماعي كبير مشجع او مثبط او دفعتها حمية مفعمة بالتحمس لرؤسائها أو بثورة عليهم مليئة بالتعنيف والشتائم •

ان قيام زولا ، لاول مرة ، بمثل هذا التحليل الدقيق لعواطف جيش مشتبك ، بغير الاساليب المتعارف عليها (وهي اكثر ما تكون وضوحا لدى آركمان ــ شاتريان [2] يكون قد رسم الخطوط العريضة لتلك المنطلقات التي عرفت فيما بعد بالمدرسة الاجماعية •

ومع هذا فان زولا لم يكن متحيزا في اسلوبه بحيث يرفض الفردية منهجيا • فلقد سبق لزولا ان كتب ، في شبابه ، نقدا لبرودون : « ان فني بالنسبة لي ، هو على العكس ، انكار للمجتمع وتثبيت للفرد ، في كل ما لا علاقة له بالقواعد وبالضرورات الاجتماعية » • ولا بد لاي كاتب ، ويشمل ذلك كبار الكتاب التقليديين ايضا ، من أن يتعرض للمجتمع عندما يكتب عن الفرد ، وخاصة اذا اراد ابراز ميزات الافراد النموذجيين الذين هم ، بسبب شهرتهم ، يشكلون الطابع العام للمجتمع •

ولكن زولا عندما كتب عن الشعب لم يتكلم عنه وكأنه يتكلم عن كيان واحد ، وعلى طريقة هردر وميشليه او باعتبار أن الشعب وحدة تكتيكية كما فعل ذلك عدد كبير من الكتاب الاشتراكيين • بل كان يدرس

---

(١) نسبة للاجماعية Unanimisme وهي مدرسة أدبية وجدت في القرن العشرن تقوم على ان من واجب الفنان المبتكر ان يعبر عن الحياة الاجتماعية . من ممثلي هذه المدرسة جول رومان بفرنسا ودوس باسوس بالولايات المتحدة الامريكية .

(٢) اركمان ــ شاتريان (١٨٢٢ ــ ١٨٩٩) روائي مسرحي عرف باسم اميل اركمان . من اشهر رواياته (مدام تيريز ١٨٦٣) و (عزيزي فرتر ١٨٦٤) و (المجند ١٨٦٤) و (واترلو ١٨٦٥) .
ــ المعربان ــ

في كل مرة شخصيات حية بارزة كما هو الحال في «**المقتل**» (١) او في «**الجرمينال**» . هذه الشخصية ذات الحيوية الجمة اصبحت نموذجا قياسيا . بل افضل من ذلك ، فان الانفعال الذي يوحون به حتى وهم في اسوأ حالاتهم ، يبعث على العطف عليهم . وقد قام في الادب الفرنسي منذ عهد زولا ، تقليد يدعو للدهشة ولكنه طبق ضمنا في كل انتاج ادبي متعدد ومتنوع ومتحرر : هذا التقليد هو «عدم التعرض اطلاقا للشعب». وقد اطلق بيلادان على هذا التقليد «**اغراءات المقتل**» .

* * *

وقد كتب زولا شارحا اعماله التحضيرية التي اتبعها في كتابة قصته «الانهيار» فقال : لقد اتبعت اسلوبي الازلي : زيارات لجميع الاماكن التي تحتم علي وصفها ، وقراءة كل الوثائق المكتوبة وكان عددها يفوق حد التصور ،وكل ما استطعت اجراءه من محادثات ،طويلة مع جميع ممثلي هذه المأساة وهذا ما ساعدني كثيرا في كتابة «الانهيار» . وعندما أعلنت الحرب كان عدد كبير من رجال المهن الحرة ، ومن المحامين والاساتذة الشباب ومن الجامعيين والاساتذة القدماء الذين كانوا بلا عمل ، رجال على درجة عالية من الثقافة ، تطوعوا للخدمة في الجيش كجنود عاديين بالرغم من أنهم معفوون قانونياً من الخدمة العسكرية . هؤلاء كانوا ، عندما يأتي المساء يدونون وهم في الملاجىء كل انطباعاتهم ومغامراتهم في مذكراتهم الصغيرة.

لقد وقع في يدي خمس أو ست من هذه المذكرات . بعضها نسخ اصلية وبعضها نسخ عن الاصل .منها على الاقل نسختان مطبوعتان .لقد كانت هذه المذكرات عظيمة الفائدة لي ، وكانت كلها ناطقة بالحياة . انها قصص عاشها اصحابها وكانوا متشابهين ، اذ حوت هذه المذاكرت انطباعات مشتركة . ومن كل هذه المذكرات استقيت ، حتى جوهر هذه

---

(١) المقتل L'Assomoire قصة لاميل زولا (المجلد السابع من سلسلة اسرة روجون ماكار) تحكي قصة امرأة غسالة تلاحقها المتاعب :من حبيبها لانتيه ومن زوجها كوبو الغارق في كسله ومعاقرة الخمرة . والمقصود بالمقتل هنا تعاطي الخمرة لانها تورد الهلاك .
— المعربان —

القصة « الانهيار » وصغت شخصية بطل القصة نفسه « موريس » من صلب هذه المذكرات • لقد كان مثقفا اراد ان يجعل من نفسه ضحية ، مدركة ، (أي كائنا مفكرا يشابه في ذلك ماتيـو بطـل ج•ب• سارتر في « موت الروح » •) فقد كان هذان البطلان يندفعان **بثورة كلامية** يتناوبان فيها شرح كل الامور وسلبياتها بطريقة ثورية • ولكن بطلنا المثقف كان اكثر قلقا من كل اصدقائه ، كان تحت تأثير رغبة جامحة تدفعه للتضحية بالذات • ـ لقد ركز تولستوي على مثل ذلك القلق الذي كان ينتاب المقاتلين قبيل المعركة ، عندما وصف سخط الجيش الروسي باجمعه على خطط كوتوزوف [1] التكتيكية التأخيرية •

لقد كانت هذه النقطة ، نقطة توافق مضطربة بالنسبة للاجتماعي الباحث عن خطوط القلق العامة عبر الملاحم التاريخية • والى جانب هؤلاء كانت هناك شخصيات اخرى تقر وجود ذلك القلـق لاسباب مختلفـة ، كالشخصيات التي تمثل المفكر والعصبي المزاج والشديـد الحساسية والفلاح الرابط الجأش والحصيف (جان)، والثائر المتذمر والشيطاني والعدمي (شوتو) ، وغيرهم • وعلى الرغم من اختلاف المسببات الشخصيـة لدى كل منهم ، فان سلوكهم ودوافعهم كانت واحدة ، كل منهم يحاول تدعيم الدمار • لقد تلاقت كل تلك المسببات والرغبات ، رغم التباين الشديد فيما بينها ، تلاقت كلها حول رغبة آسرة جماعية للقتل • افلا يجد الباحث الاجتماعي ، في هذا ، السمة الاساسية لظاهرة الحرب ؟ •

* * *

بالرغم مما قوبل به كتاب « الانهيار » من حملات نقد عدائية ، فان النجاح الذي حققه في التوزيع ، ادهش الكثيرين • وعندما ظهر هـــذا الكتاب عام ١٨٩٢ كان الرأي العام متعبا منذ وقت طويل من تلك الكتب التي كانت تدور مواضيعها حول « السنة العصيبة » او حول «الكومونة»، وهذا ما اتاح اعادة طبعه بسرعة • ومع هذا ، اعتبر النقاد هذا الكتاب

---

(١) كوتوزوف : قائد روسي اوقف زحف جيوش نابليون على موسكو عام ١٨١٢ في معركة قرب قرية بورودينو •
ـ المعربان ـ

من الناحية الادبية في مستوى اقل بكثير من مستوى مؤلفاته الاخرى • وقارنه الكثيرون ، بدون رحمة ، مع كتاب « **الحرب والسلم** » • مع ان هذه المقارنة صعبة للغاية لاختلاف وجهة نظر كلا المؤلفين : يرى تولوستوي الحرب من وجهة نظر الطبقات الحاكمة ، تلك التي كان بوسعها ان تقول كما قال لويس السادس عشر لزوجته الشابة أثر قيام تمرد يتهدده هو وابن حميه ملك اسبانيا : لا تقلقي •• فان اخاك وانا سيدان ونحن اكبر بكثير من ان يطالنا التدمير » • اما أبطال زولا فقد كانوا على العكس يغامرون بكل شيء وهم لا يملكون الا القليل • فلم يكن لديهم ما كان لدى الامير البهي اندريه من القصور والخدم المخلصين • ولم يكن لاي منهم خطيبة جذابة ينتظر العودة اليها •

وكذلك يبقى اسلوب تولوستوي في وصفه للمذابح الدموية متميزا• فقد وصف ركام جثث قتلى معركة بورودينو ، وكأنها نسقت بيد رسام مؤرخ انيق • في حين لم يضخم زولا مشاهد الرعب ولم يمجدها • كانت المشاهد التي خلفتها معركة بازيل مروعة فعلا فقد كانت نتيجة تراشق رهيب بالمدفعية استمر اثنتي عشرة ساعة ، وصدام التحامي خلفا مشاهد مرعبة • وكان مما يزيد ميدان القتال رهبة ، ذلك العدد الذي لا يحصى من الخيول النافقة : « ••• لقد كانت الخيول البائسة مضطجعة ، تثير الاسى باوضاعها المنفرة: الرؤوس مقتلعة والبطون مبقورة تندلع منها احشاؤها وخيول كثيرة ملقاة على ظهرها ، وقد انتفخت بطونها ، وانتصبت قوائمها الاربعة المتصلبة في الهواء كانها أوتاد مدببة • لقد كان السهل الفسيح مغطى بالكتل المتكورة • وهناك خيول لم تنفق حتى بعد احتضار استمر يومين • كانت خلال هذا الاحتضار ترفع رؤوسها المكدودة عند سماعها أقل جلبة وتطيح بها يمنة أو يسرة ثم تتركها تهوي الى الارض • بينما كان غيرها ، وهي بدون حراك ، ترسل بين الفينة والاخرى الصيحة العالية • هذه الشكوى التي يبعثها الحصان المحتضر جعلت السماء ترتجف منها لغرابتها ولما تحمله من الم مخيف •• » •

ثم تلا ذلك وصف اكثر هولا لقاعات المستشفى التي كان فيها الجرحى الفرنسيون والالمان يحتضرون جنبا الى جنب :

« ... وقبل أن نصل الى الباب ، كانت رائحة الجراح العفنة تأخذ بالحناجر . وكان النزيف العفن يزداد نتانة مع كل نقطة تسيل من الجراح التي كان لا بد ، في كثير من الاحيان ، من اعادة فتحها لاستخراج شظايا لم تكن قد اكتشفت . وقد تنفتح بعض القروح فتسبب ، بعد قليل ، النزيف المميت . ويتعرض الجرحى ، وقد انهارت عزائمهم وهزلت اجسادهم وغارت وجناتهم ، لاقسى انواع العذاب ، يرقد بعضهم اياما بدون حراك على ظهورهم واجفانهم مقفلة سوداء كما لو كانوا جثثا قاربت التحلل ... »

* * *

ان الادب الذي يتناول حقيقة الكائن البشري هو الذي يفرض نفسه الآن على القارىء . ونجد أن هذا الاتجاه هو الذي يسود مؤلفات زولا . انه يعنى بالناحية الانسانية ويترك العنصر الوصفي جانبا . فليس في قصة زولا مجال للادب الحربي التقليدي المبتذل . ليس فيها خونة ، أو ابطال أو شجعان . وليس هناك رولاند أو جانيلون .

لقد اعجب تولستوي بنابليون وبالقيصر الكسندر ، فقد كانا بالنسبة اليه من أنصاف الآلهة . يصفهما باحترام ويتوجهما بالفخار والعظمة في « الحرب والسلام » كان تولستوي تقليديا . لقد كان عبقريا بدون أي شك ، ولكنه كان تقليديا .

ونجد في الادب الحربي ان الاتجاه التقليدي اتخذ طريقا آخر هو : انزال اللعنة بالمسؤولين وهم : الملوك أو الجنرالات او تجار السلاح أو الارستوقراطيون أو اليعاقبة ، أو الديكتاتوريون او الكنائس او الاحزاب السياسية ... في هذا الاتجاه وقع زولا على كنز ثمين ، اذا صح القول ، بعثوره على حرب اعلنت للحرب . لان حرب عام ١٨٧٠ كانت أكثر الحروب اعتباطية . حتى أن غلاة الماركسية لم يحاولوا اظهار هذه الحرب وكأنها جرت لاسباب اقتصادية . وحتى علماؤنا (الفرنسيون) الذين يرون الحرب ضرورية لمعالجة كثافة السكان ، التزموا كلهم جانب الصمت حول هذه الحرب ، لان فرنسا في عام ١٨٧٠ لم تكن أقل سكانا من المانيا . ولم يكن بالامكان ان نعزو الهزيمة ، كما فعل المارشال بيتان ، للوحدات

المدرعة ، بل لعدم كفاية الموارد .

ولـم يكن لدى زولا اطلاقا ذلك القدر الكبير من الحظ ، ذلـك « الحل الذي يهبط من السماء »[1] فان الحرب اندلعت في ظروف متنافرة وغامضة تماما . فقد كان الامبراطور ، وهو المسؤول الاعلى ، ذا خيال مريض ووجه حزين غامض حتى أنه حاول الانتحار فعلا عدة مرات . لقد كان امبراطور المانيا رجلا شجاعا ولكنه رجل تجاوزته الاحداث . وهكذا كان شأن كل الشخصيات الاخرى : اما منسيون أو غارقون في السفاسف . لقد وجدوا انفسهم في مواقف لا يدرون حقا كيف وصلوا اليها ، ويفتشون عبثا عن مخرج لهم منها ، وسط تيارات متناوبة من الحماسة واليأس .

* * *

ولا تأتي المأساة عند زولا من طبيعة الاشخاص ، كما هي الحال عند بلزاك ، ولكنها تأتي من ضرورة اجتماعية ، ضرورة لا يتبدى مقدار ضغطها بوضوح الا عندما تسيطر على تفكير النقاد ، وتغرق ارادة كل واحد منهم في دفع جماعي شبيه بنوبات الهياج او التسمم الذي لا تعرف بواعثه . واكثر أنواع الدفع فتكا هو الدفع العدواني . ان موريس بطل قصة زولا بورجوازي مثقف ، أي أنه من الطبقة الاقل انضباطا والاكثر بعدا عـن الامتثالية[2] . لان افراد هذه الطبقة لا يعتنقون القدرية الضيقة التـي يعتنقها رجل الشعب وليست لديهم العجرفة الارستوقراطية . ومع هذا فاننا نجد موريس يتحرك ، بمجرد هبوب رياح التحرك الجماعي ، تماما كما يتحرك الجميع تاركا كل مماحكة معهم الى ما بعد ، عندما يقع ما لا يمكن اصلاحه .

وليست المشكلة في الاشخاص ، بل في الوضع نفسه ، في هذا البحران الجماعي الذي نشأ من اجتماع هذه المئات الالوف من رجال يملك كل واحد منهم مهنة وشخصية ومكونات مختلفة ، اجتمعوا ليكونوا جيشا

---

(١) في المسرحيات اليونانية القديمة يقومون بانزال احد الآلهة بحبل على خشبة المسرح لحل مشكلة متأزمة .

(٢) الامتثالية : نزعة الخضوع للاعراف المقرره .

ــ المعربان ــ

تجتاحه تحركات جماعية من عنف وشجاعة أو ذعر أو لامبالاة ممجوجة استطاع سارتر أن يصفها باعجاز في كتابه « موت الروح » •

وبفعل هذيان آسر وجليل أدخلنا عالم الحرب • وباجتيازنا حدودها تبدلت فورا كل اخلاقياتنا ، وكل قيمنا ، وكل نفسياتنا ، واذواقنا • واصبح موريس ، الذي كان لا يقبل أبـدا أي اكراه مهما صغر ، ينحني بنشوة وفخار امام الانضباط العسكري وامام اسوأ سخراته • لقد اكتشف ثانية في عالم الحرب اليقين والصوفية والتنسك • ان ذاك الذي كان يتضايق من كسر زجاج اصبح يجد طبيعيا أن تحرق المدن وأن يحرق منزله • حتى الامهات اللاتي كن يخشين على اولادهن من تيارات الهواء وعسر الهضم ، أخذن يرسلن اولادهن للموت • وذاك الذي كان يفر من بعوضة ، أخذ يجابه نيران الرشاشات •

وهكذا اصبح لزاما علينا أن نوجه التقدير لزولا ، لانه كان أول من لاحظ واستشعر سر هذه الامور ، ولانه امتنع عن استخدام التعابير التي تجعل الحرب معقولة • أو الاكتفاء بتقديم التفسيرات السهلة التقليدية • لقد جرت الامور وكأنها احتفال بمناسبة دينية تمنح النشوة الرائعة ولكنها باهظة التكاليف تتمثل ــ بالنسبة لعلـم الاجناس ــ في قلب كـل القيم المعنويـة •

لقد كان زولا أول المتكلمين عن الحرب بصفتها نكبة عامة يتقابل فيها ، منذ عهد نابليون وحتى آخر قرعة تجنيد ، اناس تعساء لا يفهمونها اطلاقا • لقد كانوا كلهم غارقين في السفاسف : وتتساءل هل من الممكن لهذا الانتقاد الذي وجه لقصة « الانهيار » ان يكون أقل شدة لو أن زولا لم يتخذ هذه الازدواجية المتناقضة في موقفه : اظهاره وجود قدر علوي يتطلب ، على حـد تعبير جوزيف دوميستر ، قبول المذابح بدون تذمـر لاستحالة تجنبها ، لانها ارادة الاله ومحاولته الوصول بهذا الوصف الى اثارة الحقد ضد العدو أو ضد الرؤساء السياسيين والعسكريين • ولكن زولا ، بدون أي منهاج أو عقيدة خاصة تقيده ، كان لا يـرى في ابطال قصته ، الا ضحايا سواء أكانوا أصدقاء أم اعداء • وشمل رأيه هذا ايضا اولئك الرؤساء غير المدركين لمسؤولياتهم المطلقة • لقد كانت مسؤولياتهم

المروعة تحول دون عودتهم الى رشدهم ، وكانوا يبذلون جهدهم عبثا ليحافظوا على وضوح تفكيرهم كما لو انهم في حالة السلم . وهذا ما ادى بهم الى نتائج وخيمة : اذ قتل آلاف الرجال لان احد الجنرالات اراد أن يجعل من نفسه ندا لجنرال آخر يكرهه . أو لانه اخطأ في قراءة خارطة ما .

لقد قدم لنا زولا ، في كتابه ما يثبت ايمانه بالفرد فقد جابه كل التجريحات والمظالم الاجتماعية ليدافع عن الفرد بشكل محدد . كان يحس بأن منفعة علم الاجتماع يجب أن تستغل لمجابهة كل القوى الاجتماعية العمياء . والرجل في أغلب الاحيان لعبتها . فقد اظهر في « الانهيار » ان الدافع العدواني هو من احدى هذه القوى بل هو اشدها فظاعة .

لقد كان الرجال يعتقدون بغرور أنهم هم الذين يصنعون الحروب ، انهم القادرون على تسخيرها وفق اهوائهم ، وان الحرب ليست الا ظاهرة طوعية متزنة . ولكن أليس الواقع هو النقيض ؟ أليست الحرب بالاحرى هي التي تمسك بنا ، وتصنع نفسها بنا ؟ أليست هي استطراد حلقة دافعة أو نتيجة لبعض الارتباطات ، او لاختلال التوازنات السكانية أو الاجتماعية ؟ الواقع ان الاسباب التي نعطيها لتبرير اعمالنا العدوانية لا علاقة لها اطلاقا بالاسباب الحقيقية التي دفعتنا للعدوان . اننا لسنا في الحقيقة الا ضحايا شعوذة مشينة .

كل شيء كان يجري في « الانهيار » ، هذه القصة الواقعية ، كما لو كانت الحرب هذيانا جماعيا ، واندفاعا محموما يهدم ، في اللحظة المناسبة ، مختلف الادعاءات المستساغة ، التي تفقد قيمها امام الاندفاع الساحق . ويستخدم الاندفاع هنا أداة بريئة وسريعة ، لنقل العدوى المعنوية من هذا النوع من الاوبئة الخاصة . ان عدد ضحايا هذا الدفع يفوق بكثير عدد ضحايا الامراض الاخرى كلها مجتمعة . وهناك تمييز آخر : فقد وجد لبعض الاوبئة آلاف المتطوعين لاقامة معاهد تخصص لمكافحتها ، كالسرطان والحمى الصفراء . بينما لم يقم ، حتى الامس على الاقل ، معهد واحد يعنى بدراسة الحروب — دون أن نفترض مسبقا وقوع المشكلة لنحلها — أو دراسة الظروف الحقيقية لنشأة هذه الآفة الغريبة . أليس من الغرابة بمكان ان تقوم احدى لجان اليونسكو في احدى اجتماعاتها فتقذف بعيدا

عنها ، وبدون أية مناقشة ولو لمدة دقيقة واحدة ، بحثا تمهيديا بسيطا حول اجتماعية الحروب ؟ • لقـد آن الاوان لعودة جدية ، لانعطاف خفيف ، يتناول ابحاث السلم وكل ما يتعلق بالنزعة السلمية •

هنا تكمن افضل البراهين على ان الحرب أصبحت الملجأ الاساسي للتقديس ، وانهـا اكبر منابع انفعالاتنا وانها الملاذ الاخير ضـد الضجر والتسكع في هذا العالم الملحد ، وانها قادرة على قلب كل الامور • وانها ايضا باعثة للنشاط بشكل باهر ، نشاط اكثر كلفة ، ويجري بلامبالاة • وان آثارها ، من الناحية النفسية ، تتضاعف بأسلوب مانوي[1] ملائـم ومبسط للامور ومبعد لكل قلق مزعج • واذا عدنا لقصة زولا ، نتساءل هل كان من الطبيعي ان تلاقي هذا النجاح الباهر ؟ • أجل ، ولكنه نجاح مؤقت • ان اسلوب زولا جذب الاعجاب قسرا ، ولكن تصرفه لـم يكن معجبا للجميع • ولذلك سرعان ما طوى النسيان هذا الكتاب •

٣ – جاك بريفير وقرن من الشعر الحربي

الحرب والحب ثديا الادب • ولكن الحرب هـي المرضعة الاكبر ، والاكثر قدما • وكانت أول الاعمال الادبية التي اعتبرت جديرة بالتدوين هي الروايات الشعرية عن الحملات الحربية : كشعر الحماسة ، والاغنية النضالية ، وسير الملاحم والابطال • وغدت التمثيليات نفسها بطولية • ولا يتخلل أوائل المآسي اليونانية أي مشهد حب اطلاقا • بينما نرى اليوم وبعد عشرين سنة من عام ١٩٤٥ ان الافلام الحربية ما زالت تلاقي النجاح الباهر باستمرار •

وليست النتائج السياسية لاية حرب هي الاهم ، فهناك نتائج أكثر حدة هي نتائج الآثار التي تتركها الحرب نفسها في الفكر الانساني والتي

---

(١) نسبة للمانوية ، مذهب ماني الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام .

ـ المعربان ـ

قد تستمر مدة أطول • ولا داعي للقول مع الرواقيين[1] : « ليست الاشياء ذاتها هي التي تثيرنا ولكن ما تحمله أفكارنا عنها » • فمما لا شك فيه ، بالنسبة لتاريخ الحضارات ، أن الاثر الذي تتركه بعض الحوادث الاجتماعية في اذهاننا يبدو أكثر اهمية من الحوادث نفسها ، وذلك لان الحوادث تنسى بسرعة أكبر من التقاليد وخاصة اذا تداولتها الالسنة • وبصدد هذه النقطة بالذات يوضح تاريخ الادب فلسفة التاريخ •

ولكن كيف يتسنى لنا تقييم حصيلة هذه الامثولة ؟ قد يكون ذلك ممكنا في البلاد التي تتمتع بصحافة حرة ولديها الاحصاءات السليمة • وذلك باحصاء عدد النسخ الموزعة من جميع النشرات • انه مقياس تسويقي ولكنه يسمح لنا باستيفاء المعلومات من خلال الارقام الفجة •

ان خلق القيم هو سر الحياة الاجتماعية تماما مثلما الخليقة سر المجرة • وكما أن في استطاعة شاعر كبير تقديم الصيغ التعبيرية ، فان في استطاعته ايضا توضيح معالم عصر ما أو حتى حضارة بكاملها • انه يقدم بأسلوبه اسانيده شفهيا•ان قيمه تنبع من ذاته ، من شخصياته التي يجسدها بصيغ تنقش في الاذهان • فكم من شعوب بأكملها عرفت واجملت اخبارها في اقوال شاعرها المختار • وسواء أكان الشاعر يظهر كيف فعل ذلك أم لا ، فانه كان يعبر بسعادة عن تحركات عصره •

ان الشعراء بشكل عام امتثاليون • ولكي يكون بالامكان تتبع التغيرات الفكرية العامة من خلالهم فلا بد وأن نبحث عن هؤلاء الذين انفعلوا بالحوادث المزلزلة لنظام تاريخي ما • ولم نفتقد الشعراء حتى عندما تعب العالم من الاقطاع وحروب الاقطاع او حتى من الحروب المعتدلة ، فقد ولد في نهايتي اطراف العالم اللاتيني الشاعران لاريوست وسيرفانتس• واذا انقلب ، نوعا ما ، رولاند من غاضب الى ساخر بقيم الفروسية ، فان

---

(١) الرواقيون : نسبة لمدرسة فلسفية اسسها زينون عام ٣٠٨ ق.م. وتقوم على أن الطبيعة تسير وفق العقل . ولهذا فعلى الانسان أن يسير وفق الطبيعة وان يكبح عواطفه ولا يبالي بالمؤثرات الجسدية من لذة والم وسرور وحزن •

ــ المعربان ــ

دون كيشوت قضى عليها بسخرية لاذعة • وقد اعلن عدد من شعراء ايطاليا واسبانيا كما اعلن في فرنسا الشاعر رابوليه ان احترام الشعوب قد غير مكانته • وقد امتد مفعول هـذا الاعلان حتى شمل الحروب الملكية • واستمر هذا الاتجاه حتى عهد كانديد واستقر في القاموس الفلسفي • ويشهد مؤلف فولتير « المحارب » ، كما يشهد النجاح الكبير الذي حققه هذا الكتاب ، بذلك التحرك ضد ثلاثة قرون من الحروب التي خاضتها الاسر المالكة منذ عهد مارينيان حتى فونتنوي •

* * *

ولكن ، كان من الواجب ، بنفس الوقت الذي يسخر فيه من الحروب الملكية ، تبرير كل دفع عدواني : « ها أنت الآن البطل ، الصديق ، المدافع عن ملك البلغار » لقد كانت الشعوب نفسها تضطرم تأييدا للحروب الوطنية • بدليل أن فقدان لويس السادس عشر لشعبيته بدأ منذ كتـم نواياه عن زج فرنسا في حرب الاستقلال الامريكية • وكان هذا ايضا مصير لويس فيليب • وثمة ظاهرة غريبة تثب الى الاعين : لقـد كانت الطبقات القائدة أقل ميلا للعدوان ، بشكل عام ، من بقية الشعب • واستمر ذلك خلال قرن مـن الزمن • فقد كانت الطبقة البورجوازية الداعية لوحدة الجنس الالماني أكثر ميلا للعدوان من ميل اسرة هوهنز وللرن • وكـان الشعور العام في ايطاليا وفي دول البلقان هو الذي يجبر الحكومات على مباشرتها العدوان •

وثمة ظاهرة ثانية لا تقل غرابة عـن الظاهرة السابقة : لقـد كانت الحروب العقائدية الدينية موضع السخرية والهزؤ وذلك منذ عهدنا بأهجوة مينيبه التي حطت من شأن هذه الحروب • ولكن بعد انقضاء قرنين من الزمن ، عاد لتلك الحروب اعتبارها لدرجة أصبحت معها المطالبة بتحويل أي نزاع كان الى حرب عقائدية ، من اساسيات فـن الحكم في عصرنا الحاضر •

ويتصف الادب وخاصة الشعر بأنـه كاشف • فأعمـال الكونت

دوليل[1] الجمهوري القح ، المسالم ، زاخرة بأوصاف العنف المنظم والتي كتبها بأسلوب مخيف ناقم ليرسخ في اذهان القراء شناعة هذا العنف . ومع هذا فانه ختم اشعاره المعادية للحرب بردة معاكسة :

تحت اشعة الشمس القائظة او فوق السهل الكئيب
اقتحم هؤلاء الشجعان باصرار فم المدفع بصدورهم
فتهاووا صرعى اسمك ايتها الحريــة
فليقدس ذلك الدم النقي المراق في سبيل انتصارك

ويمتدح بيرانجيه ملاحم الفروسية النابليونية الى حــد التقديس ، بالرغم من انسانيته ونزعته الجمهورية والمتحررة :

« حدثيني عنه ، يا جدتي ، حدثيني عنه !! »

ويشعر فيكتور هوجو براحة من موقفه المناقض لنزعته الجمهورية ، اذ تغنى بالمعارك الامبراطورية وبالامبراطور . ونراه في قصيدته « انشودة الى الهيكل » اكثر تأثرا من بيرانجيه[1] .

« مولاى ، سوف نقيم لك اجمل المآتم ... »

وكذلك امتدح هذا الشاعر الكبير ومجد انتصارات نابليون الثالث بالرغم من كراهيته له . ولكنه استطاع التخلص بلباقة من هذا التناقض عندما كتب عن تلك الانتصارات :

« غدا بفضل اولادنا الابطال ، غير الامناء »
« سوف يأتي نصر اعمى ويبسط جناحيه »
« فوق هذه الجبهة الدنسة ، فوق هذا التاج المرذول »

ولسوف يستمر الاعجاب طويلا بقصيدة « واترلو » التـــي كتبها

---

(١) الكونت دوليل شاري ماري (١٨١٨ ــ ١٨٩٤) شاعر فرنسي لا يؤمن بالمسيحية ولكنه يؤمن بحقيقة الموت متأثرا بالادب اليوناني القــديــم .

(٢) بيرانجيه بييرجان (١٧٨٠ ــ ١٨٧٥) شاعر غنائي فرنسي كانت اشعاره وقصائده لا ترضي الحكومات اطلاقا فعزل في عام ١٨٢١ . ولكن قصائد المرحة وميوله الشعبية المتحررة والوطنية عوضته عن ذلك بشعبية قوية وتمتع باحترام كل المواطنين وعاش مـــن مؤلفاته رافضا كل تكريم .

ستاندال[1] . فلأول مرة توصف معركة كبيرة كما رآها أحد منفذيها الصغار بدون أن يكون لديه اية فكرة عن خطوطها العريضة وعن خطط القادة الكبار الضخمة . وسيبقى هذا المثال في الادب وحيدا ولمدة طويلة . لان اركمان ـ شاتريان[2] عندما قص حياة ومعارك متطوع بسيط ترقى حتى رتبة رقيب جعله يفكر طورا كفيلسوف وطورا آخر كرجل دولة . وجمع تولستوي بمهارة منقطعة النظير في المجالس الاسطورية ، وعلى خشبة المسرح ، رجال الاولمب مع المنفذين ، جعلهم يتبادلون الحديث ويتعايشون معا . اما المنفذون في **الحرب والسلم** فلم يكونوا الا ضباطا من افراد الطبقة العليا : نبلاء اذكياء ، انسانيون ، ولطفاء . وسيبقون هكذا مثلهم في ذلك مثل تولستوي سليل طبقة السلافيين النبلاء اعضاء مجلس الدوما . وكذلك نجد أن ابطال قصة زولا «الانهيار» يفكرون ويحاكمون : فهناك بالنسبة اليهم حروب عادلة وحروب أخرى ... رؤساء جيدون وآخرون سيئون ... الخ ... انهم جنود بسطاء ولكنهم يطمحون باعطاء النصح للجنرالات .

* * *

لقد كانت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أقل الحروب جاذبية للمقاتل : حرب تجردت من المغامرات وحفلت بتحركات بشعة ، بعمليات اهلاك منظم للجيوش المشتركة بها . وبكلمة واحدة كانت حربا كئيبة وشرسة .

ان الكيفية التي انتهت بها هذه الحرب اكدت بجلاء اشمئزاز المتحاربين منها . اننا ننسى في كثير من الاحيان ان حركات التمرد ، ومن ثم ثورات جيوش المانيا والنمسا وروسيا كلها ، كانت من اهم الطوابع

---

(١) ستاندال : اسم مستعار للكاتب ماري هنري بيل (١٧٨٣ ـ ١٨٤٢) روائي فرنسي كان ضابطا في جيش نابليون (١٨٠٠) واشترك معه في حروب ايطاليا وبروسيا وروسيا . له مذكرات وسير ويوميات أستعمل مصطلحات الحرب في رواياته . هو قمة شامخة في ميدان الرواية العالمية .

ـ المعربان ـ

(٢) اركمان ـ شاتريان في « قصة فلاح »

ـ المؤلف ـ

المميزة لحرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ •

بالاضافة الـى ذلك ، كان المطلوب مـن المجتمع أن يكون سريع التصديق لكل ما يقال له ، وان يكره استخدام اي مبادهة فردية • فقـد انتشرت طوال فترة حرب ١٩١٤ ـــ ١٩١٨ دعاية فظة رعناء اجتاحت كل البلاد ، واسماها الجنود الفرنسيون[1] « حشو الدماغ بالكلام الفارغ » • وقد جاء رجال السياسة ليضعوا ، بعد جيل كامل ، هذا الاسلوب قيـد التطبيق العملي : تمجيد الحرب ومن ثم مخاطبة محاربي الخنادق بالتعابير الحربية « الجديدة المرحة » وقد اسهم بذلك أكبر الاسماء اللامعة في الادب بقلوب مفعمة بالفرح • ولنأخذ على سبيل المثال الابيات التالية من القصائد الحربية الثلاث التي ألفها الشاعر بول كلودل والتي تشهد بذلك الاحتقار المريع للكائنات الانسانية :

اقدم جسدي ودمـي
اقـدم روحـي لالهـي
لسيدي في مجابهة أي شيء
اعطي كل ما في يدي ، لانها ملكه
واذا ما حققت القنبلة هدفهـا
فما قيمة الحياة الانسانية التي ستدمر !
وهذه الحربة ! هي لي كلسان من حديد
يجذبني الى الامام لتحقيق مزيد من الاهلاك

اذن ، فالتحرك ضد ما تلاقيه الشجاعة والارادة الحسنة من ازدراء ، هو الذي ولد التطاول والثورة • ولكن معالجة هذا التطاول لا يمكن أن تتم بمثل هذه الاساليب ، لان الحياة الاجتماعية تكون قد وصلت الـى اقسى ظروفها ، وقد مزقتها الهلوسة • وشتتتها المهانة •

ومنذ منتصف حرب ١٩١٤ وقع الطلاق بين القادة وبين « العنصر الانساني » • وكان أكثر الاصوات سماعا خلال هذا النزاع اصوات جورج

---

(١) Les Poilus وهم جنود فرنسا في الحرب العالمية الاولى . ويستخدم هذا الاصطلاح لوصف الرجل القوي الشجاع .
ــ المعربان ــ

دوهامل[1] وجينيفوي[2] ودورجلس[3] وهنري باربوس[4] والشجاع جالتيه بواسييه[5] ، كانت اصواتهم كلها تدور حول اهواء الجندي ، اذ يقدمون رؤاهم مباشرة عنها • ويشبه عملهم هذا ، التحقيق الصحفي : مليء بوقائع مثيرة • وان كل هؤلاء قدموا شهاداتهم المؤلمة عن أولئك الذين عاشوا حرب الخنادق في« **حياة الشهداء** » و « النار » و « **الصلبان الخشبية** » وكذلك في القصيدة الرائعة « تفزر الرعاع » التي كتبها احد المتسممين بالغاز خلال فترة احتضاره الطويلة • ولم تكن هذه الكتابات كلها الا شكوى • ولكن آثارها ما لبثت أن تفجرت في مكان ما داخل الضمائر •

---

(١) دوهامل جورج (١٨٨٤ — ٠٠٠٠) — روائي وكاتب مسرحي فرنسي — ابتدأ حياته كطبيب جراح في الحرب العالمية الاولى ومن مؤلفاته « حياة الشهداء » (١٩١٧) ، الحضارة (١٩١٨) في ظل الحضارة (١٩١٢) . ومن مؤلفاته التي سخط فيها على الحياة الالية الحديثة : مناظر من الحياة في المستقبل (١٩٣٠) ومشاحنات في اسرة (١٩٣١) ودفاع عن الادب (١٩٣٦) .

(٢) جينيفوي كاتب فرنسي اشترك في الحرب الاولى وجرح بها . واثناء نقاهته كتب (تحت اسوار فردان) كصدى لالام جنود فرنسا الشجعان الذين القي بهم في اتون المعارك دونما رغبة منهم . وله مؤلفات اخرى عن ذكريات الحرب

(٣) دورجلس كاتب فرنسي تخرج من معهد الفنون الجميلة ثم ابتدأ حياته الصحفية عاش الوجود البوهيمي في مونمارتر وشارك الفنانين حياتهم . وتطوع في الحرب العالمية الاولى وكتب عنها اول كتبه : الة انهاء الحرب (١٩١٧) ثم الصلبان الخشبية عام (١٩١٩) وقد اكسبته شهرة واسعه ، ثم ، ملهى الفتاة الجميلة (١٩١٩) ويقظة الموتى (١٩٢٣) وكل شيء للبيع (١٩٥٦) وتحيا الحرية (١٩٣٧) .

(٤) باربوس هنري (١٨٧٣ — ١٩٣٥) قصصي فرنسي بدأ حياته صحفيا وشاعرا ، اتصف بالواقعية (الجحيم — ١٩٠٨) وبعد ان تطوع في الحرب العالمية الاولى اعاد كتابة هذا الكتاب (١٩١٦) ونال عليه جائزة الجونكور . ثم اعتنق الشيوعية الاممية واتخذ بعد ذلك مسيرته الاشتراكية في التأليف والنشر : الوضوح (١٩١٩) ولنين (١٩٣٤) وستالين (١٩٣٥) . مات في روسيا

(٥) جالتيه بواسييه رسام وصحفي فرنسي اصدر مجلة الكرابوبيبو عن الحرب العالمية الاولى وقد رسم بالحبر الصيني عدة مناظر عن هذه الحرب . من بين كتبه : في صلب المعركة (١٩١٧) والحياة الطيبة (١٩٢٧) ومذكرات باريسي (١٩٢٧) .
— المعربان —

فقد دلت حرب ١٩١٤ انها كونت منعطفا من الناحية الادبية ، بالنسبة لفرنسا على الاقل ، وكان من الممكن لاناتول فرانس أن يستثمر انتصاره وقد تحققت كـل تنبؤاته التهكمية في « **جزيرة البطريق** » « وفي الآلهة العطشى » . ولكنه آثر الصمت لكرم اخلاقه . الم يسبق له أن كتب : « ... **وعندما يكون صوت الشعب هادرا وعنيفا فهو بحق صوت الاله .** »

ونجد ، من جهة أخرى ، أن رومان رولاند صاحب الفكر الجياش بالآراء السمحة لم يكن قـد استوعب ، ان هناك دفعا جماعيا قادرا على اعشاء الضمير وعلـى شل تفكـير الشعوب ، دفعا قادرا عـلى اطلاق الهتافات التي من شأنها تضخيم اللعبة ، الا بعد أن مزقته الحرب . وقد أدى به ذلك لفقد شعبيته كلها . وقد احزنه ذلك كثيرا . وبالرغم من أن سوء فهمه هذا اورثه جراحات أليمة . فقد تصرف كطبيب الامراض العقلية الذي يرفض قبول الحماقات .

واذا قلنا بوجود مثل هذا الدفع الجماعي ، فهل هذا يعني أن وجوده سهل ، أو انه لا يوجد أي ارتباط بـين هذا الدفع وحالة المجتمع الذي قاسى منه ؟ او انه ، على الاقل ، يمارس على هذا المجتمع شكلا من اشكال الضغط الروحاني الكامل ؟ . اننا يجب أن نسلم بأن الجنون قد ينشأ عن بعض الاضطرابات الجسدية تماما كما تتصل التحولات الجماعية بالبنيان الاجتماعي الذي فقد توازنه . هذا الارتباط بين الدفع والمجتمع هو الذي ينشيء الحوادث ولكن قلما ينشيء الرجال . ان الايمان بهذه المسلمة أمر جوهري . واذا ما ألقينا بها جانبا فلن يبقى لنـا الا الخضوع لحكـم الاقدار . وفي هذا الخضوع راحة لنا بالتأكيد . ولكنه لن يمنحنا الامل .

* * *

لم ينضب معين الادب البطولي ، بدون أدنى شك ، فقد رأيناه يستمر ولكن بشكل مختلف عما كان عليه في الروايات الحماسية . فالحرب بالنسبة ليونجر (في المانيا) ولمونترلان (في فرنسا) تقشف حازم . وكان هذا هو ايضا رأي اه ماريا رومارك الذي ابداه في كتابه « كـل شيء هادىء في الجبهة الغربية » وهي كذلك ايضا لدى ألفريد دوفيني كالحياة العسكرية . بينما بقي مالرو المتمسك الوحيد بالتحمس التقليدي للحرب : تمجيد البطل

المدافع الفرد . لانه استقى مواقفه هذه من قصص الكمائن والاغارات التي كان ينفذها عدد ضيئل من الافراد ابان الحرب الاهلية . ان الحنين للحرب جذاب . ولكن الحرب بحد ذاتها لعبة خطرة ، انها مغامرة فردية مثيرة قد تقابل بحرب تكتلات ذات ابعاد غير انسانية كاستخدام الاسلحة الجديدة . ومن هنا نجد سبب النجاح الباهر الذي يحرزه فيلم أو قصة عن الجاسوسية .

وكان « جاك بريفير » ، من بين اولئك الذين بقوا احياء بعد جيل الشباب الذي ضحي به ابان حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ من أولئك الذين عاشوا على قصص جبهات القتال ، واتاح لهم تقدمهم بالسن متابعة الاعلانات اليومية عن وفيات اصدقائهم الذين تقدموهم ، بانتظار اللحاق بهم . ثم جاءت فترة ما بعد الحرب مخيبة للآمال .

لقد كان بريفير ، فيما كتبه ، يترجم شعوره . فلأول مرة يقوم رجل حر ، بكل معنى الكلمة بشرح آرائه ازاء الحرب والفضائل الحربية بتعابير سلبية تماما . مع أنه ليس داعية لاي حزب سياسي ولا يعمل في خدمته . بينما كان كل من فيكتور هوجو والكونت دوليل والشاعران الكبيران برودون وميشليه يمجدون الشجاعة واعمال العنف . ولم ينتقدوا الا اهداف الحروب . فبالنسبة اليهم ، كما هو الحال مع القديس توماس داكين ، هناك حروب عادلة وحروب غير عادلة ، اما الحرب ذاتها فانها تبقى لديهم مقدسة .

ومنذ عام ١٩٢٥ أخذ بريفير يوزع على اصدقائه ، ببساطة وبافراط ، قصائده مكتوبة بقلم الرصاص وعلى وريقات ، اذ نادرا ما كانت تطبع . ولهذا فان انتاجه لم ينتشر بين العامة الا بعد الحرب العالمية الثانية . فقد كان الشباب ، خلال الاحتلال النازي ، في سبيل حصولهم على نسخة من « عشاء الرؤوس »[1] أو « زمن البذور »[2] يذهبون الى ادريان مونيه . ولم يكن هذا العمل سهلا . لان الامر كان يتطلب البحث عن اشعاره هنا وهناك وفي المجلات الصغيرة النادرة وقد قضى في هذا السبيل رينيه

---

(١) Diner de Têtes

(٢) Temps des Noyaux

بيرتوليه الصابر ، الجلود ، مدة سنتين رغم حماسته الشديدة لهذا العمل . وقد كان هذا انتصارا رائعا انعكس بتكرر طبعات هذه القصائد وتعدد ترجمتها . وكأن اشعار بريفير اقرت باستفتاء شعبي ، تماما كما نجحت قصة زولا « الانهيار » عندما ظهرت لاول مرة . لقد استحق هذا الجهد الكبير ذلك النجاح . فقد وجد الشعب في تلك الصفحات التعبير المثالي عن مشاعره وعن مقوماته التي كان يشعر باهتزازها .

* * *

ان اعتبار بريفير كأكثر من يمثل الاتجاه الاوروبي بعد عام ١٩٤٥ ، هو اعتبار اختلفت فيه وجهات النظر . قبل عهد بريفير كان الكاتب والمؤرخ والقارىء الذي يجتذبونه ، يتقمصون تفسية رؤسائهم الذين ارتبطوا بهم. لقد كانوا جميعا يشاطرون أولئك الرؤساء مطامحهم وحيراتهم وقلقهم . لقد جعلوا من انفسهم زفرات قادتهم ولعب امرائهم .

لقد وضع هؤلاء الكتاب التقليديون قارئهم في وضع مخادع . فقد اعطوا ابطال قصصهم من الدالة ما مكنهم من أن يقودوا أو يصدروا الاوامر والقرارات على أولئك السادة العظام الذين عن طريقهم تنفذ الاقدار . ونجد أن شخصيات مالرو أيضا من الرجال ذوي الاهمية الخاصة . فان شخصية **غارين في قصة « الوضع البشري »** تأتي في قمة التسلسل القيادي . انه يحكم بالموت على الثوار والخونة بل ويقوم بتنفيذ حكم الاعدام فيهم بيده عند الضرورة وتحت ضغط الاثارة . وعلى العكس من ذلك كان بريفير : يضع قارئه وفق وجهة نظر « **اولئك الذين اخرجوا من الصفوف اعتباطا لينفذ فيهم حكم الاعدام** » .

كان بريفير قبل كل شيء يمتنع على كل تمجيدللفضائل الحربية . وهو في الحقيقة من أكثر الكتاب المحدثين ماركسية لانه تبنى ، الى اقصى حد ، ذلك الجزء من العقيدة الماركسية الذي يهاجم السلطات والنظام القائم ، ويسخر بهما . وعلى هذا فلم يبق للشاعر الا التعبير عن شفقته على الضحايا ، شفقة كاملة ، ولكن بدون أقل بادرة مواساة . لان اغترار الضحايا ، بالنسبة له ، ليس له ما يبرره ولا يجزيهم شيئا : **وما الشهيد ؟ انه ليس الاجثة قاربت الفساد ...** » . اما غضبه فقد كان يحتفظ به

ليصبه خاصة على رعاة السوء ، أولئك الذين يقودون القطعان الى المسلخ :

باكرا مــع الصبــاح
كــان الــراعي الصالــح
يقــود حملانــه الــى المسلخ

لــم يكن بريفير يتقبل أي تمييز بــين الاسباب التي تدعو القادة والعقائديين والمنظمين لتسميم الشعوب بالحقد وارسالها ليهلك بعضهــا البعض الآخر « **يجمعهم رباط المذابح المقدس** » لقد جمع بريفير كل هؤلاء في بيت واحد من الشعر : « **السادة ومعهم كهنتهم ، مع الخونة منهم ، مع اشياعهم** » •

وأخيرا ، فالجديد لدى بريفير ، وهذا هو بيت القصيد ، انه مضاد للميتافيزيقية ، أنه أول شاعر ذو قاعدة عريضة يتجاسر ويثبت على نفسه انه كذلك • وفي هذا المعنى فقط قال برودون « **في كل مرة يتحدثون معي فيها عن الاله اشعر وكأنهم يريدون محفظتي أو حياتي** » • لقد تجاوز بريفير كثيرا كلا من فولتير وكارل ماركس عندما اسبغ ثقة ضعيفة متشككة على كل العقائديات التي ستدعوك ، الآن أو غدا ، للموت في سبيلها فيقول : « الآن ، قــد لحق بالوطنيين وطنيون آخرون » (كذا ••) كلهم جميعا متعطشون للتضحية بالآخرين • ويرسم بريفير الصورة نفسها لكافة من يتحدثون باسم العقائد المميتة فيقول :

الصورة الكبيرة لكبير المنجمين
الصورة الكبيرة لكبير المفكرين
لكبير الاخلاقيــين
المهيب ، التافه الى حد السخرية
ان راس الطاغيــة
راس الجـــلاد
في اي بلد كــان
ومن أي لون كــان
الراس الذي يجب أن يقطع :
رأس الرعب

ويرى بريفير بالحروب ، عالمية كانت أم أهلية ، فخا ضخما للشباب •

ولهذا كان أحد موضوعاته المفضلة هو غضبته على جيل الآباء . وليس هناك من شاعر سواه استطاع أن يحدد ، بشكل أفضل وبتعابير هازئة ، مرة ، مفهوم ما نطلق عليه « عقدة ابراهيم » أي مسايرة رغبة الآباء الجائرة بتضحية ابنائهم في سبيل غاية مغرية . فالقصيدة المسماة « زمن البذور » تبدأ كأنها فاتحة خطاب يمكن أن يوجه الى الشيخ هوراس :

لقد انذرتكم ايها المسنون
لقد انذرتكم يا أرباب الاسر

ان القراع التي كنتم تضربونها
ما كانت تصيب الا الاحداث

لا بد وأن يمر عهد الشباب
ولكنكم أنتم تركتم الشباب يموتون

لقد قال فرويد كل شيء تقريبا عن ذلك الحسد الاسود الذي يواجه به الآباء ابناءهم . عن حقد وخوف الجيل القديم من تركه مواقعه ، ونسائه وامواله للجيل الصاعد . أليست الحرب أكبر مهديء فعال ضد هذه العقدة ؟ ان الحرب تثبت حكم الشيوخ عندما تحد من غزارة النبت الجديد . وفي أوامر قتال الجيوش الرومانية كان الاهتمام واضحا بوضع **سادة روما** في الصفوف الاخيرة ليحميهم الاكثر شبابا بأجسادهم .

في احدى فقرات مجلة « العالم » تسرع م. اميل هنربوت في حكمه على بريفير فشبه تعابيره بأنها شطحات يسارية ، ازدراء بها . وهذا خطأ منه . فان الشطحات اليسارية الحقيقية تكمن في تلك الاناشيد الحربية الشرسة مثل « انشودة الوداع » و « لحن الكارمانيول » او « الانترناسيونال » هذه الاناشيد المشهورة لم تكن تعنى الا بالمعارك الختامية وبالتضحية الطوعية في سبيل القضية (العادلة) وبارسال الشبيبة للمعركة . ان هذا هو السبب بالتأكيد الذي دعا بريفير لأن يطلق على الشاعر اراجون بعد ان وصل الى رتبة رفيعة في حزب سياسي قوله : « ها هو وقد اصبح حزبيا كبيرا » .

وهناك نقطة بارزة أخرى ، من هذا القبيل ، نراها ايضا في مؤلف بريفير . انه يرى في تماثيل كل الرؤساء الكبار ، يساريين كانوا أم يمينيين ،

خلاف ما يراه الآخرون فيها . فمن وجهة نظره يرى هذه التماثيل :

ترشد الاطفال الى الطريق
بحركة من تمثال اسمنتي جامـد

ولهذا اذا اردنا ، رغم كل شيء ، تصنيف أعمال بريفير بين الاعمال العالمية التي تستلهم افكارها من الواقع المضطرب ، ذلك لاننا نقول بأن شعور اللامعقول لدى بريفير ، هذا الشعور الذي يشعر به الرجل المعاصر اضطرارا ، والذي أوضحه ألبـير كاموا بجلاء كبير ، هـو لديه شعور اجتماعي . ألم يطرح بريفير ، بديكارتيه صلبه ، التفكير العقلاني بدون هوادة ؟ أولا يعني اقامة المجتمعات نفسها ايجاد رتب التسلسل فيهـا : طبقاتها الشعبية وطبقاتها الفارهة ؟ ويجب أن لا ننسى أن الركيزة التي يجب أن تحظى بأكبر تقدير بين كل الطبقات (والتي يجب أن يعترف بأنها الركيزة التي لا يستغنى عنها في عالمنا المهدد) هي التنظيمات العسكرية . ويقول الشيخ هيراقليط ان « الحرب ام لكل الامور ... تصنع الآلهـة والرجال والعبيد » وبمعنى آخر أنها تؤسس وتبرر وجود التسلسل في المجتمعات .

* * *

ان حرب ١٩١٤ كانت أكثر الحروب سخفا . انها ابتدأت بالاباطرة المتوجين ، وبأركان الحرب الالمانية التي قال عنها بول بورجيه[1] انهـا كانت مـع مجالس اللوردات والفاتيكان والاكاديمية الفرنسية ، اساس النظام الاوروبي . وانتهت هـذه الحرب بمآسي تمـرد شاذة ، انتهت بالتضخم المالي والمجاعة وبحركات العصيان . ان اكثر القادة استحقاقا للشفقة اولئك الذين اشربوا وجهة النظر التاريخية ، ونصبوا من انفسهم ، غرورا ، حماة التقاليد والنظم المقدسة ، ذلك انهم جميعا قـد تجاوزتهم

(١) بول بورجيه (١٨٥٢ ــ ١٩٣٥) روائي فرنسي كان من اتبـاع المدرسة الطبيعية في الادب ثم خرج على تعاليمها وآمن بالمذهب الكاثوليكي . وبالتالي امتازت اعماله بالـروح الدينيـة القويـة وبالاسلوب الكلاسيكي والتحليل النفسي واهم ما كتب عام ١٩١٥ (معنى الموت) .

الاحداث فأصبحوا غير قادرين اطلاقا على معرفة ما جرى ، وماذا حدث لهم • ويمكن أن تختصر كل حرب ١٩١٤ بكلمتين اثنتين ، وغموضهما يدعو للرثاء ، وهما : الفاتحة والخاتمة • ولنتذكر ايضا فون بولوف الذي كتب في مذكراته : عندما اعلنت الحرب ، دخل على بيتهمان هولويج وهو في مكتبه وسأله غاضبا « كيف حدث كل هذا ؟ » ولم يكن في وسع بيتهمان الا أن يغمغم : « لا أفهم شيئا ••• لا اعلم عن هذا الموضوع أي شيء اطلاقا » • وتأتي خاتمة المطاف في جملة قالها غليوم الثاني بعد أن لجأ الى هولاندا : « لم اكن اريد هذا » • ويقال أنه اضاف بعد ذلك بتعبير اقل ادبا : « ماذا يمكنك قوله عن هذه القذارة ؟ » •

* * *

وكتب اوديبرتي[١] : « كان يمكن اعتبار السريالية شقاوة جامعيين متخافين لو لم تأت قبلها فردان » • ولم يكن بريفير منتميا (رسميا) لمجموعة السرياليين ولكنه كان معاصرا لهم • ولهذا جاءت قطعته « معركة فونتنوي » اكثر مؤلفاته قربا للسريالية : لقد كان المشاهد وكأنه يؤازر في تهديم سرادق شرف اقيم في احدى المناسبات الكبيرة ، بينما تكمن المشاركة النبيلة في مثار الغبار حيث حوافر الجياد ، وهي في جريها ، تكاد لا تلامس الارض ، وحيث اتسخت شارات الزينة وتناثرت الاوسمة • ابدا لا يمكن ان يوجد وصف بمثل هذه الحدة • لقد ابتدأ اوديبرتي كتابه بمقطع موثوق من خطاب الرئيس هريو ـ الذي لم يكن بوسع أحد الشك بحسن نواياه اطلاقا ـ ثم انتقل منه الى كل الخطب الموثوقة والمشهورة التي ألقاها الرؤساء وكبار الحكام في جميع البلاد ، فتناولها (بمونتاج) هازل • لقد كان كل هؤلاء متأثرين بالشعارات التي من شأنها « حشو الدماغ بالكلام الفارغ » كتلك الشعارات التي كانت جمعتها المجلة الادبية الكرابوييو[٢] •

---

(١) اوديبرتي ، جاك : كاتب وشاعر فرنسي وقصصي مغرق بتضخيم الحقائق وجموح الخيال .

(٢) الكرابويو : مجلة فرنسية ظهرت في عدة وريقات حررت من خنادق الحرب العالمية الاولى ثم اصبحت عام ١٩١٩ ، مجلة ادبية فنية تنشر اخبار الفنانين الانجيليكانيين .

ـ المعربان ـ

وتتطلب مزاج بريفير المرح أن نعدد ببساطة وبدون اي تعليق تلك الجمل الطنانة المتبجحة التي كان الكتاب يريدونها تاريخية ، بينما يسند اليها تيار الحوادث الذي لا يرحم ، دورا تهكميا ساخرا •

ان الايام المقبلة لـــن ترحم أولئك الذين يدعون توجيه التاريخ أو التكهن بمجرياته • لقد كانت كل شخصيات معركة فوتتنوي تلوك تلك الجمل المقتضبة ، التي كان عليها أن تحتل تماثيلهم تماما كما كانت تحتل تماثيل الفرسان قبلهم •

ولم يكل بريفير ابدا من محاولاته اظهار مدى ذلك الغرور الفارغ الذي يغمر أولئك الذين يدعون فهمهم حقيقة التاريخ • وقد اكسبته هذه المحاولات شدة عداوة قادة الاحزاب • لانهم ما كانوا مستعدين لقبول أية سخرية بهم انهم كما يدعون ، يملكون مفاتيح المستقبل • ويجد بريفير في هذا الادعاء سببا آخر يدعوه للحكم عليهم ، فهم الذين يتنافسون على انزال المصائب ، انهـــم يدعون قدرتهم على اطلاق التنبؤات ، مـــع أنها خذلتهم آلاف المرات •

« كان يجب أن نبحث عن ذلك التاريخي ، الاجتماعي ، الفيلسوف المربى ، الميتافيزيقي ، الذي كان يمكن أن يرى أو أن يتنبأ او ان يتدخل ، بتعقل وببساطة وبعلمية وبرؤية تاريخية : »

في عام ١٧٧٠ ماذا كان سيحصل عام ١٧٩٣
وفي عام ١٧٩٣ ماذا كان سيحصل عام ١٨١٥
وفي عام ١٨٣٠ ماذا كان سيحصل عام ١٨٤٨
وفي عام ١٩٠٠ ماذا كان سيحصل عام ١٩١٤
وفي عام ١٩١٤ ماذا كان سيحصل عام ١٩١٨
وفي عام ١٩١٨ ماذا كان سيحصل عام ١٩٤٤
وفي عام ١٩٥١ ماذا كان سيحصل عام ١٩٧٠ الخ

وليس موقف بريفير هذا اطلاقا موقف القدريين أو المستسلمين • فهو في الموقف المضاد من السلبية التولستوية الملائمة لسادة ايامنا هذه • أو من موقف غاندي[١] الذي عفى عليه الزمن • ان موقف بريفير هـــو

---

(١) أي (الرجوع الى القديم) • — المعربان —

موقف المقاوم المناضل ضد فتنة الشعوذة وضد أخطر الاغراءات التي يعتبر القادة الظرفاء هم مبعثها بالتأكيد . ولا يكف بريفير عن الحديث في جدوى موقفه الرافض . هذا الموقف الذي يفتح الباب أمـام « الشيء الآخر » ويتيح له الامكانيات غير المحدودة . ان بامكان بريفير أن يقول ما قاله كليمانصو ، عدوه القديم : « ان من لا يقاوم يقتلع نفسه من الوحدة » .

* * *

يتيح موقف بريفير لعالم الاجتماع ، الامساك باكتشاف ، او على الاقل ، ببواكير حالة تحول للقيم المعنوية . ولكن تحول القيم الحربية القهقرى ، في معايير التذوق الشعبي ، لا يأتي الا بعد حروب لا يمكن التكفير عنها . ويتطابق هذا التحول مع التطلع العام لسلم طويل . ولقد شهد عام ١٨١٥ موقفا مشابها لهذا الموقف . ولكن الى متى يدوم هـذا التبدل في العقلية ، بعد أن ينقضي جيل الحروب وتذوي معـه مباشرة ذكريات الآلام والقسوة ؟ ويظهر التاريخ ان هـذا الهدوء مرتبط بطول الفترة التي يستغرقها استعواض الخسائر ويتطلبها النسيان .

* * *

وثمة ظاهرة أخرى نراها لدى بريفير . فان سمات التطور الحالية وجدت لديه منذ عام ١٩٢٥ : فقد اعلنت قصائده ظهور مذهب جديـد للمتعية[١] ولكن المتعية المطلوبة هذه المرة متعية انسانية مضادة لمتعيـة القرن الثامن عشر الارستوقراطية . لقد كان بريفير يلعن أولئك السادة الصغار القساة ، الغلاظ ، اعداء المسرات البسيطة والانسانية . ألم يكتب مرة « ان صوت الشعب من صوت الاله » .

يقوم بريفير بشرح تطلعه لشكل جديد من الحضارة ، لا يبنى على اساس الاجداب والتطلع الكئيب للفناء . الم يقل ذات يوم « لقـد آن

(١) المتعيه Hédonisme (مذهب المتعة) مذهب يقول بـأن اللـذة والسعادة هي الخير الاوحد أو الرئيسي في الحياة . مذهب قائل بأن كل نشاط اقتصادي قائم على ارضاء طبقات المجتمع وتحقيق أكثر ما يمكن من رغباته .

ــ المعربان ــ

الاوان لاستبعاد الادب المأساوي » • انه يحلم بمدينة لا يستند قوامها السياسي اطلاقا على سيطرة المؤسسات الهدامة •

ونجد ايضا لدى بريفير اشارة مبكرة الى تطلعات عصرنا ، عندما جعل بريفير من قضية المرأة قضية عامة • ان رجال الدين والدولة كانوا يناهضون المرأة لانها ما كانت تسمح لهم بتفضيل السعادة على الانتصار ، والرفاهية على القوة • فقد كتب يقول « ان كراهية النساء هي التي تولد الحروب » « ان اذلال النساء دلالة على الروح العدوانية » •

ويقول بريفير عن نفسه بكل تواضع « ما انا الا معدل تيار » • ولعله كان يريد بقوله هذا أن دوره استمالة الفكر المسيطر وطبعه بطابعه الحاد ، ليكون فيما بعد الجوهر الذي سيعيش في الذاكرة كتلك التقاليد اللفظية الازلية • والشعر هو ايضا ابتكار • فاذا كان افلاطون ، اكثر الرجال محافظة ، طرد من جمهوريته الشعراء المتوجين بأكاليل الزهور ، ذلك لانهم ، في نظره ، مصدر القلق ومبعث البدع • ان كل قصيدة كبيرة هي في نفس الوقت نقطة انطلاق ونقطة وصول ، لانها ، بنفس الوقت الذي تعبر فيه القصيدة عن كل التطلعات المعنوية والعاطفية ، تطرح المسائل السياسية الحقيقية كما يحس بها الشعب لا كما يحس بها المنظرون والطامحون • وانها من جهة أخرى تقتلع تلك الافكار من الروتين • انها تتنكر بشكل خاص لكل البديهيات وهذه هي فضيحتها الاساسية الحية •

الفصل العاشر

ضياع السّلم

ثلاثُ عُقد مُولِّدة للحرب

١ ـ عقدة ابراهيـم

ان اكثر ابحاث علم النفس الاجتماعي اظلاما هو ذلك البحث الخاص بالعلاقات بين الاجيال • ونجد أن مثل هذه العلاقات لـدى الحشرات الاجتماعية مسألة محلولة بشروط تكاثرها الخاصة وبحياتها القصيرة جدا • اذ يهيء الجيل القديم منها ولادة الجيل الحديث ويقوم بتغذية الشرانـق ونقلها • وما أن يتم الفقس حتى يختفي هذا الجيل القديم • بل قد يختفي قبل ذلك الحين • وينطبق ذلك على معظم الحشرات • ونجد أيضا عند هذه الحشرات الاجتماعية تقسيما مدهشا للعمل البيولوجي بين القلة الولودة ، اي الملكة الواحدة ، وبين العدد من الذكور الذين تركوا احياء ، (ولمدة تنتهي حتما بعد فترة التزاوج ، وبين جمهرة العاملات والمقاتلات وكلهن خنـاث •

عند الثدييات التي تعيش في جماعات عائلية ، وهـو شكل متقدم للقبيلة ذات النظام الابوي ، نجد أن التطور التدريجي المعتاد كان كمـا يلي : يقوم الذكور الذين هم في سن البلوغ بطرد الذكور المسنين بعد أن تنشب بينهم معارك مثيرة • ويجد هؤلاء الذكور المسنون المطرودون من مجتمع الاناث انفسهم ممنوعين من متابعة التناسل ، فيعيشون معزولين مفصولين عن المجموع كالخنازير البرية المسنة او كذكر الفقمة الذي يدور

حـول أسرته القديمة دون أن يكون بمقدوره الاقتراب منهـا • فالذين تعاقبوا بعده يقومون بالحراسة الجيدة •

* * *

يتفق علماء السلالات عموما على اعتبار بداية الانسانية ، بالمعنى الاجتماعي لهذه الكلمة ، مع تحريم مضاجعة المحارم • وكان هذا التحريم لاحقا لاكتشاف قدسية الابوة التي أدت لظهور « العائلة الابوية » • وينجم عن هذا نتيجة اساسية:لم يعد الذكور البالغون ، يزاحمون آباءهم، واصبح شبق الجيل الجديد ينصب على الجمـاعات المجـاورة ، بالغزو وبالاغتصاب ، بالشراء أو بالتبادل • وأصبحت الجماعات المجاورة هي المكلفة بتقديم الاناث لهؤلاء البالغين •

وهنـا نتيجة أخرى لتحريم مضاجعة المحارم : هـي تحول الروح العدوانية لدى الشباب لجهة الجماعات الخارجية • فلم يعد الآباء هـم المنافسون اطلاقا • ولم يعـد العنف موجها ضـد الجيل السابق لطرده والحلول محله ازاء نساء الجماعة • ان هذا الشبق نفسه هو الذي يدفعهم الى تهديد الجماعات المجاورة أو مهاجمتها لجعلها فرائس رغباتهم • ولقد تطور شكل الحرب عند البدائيين من الغارات والكمائن ، البدائل المتقدمة مـن طرق الصيد ، الى اشكال جديدة في التنظيم والتعاون في حـالات الهجوم أو الدفاع •

وسرعان ما اصبحت هـذه التدابير الجديدة ، فيما بعـد ، الركيزة المعنوية « للعدوان الموجه » للخارج • ان شعار « سوف لن تقتل أبدا » انما اصبح يعني « انك لن تقتل ابدا رجل قبيلتك أو عشيرتك » •

ان كل هذه الصيغ التي استقرت على طوال عصور ما قبل التاريخ وفي كل الحضارات التاريخية ، حول تنظيم القتل الجماعي ، ستبقى كلها دائرة حول هذا التمييز الاساسي •

* * *

ولم يكن تحريم مضاجعة المحارم كافيا ، لحل مشاكل العلاقات بين الاجيال المتعاقبة ، اذ لا زالت آثار المزاحمة القديمة باقية بشكل لاشعوري، تجعل العلاقات بـين الآباء والابناء ، حتى في أحسن ظروفها ، علاقـات

النقيضين • وحتى عند الثدييات ، التي تكلمنا عنها ، يظهر الآباء اهتمامهم الزائد بالصغار : يعتنون بهم ويلعبون معهم ويدافعون عنهم ايضا • ولكن عندما يكبر هؤلاء الصغار يتضاءل عطف الآباء نحو اولادهم ، وتزداد القساوة عليهم ويختلط شعور الآباء بالحسد مع عدم الثقة بأولادهم الى أن تتحول كل هذه المشاعر شيئا فشيئا الى التنافس والتقاتل •

وقد نظمت الاسرة ذات النظام الابوي خضوع الابناء للآباء ، فهم من الوجهة الاقتصادية خدم ومساعدون • وبما أن النزاعات تتقد بصورة خاصة ، بين الآباء والابناء الذين تتضاءل فيما بينهم فروق السن ، فالجد هو الذي يتولى عادة تربيتهم • وهذا هو التقليد الكونفوشيوسي السائد حتى يومنا هذا •

* * *

وعندما تنتظم الحياة السياسية تقوم المؤسسات التي توطدت اقدامها اكثر فأكثر ، بتقنين علاقات الاجيال وواجباتها • وبما أن السلطة في القبيلة وفي المدينة القديمة كانت من حق الشيوخ ، فانهم كانوا يمارسونها بتسلسل هو أقرب لاقطاع أرباب العائلة أو القبيلة •

وبما أن الحرب « قمة » الاعمال السياسية ، فان تسلسل الاعمار يظهر فيها اكثر وضوحا مما يظهر في غيرها • وكان الرومان أفضل شعوب العالم القديم في تقنين فن الحرب ، انهم يوزعون المقاتلين الى ثلاث فئات حسب اعمارهم ، الفئة الاكثر فتوة من بين هذه الفئات الثلاث هي أول من يشتبك مع الاعداء دائما • انهم يتلقون الصدمة الاولية ، وتبقى الفئتان الباقيتان في الاحتياط ، ولا تتدخلان الا اذا تعب الخصم من القتل • ان هذا هو اسلوب حكم الشيوخ في المجابهة وفي التسلسل العسكري الذي نجد سماته الاساسية في كل مكان •

* * *

كان جيل الابناء ، على الصعيد السياسي وعلى الصعيد الديني ، هو الجيل الذي يعمل على متابعة مهام الآباء • فهو الذي يرث اموالهم وسلطتهم • ويتطلب دور الابناء المقبل من آبائهم الاهتمام الكلي بتأهيلهم لاداء هذه المهام • ولكن قد يخلق ، دور الابناء المقبل ، هذا الحسد وعدم

الثقة لدى الآباء بأبنائهم لقلقهم وعـدم اطمئنانهم على تلك الممتلكات الروحية والمادية التي صنعت مجد الآباء وفخارهم عندمـا تسلم اليهم : ويتساءلون كيف سيستخدم القادة الجدد هذه المنجزات ؟ ربما يكون الابن هو الخلف الامين عليها ومـن المحتمل أيضا أن لا يكون كذلك . فالابن ــ كوسيلة يتبعها الجيل الجديد لاثبات وجوده امام الجيل القديم ــ قادر على خيانة مخططات هذا الجيل القديم . ولهذا ظهرت عبر التاريخ سلسلة من الاجراءات غايتها منع خروج الابناء على التقاليد اعتبارا من اليوم الذي يتسلمون فيه السلطة . وكل ما تهدف اليه مراسيم تقلـد السلطة هو أن تغرس في الابناء تلك المعتقدات وردود الفعل الملائمة التـي تصونهم ضد البدع وتقيدهم بالمسالك التقليدية . وكانت طقوس هذا التلقين تعتمد على أخذ المواثيق والعهود العلنية اثناء احتفالات التنصيب ، بعدم الحنث بها . وضد ما يسمى اليوم ، « بالانحرافات » .

وثمة ظاهرة أخرى قد تبدو وكأنها منفذ تصب منه الآلهة سخريتها ، وقد دفعهم خوفهم من جحود خلفائهم لهم الى اقسى النتائج وأشرسها . اما مصدر قلقهم هذه المرة فهـو : خوف الاب من عودة ابنه الامتثالي الـى اعتناق عقيدة السلف التي خرقها الاب . وقـد قاد تسلط فكـرة احتمال جحود الوريث المنتظر على افكار الكثير من الحكام الى اغتيال ، أو محاولة اغتيال ، خلفائهم . فكثير من العاهلين الذين كانوا وراء انشاء نظام جديد مثل فيليب المقدوني و « دوتي » (مؤسسي اسرة الهان) وايفان الرهيب وفيليب الثاني وسليمان الحكيم وبطرس الاكبر وروا ــ سرجانت(١) ، قد دفعهم القلق من معارضة ورثتهم لهم فأرادوا لهم الموت أو هم استطاعـوا اعدامهم فعلا . ونجد هذه الظاهرة نفسها لدى العظماء اصحاب السلطة الاستبدادية : هكذا كان كاتون لوسانسور (٢) الذي قتل ولده . وهكذا كان هتلر الذي عاقب خلفاءه الذين اختارهم بنفسه بوحشية ، مثل روهيم

---

(١) روا ــ سرجانت : لقب فريدريك غليوم الاول ملك بروسيا (١٧١٣ ــ ١٧٤٠) .

(٢) كاتون لوسانسور رجل دولة روماني ــ قاتل هنيبال وعمره ١٧ عاما . انتخب حاكما عام ١٨٤ ق.م قاوم الاسراف والتبذير كان قاسيا جدا على نفسه وعلى كل المحيطين به وبرم بالناس اجمعين .
ــ المعربان ــ

ومن ثم هيس الذي لم يجد سلامته الا بالفرار .

وتقدم لنا قصص التوراة أمثلة مماثلة . فقد كانت ردة فعل أول ملك لاسرائيل الذي أسس النظام الملكي (هذا الذي كان يجب أن تتمثل فيه كل الفضائل ليكون الامثولة لانه المختار من القدرة الازلية) هي محاولته قتل ابنه البكر . ولم يمنعه عن قتله الا النبي صموئيل وصخب الشعب .

* * *

وليس اعدام الوريث عملا سياسيا وقائيا فقط . ذلك لانه يختلط بعوامل غامضة . فيجد في العقلية القديمة أن كل عملية انشائية كانت ترافق بتقديهم قربان يتناسب كبره مع عظمة العمل ورفعته . وكذلك يتناسب مع مقدار ما يحيط كل شخصية ، مثل شخصيات ايفان الرهيب وسليمان الحكيم ، من عنف رهيب (وقد تحدث المؤرخون كثيرا عن شدة التمزق والندم الذي كان يعانيه هؤلاء بعد كل عملية تنفيذ) فقد كان تقديم قرابين الشفاعة المرتفعة الثمن هو المسيطر على الفكر السلفي المبهم ، وذلك لتخليد العمل وتخليد مجد بانيه . وكذلك ايضا لتخليد ذكر الآلهة التي أوحت بادائه . وكان هذا هو شأن اليونانيين ايضا (ويتراءى لنا أن هؤلاء أكثر تعقلا من بقية الشعوب القديمة) اذ كانوا ، مع كل عمل انشائي يقومون به ، يقدمون الاضاحي للآلهة والى هؤلاء الذين يؤسسون المدن ، (لمن كان منهم فقط يستحق مثل هذا التكريم) كما لو كان هؤلاء هم الآلهة . ولقد اتبع هذا التقليد كثيرا عبر التاريخ ، ـ ولدينا مثال رومولوس[1] الذي ضحى بأخيه ريموس على الاسوار التي لم تكد تقام لتكون فيما بعد اسوار روما ـ لقد كان الباعث لسلوك كبار المبتدعين السياسيين والاجتماعيين هذا المسلك هو اعتقادهم بأن دم القرابين سوف يضمن ديمومة عملهم . ألم يكن هتلر ، جلاد عصرنا الاكبر ، يصرح أنه بمذابحه الضخمة سوف يضمن بقاء رايخه الثالث « لألف سنة » .

---

(١) رومولوس : مؤسس روما الاسطوري واول ملوكها (٧٥٣ ـ ٧١٥ ق.م) يقال ان ذئبة غذته واخاه التوأم ريموس . نشأ بطلا مغوارا واستعان بصعاليك القوم في القبض على زمام الامور .

اننا نعلم الآن من كتابات مالينوفسكي[1] وآخرين غيره من علماء السلالات ، ان الآليات الفيسيولوجية للانسال لدى الانسان البدائي كما لدى الحيوان مجهولة . ولكنهم كانوا مجمعين على الاعتقاد أن النسل هو نتاج عملية تدخل قدرة روحية أو سحرية بشكل مباشر . لقد كانت القبائل ذات النظام الابوي ، والتي انتقلت كل معتقداتنا الينا منها ، بالرغم من أن ظاهرة الانسال كانت لديها أوضح من غيرها ، كانت القبائل تعتقد أن الاخصاب ، وطول بقاء المخلوقات المتوالدة وبقاء النشء الجديد قطعانا كانوا أم محاصيل زراعية ليست الا منحا مجانية من العناية الالهية .

ويقول التقليد القديم بأن الآلهة تريد نصيبها من هذه الهبات . ويقدم هذا النصيب لها عن طريق القرابين . فالآلهة هي التي يجب أن يعطى لها نصيبها أولا ، أي تؤخذ القرابين من أول نتاج . ولذلك خصصت بواكيره للآلهة سواء للشكر أو المشاركة الرمزية . اننا لا نستطيع أن تتصور بسهولة المكانة التي كانت تحتلها هذه القرابين الدامية ، والتي يعود للمسيحية الفضل الكبير بوضع نهاية لها . ولم تكن الاكروبول والمعابد الرخامية الشامخة الا مذابح تنتشر على هيكلها الرخامي المنمق ، الاحشاء المتفحمة .

وبالرغم من أن تقديم الحيوانات كقرابين ، أمر تعافه النفوس ، فانه يجري في طقوس دينية كأنها احتفال بالمجزرة ، ترتاح لها بعض الديانات ، حتى الحديثة منها ، وتعتبرها تقدما لان اساسها الاسطوري يعود لقصة تضحية ابراهيم . ولان كل المدنيات كانت تضع ، وهي في عهودها المظلمة ، تقليد تقديم القرابين البشرية .

وكان لا بد لهذه العادة ، التي عمت كل العهود البربرية ، من أن تترك

---

(1) مالينوفسكي برونيسلوف (١٨٨٤ ـ ١٩٤٢) انتربولوجي بريطاني من اصل بولندي اشتهر بدراسة الشعوب البدائية في جزر التروبرياند الغربية من غينيا الجديدة ويعتبر احد مؤسسي المدرسة الوظيفية في الانتروبولوجيا الاجتماعية . اهم كتبه (الجريمة والعرف في المجتمع المتوحش (١٩٢٦) والحياة الجنسية عند المتوحشين في ش. غ ميلانيزيا ١٩٢٩) .

ـ المعربان ـ

آثار ممارستها ، ولو كانت قليلة ، في العهود التاريخية • فالقرابين البشرية ، التي كانت تقدم للآلهة ، للعباقرة أو لارواح الاجداد ، سواء بقصد التكفير ام لطلب الشفاعة ، انما كانت تختفي وراء التضحية بالحيوان • ولكنها بقيت واضحة بشكل باهر في ألعاب المتصارعين ، العادة الكئيبة التي ورثها الرومان واصبحت اجراء اجباريا يرافق كل انتصار لهم على خصومهم بالاجهاز عليهم بالضربة المميتة •

وكذلك أيضا نشاهد عودة هذه العادة ، في المناسبات الخطيرة • كما هو الحال عند حدوث الانهيار الروحي المتولد من الكرب والخوف • وعندما هدد هانيبال روما مباشرة ، اتخذ مجلس الشيوخ قرارا بدفن عدد من الضحايا وهم احياء • والقصة التي ذكرتها التوراة عن ابنة جفته(١) معروفة ايضا • وفي ايامنا هذه تجد الشعوب فجأة ، في بعض المناسبات العصيبة ، وخاصة ما كان يتعلق منها بحالات الخوف من الحصار ، كل المبررات الملحة لعودتها المعقلية البدائية • فتنقاد لاقامة المذابح الرمزية والاستعطافية معا • وتشارك بشكل غامض في احداث بعض الوقائع مثل مذابح سبتمبر (ايلول) بعض الاطراف نتيجة ردود فعل من هذا النوع • ويعود ذلك الى ظروف ونفسية أولئك الذين امروا بها ونفذوها • ويعني هذا ضرورة ابراز عامل التضحية الى جانب كل ذريعة ويعلن عنها مثل « تنفيذ الاعدام » أو « الاخذ بالثأر » •

ان اكبر القصص الحية المعروفة عن القرابين البشرية في احدى الحضارات المتقدمة تقنيا ، هي العادة القرطاجية القائلة باحراق الاولاد كقرابين للاله الاكبر مولوخ حامي المدينة • وهذا هو الشكل العام للتطبيق العملي لتضحية ابراهيم على نطاق واسع • ولا يتعلق الامر هنا بتقديم دم

---

(١) جفتة احد ملوك اسرائيل . وجاء في التوراة انه كان ابنا غير شرعي ولهذا طردته الاسرة من المنزل فترأس عصابة من المغامرين . وعندما استنجد به قومه ضد العمونيين وقبل رجاءهم على ان يقدم للالهة اول شخص يدخل عليه مهنئا بالنصر . وان اول الداخلين عليه فعلا ابنته الوحيدة فقتلها كارها خلد الكاتب لوكاس دوليد هذه الاسطورة الدينية فكتب (ابنة جفتة تذهب للقاء ابيها) و (تضحية جفتة) .

ـ المعربان

السجناء العبيد « الخسيس » ولكن القرابين هنا ، حيوات اكثر قيمة ورفعة تختار من بين اسر شيوخ المدينة • ولقد استمر التقيد بهذه الفدية الرومانية مدة طويلة ، حتى ذلك اليوم الذي اكتشف فيه ، تحت فناء احد المعابد في قرطاجة ، آلاف القوارير المليئة بعظام جثث اطفال متكلسة •

* * *

قد يكون تقديم القرابين ، هو ايضا رمز احترام الرجال وارتباطهم بالقوى العلوية ، آلهة ومعتقدات ، او برؤسائهم • وفي هذه الحالة تزداد التضحية عظمة وقيمة كلما كانت تقع على اناس ارفع عزة ومقاما • اذ بينما يعدم السجناء بالآلاف ، عند قدماء المكسيكيين ، يجري اختيار القرابين الممتازة ، من بين المتطوعين • وهم غالبا ما يكونون من صفوة القوم •

اننا ننسى ، عندما نؤكد لاحدنا مشاعر اخلاصنا له ، ان هذا الاسلوب مستمد من أحد أشد طقوس بعض الديانات المنقرضة قسوة • حتى في عهد روما الامبراطورية كان رجال الحاشية ينذرون فداء لحياة اميرهم اذا ما تعرض لخطر أو مرض وبيل • أي يقدمون انفسهم فداء للآلهة مقابل شفائه • وبالرغم من أن هذه الطقوس كانت رمزية منذ قرون طويلة ، اذ تستبدل الضحية البشرية بذبح حيوان في اللحظة الاخيرة (كما جرى ذلك مع اسحق [1]) فان هذا لم يمنع كاليجولا[2] مرة من ارغام افراد حاشيته المخلصين على وفاء نذورهم وفق الطقوس القديمة • تسلية منه واحتفالا بنقاهته •

* * *

ان اكثر القرابين البشرية شهرة ، بسبب اسطوريتها ، بين كل الديانات التي تدعو للتوحيد ، هي « تضحية ابراهيم » • فقد ورد في التوراة عدم

(١) جاء في معظم كتب التفسير ان الذبيح كان اسماعيل وليس اسحق. (انظر سورة الصافات الآيات ١٠٣ الى ١١٢) .

(٢) كاليجولا (١٢ – ٤١) امبرطور روماني (٣٧ – ٤١) اسمه الحقيقي جايوس قيصر جرامانيكوس اتصف بالقسوة والاستبداد العنيف ويروى انه اعرب عن اسفه لانه ليس للناس جميعا رقبة واحدة يمكن اطاحتها بضربة واحدة . وقيل انه عين حصانه عضوا في السناتو .

تردد النبي دقيقة واحدة في ذبح ولده الواحد والمحبوب عندما طلبت القدرة الازلية حياته • وفي آخر لحظة ، عندما ارتفعت السكين فوق عنق الغلام افتداه ملاك بكبش • لذلك اقترحنا هذا العنوان النوعي « عقدة ابراهيم » لنشير الى تلك المشاعر المظلمة التي نجد جذورها ، حسب مفهوم يونغ[1] في العقلية البدائية النموذجية •

وتتصل هذه العقدة بعدة منابع • فقد يكون القربان المقدم باكورة الانتاج لانه أول المولودين • وتطالب التوراة باستمرار اتباع هذا التقليد ولكن بطريقة ملطفة • فهي تأمر بتضحية أول مولود «باكورة انتاج قوتك» قربانا للقدرة الازلية أي قربانا للمعبد • وشمل ذلك التقليد تقديم كل بواكير الانتاج القطعاني والنباتي •

وقد يكون القربان المقدم أيضا « التضحية بالمزاحم » فأول مولود ، في الحضارات ذات النظام الابوي خاصة والتي يتم فيها التزاوج في سن البلوغ وفي السن التي تكاد تقارب سن الاب • فان هذا المولود الجديد لا يعتبر فقط مبعث الفرح والفخار بل يعتبر ايضا خلفا ومزاحما • اذ سرعان ما يدخل مع الاب في نزاع خطير على الرجولة والسلطة • وفي هذا المجال نجد مأساة توراتية اخرى : ثورة ابسلون[2] ضد ابيه الملك داود • ويقول فرويد : أن أول شعور عدواني لدى الطفل يكون في ثورته ضد ابيه الاوديبية[3] في معظمها ، ولكن سرعان ما تخف حدة هذه الثورة مع تقدم الاب في الشيخوخة وتقدم الابن في السن فيحل التفاهم بينهما محل

---

(١) يونغ ، كارل جوستاف (١٨٧٥ — ١٩٦١) فيلسوف سويسري وطبيب امراض عقلية اسس مدرسة علم النفس التحليلي بعد انفصاله عن فرويد ١٩١٣ • ونشرت مذكراته عام ١٩٦٣ •

(٢) او «ابشالوم ابن داود النبي عصي اباه وقاتله وانهزم ويقال انه فيما هو هارب مر تحت شجرة ملتفة الاغصان فعلق شعره بها وقتل •

(٣) نسبة لاوديب وهو في الاساطير اليونانية ، بطل طيبه قتل أباه لايوس وتزوج أمه بوكاستا دون علم منه فلما عرف الحقيقة فيما بعد فقا عينه وانتحرت امه وظل هو هائما على وجهه يكفر عن خطيئته • عالج سوفوكليس هذه الاسطورة في ثلاث مسرحيات : انتجونا واوديب الملك واوديب في كولونا •

— المعربان —

الضغينة • لقد كان كونفوشيوس ، كما رأينا ، يعالج هذه الحالة ، باعطاء الدور الاساسي في تربية الاطفال للجد •

* * *

لقد اصبحت ، عقدة ابراهيم ، تقريبا من النماذج الاصيلة البالية ، فمع تقدم المدنية تلطفت العادات وتطورت حقوق الاب على الابناء ومالت مظاهر هذه العقدة الى الاختفاء علــى المستوى الفردي • أي أن شعور التعاطف قد حل شيئا فشيئا محل شعور التنافس والحسد وعدم الثقــة والبغضاء • وتسامت في الحياة العائلية مشاعر التعاون والحماية فــوق المشاعر التهديمية أكثر فأكثر •

ولكن عقدة ابراهيم ، التي اختفت على المستوى الفردي ، اعتصمت ثم أينعت في الحياة الجماعية • وقد يكون من الصعب جدا أن نكشف عنها أو نحرك المسؤولية المعنوية أو القضائية لنصبها على أولئك الذين يثيرونها• وعلى كل حال ، فان هذه العقدة تظهر في الحياة الجماعية وهي أقوى مــا تكون عندما ينطلق الرعب والدفع العدواني الجماعي من اسارهما • فلم تعد الدوافع الفردية لعقدة ابراهيم رائجة اطلاقا ، وحلت الدوافع الجماعية محل الدوافع الفردية بشكل واسع •ولهذا نرى من جديد عودة الحالة التي كانت تهيمن فيها روح التضحية بالاولاد وفق الطقوس القديمة • ولكن بفعالية جماعية تفوق بكثير ما كانت عليه آنفا •

ان الاسباب القديمة المبررة لعقدة ابراهيم لم تعد مقبولة في المجتمعات المتمدنة • فلا بد من تجاوز تلك الاسباب والتسامي عنها بدوافع النظام الجماعي • وان التبريرات السياسية هي التي ضخمت المآسي الابويــة (الملكية) في العهود الحديثة والتي عددناها فيما سبق ، وينطبق ذلك حتى لو كانت تلك المآسي قائمة على النفور والكراهية الشخصية • ان الشراسة التي زخرت بها تلك المآسي اصبحت قساوة نموذجية ، فقد صرح فرانسوا الاول[1] ، المعروف بتسامحه مع اقربائه على جميع المستويات ، صرح في

---

(1) فرانسوا الاول (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) حكم فرنسا من عام ١٥١٥ ـ ١٥٤٧ .

احد الأيام أنه لو اعتنق أحد من أقرب الأقرباء اليه الهرطقة البروتستانية فانه « سيقدمه بيده قربانا للمولى » • ان العقائد تتبدل ولكنها تجد دوما عقدة ابراهيم في خدمتها • ان ذاك الذي كان يبتسم باشفاق على ذكر أولئك الذين قتلوا أنفسهم لقاء جملة من أقوال القديس أوغسطين[1] نراه على استعداد الآن ليقتل نفسه في سبيل عقيدة أكثر جدة • وقد قال تاليران : « ان الخيانة ، موضوع زمن » والشراسة كذلك •

وقد بدلت « عقدة ابراهيم » ضحاياه ايضا كما بدلت محاكماتها التبريرية • فبعد أن كانت تقدم هذه الضحايا من المولودين حديثا ومن الابناء ، استبدلتهم بقتل الاطفال الآجل ، ويتم هذا بتضحية الذكور الشبان في الحروب ، أهلية كانت أم خارجية ، ويؤدي الرؤساء فيها دور الآباء البائد • واذا ما تعمقنا في التفكير بهذا الموضوع نجد أكبر الاسماء التاريخية والشخصيات التي تمسكت بلعب دور حماة الشعوب ، هي التي عززت المزايدة في التضحية ، وترأست أكبر المذابح اتقادا • وحققت اشباع رغبتها بتضحيتها للأبناء في سبيل قضية مغرية • ذلك هو شكل عقدة ابراهيم الازلي •

ان التاريخ نهم لا يشبع من الضحايا ، ولن يتغير فيه هذا الشره كثيرا بشكل عام • وتجري الامور كما لو كان كل جيل يعنى بتوريث الجيل الذي يليه ، صندوقا مليئا بنزاعات المستقبل ، مثل صندوق باندورا[2] ويورثه أيضا كل معدات المذابح المقبلة ، وكل البنى الاجتماعية المولدة لاي عدوان • اننا نسلم خلفاءنا ، في ايامنا هذه ، نصيبا من التضخم السكاني

---

(١) القديس أوغسطين (٣٥٣ ــ ٤٣٠) من كبار رجال الدين المسيحي عني كثيرا بالتربية والتعليم واعتمد على الخطابة كوسيلة للتعبير عن الافكار والنضال في سبيل الحقيقة .

(٢) باندورا أول امرأة يونانية وجدت على الارض (كما تقول الاساطير) ارسلها زيوس لينتقم بها من الانسان ومن بروميثيوس الذي حمل النار للبشر دون موافقته ، وكانت تحمل معها صندوقا يضم كل الشرور والآثام لتفتحه عند نزولها الى الارض لتخرج منه هذه الشرور وتحيط بالبشر . ولم يتبق في الصندوق بعد فتحه سوى شيء واحد لم يخرج الى الناس وهو الامل الذي يخفف الكروب والاحزان .

ــ المعربان ــ

الذي اذا استمر سوف ينشر وبأقرب وقت وعلى مقياس دولـي هيستريا شعور المحاصرين • ولو أجرينا التقاص في حساب مـا نملك من وسائل التدمير لوجدنا انفسنا وقد تجاوزنا كل حد • اننا نورث خلفاءنا القنبلة الذرية ونعلمهم طريقة استخدامها ، لا طريقة تجنبها ، ونحن في عصر يهتم بحماية الطفولة ، وبالحد من وفيات الاطفال المبكرة • انـا نجد أنفسنا مسلوبي الارادة مستسلمين لقدرية مريعة ، ننتظر ، واذرعنا مدلاة تتأرجح، اضخم عملية تقتيل آجل للطفولة في كل العصور •

٢ - عقدة كبش الفداء

العقليـات

ان الميزة الرئيسية للحضارات المختلفة المتعاقبة ، أو الحضارات التي وجدت معا عبر التاريخ الطويل هي عقليتها • وتشتمل هذه العقلية على ثلاثة أنواع رئيسية من الافكار والمفاهيم • ويرتبط النوع الاول بالطريقة التي يتصور الناس فيهـا الكون الذي يحيط بهـم ، فيحاولون تفسيره وتحديد القوى والعلاقات التي يشكل هذا الكون مسرحا لها • وهـذا النوع هو علم الكونيات أو علم النواميس العامة بالمعنى الواسع لهـذه الكلمـة •

أما النوع الثاني فهـو النوع الذي يجمع كـل المعارف والطرائق والعمليات التي يستطيع الانسان بواسطتها ، أو يعتقد ان في وسعه التأثير والفعل في العالم المحيط به ، سواء في الاشياء الجامدة أو الحية من نباتات وحيوانات وكائنات بشرية • وهذا النوع هو التقنية • بيد أن الانسان ليس رجـلا بدائيا[1] فقط • فقـد حاول الانسان دوما عقلنة أعماله • وتتأثر التقنية أيضا والى حد كبير بالعلم والمحاكمة وبالنظريات والعقائد

(١) Homo Faber اصطلاح استخدمه برجسون للدلالة علـى الرجل البدائي الذي وجد في الطبيعة . وصنـع بيديـه القطـع المعدنية للدفاع عن حياته . ان نشاط هذا الانسان ، بالنسبة لبرجسون هو مصدر التوسع الفكري الذي يمكن ان يكون أساسا للمدرسة النفعية التي تبيح استخدام العنف والقسوة .
ــ المعربان ــ

المرتبطة بها سواء أكانت صحيحة أم لا • ان السحر هو تقنية كاذبة •

وتأتي أخيرا مجموعة التصورات التي يمكن تسميتها بصورة عامة جدا بالتصورات الاخلاقية ، وهي المعتقدات والقواعد والقيم التي تتحكم بمجال المقدسات • وتنظم هذه التصورات العلاقات مع بقية البشر ، ومع القوى العلوية ، سواء أكانت هذه القوى دينية ام اجتماعية : العبادات ، والقوانين ، والعادات ، والمفاهيم ، التي تحكم التسلسل الاجتماعي • وباختصار كل ما يحكم عمل الانسان ككائن اجتماعي ملتزم بالقوانين وخاضع للفرائض ، ومعرض للجزاءات •

وتشكل العقلية مجموعا ثابتا الى أقصى الحدود • ولا يمكن أن نبدل منها شيئا بارادتنا • اذ تشكل الافكار والمعتقدات التي تؤلفها بناء منطقيا • وهو من دون شك ليس بناء منطقيا جامدا على طول الخط ، ولكن كل هذه المركبات تقوم الواحدة منها برهانا على الاخرى ، ويرتبط بعضها ببعض بعلاقات من الفهم والاستنتاج •

العقليات البدائية :

كان الاغريقيون القدماء يملكون الحس الواضح في التفريق والتمييز بين العقليات • وكانوا يصنفون البشرية الى أنواع ثلاثة ، أولا ــ الاغريقيون ، ثم البرابرة الذين كانوا يعيشون في العصر الاغريقي ما وراء محيط البحر الابيض المتوسط ، وأخيرا الحضارات الشرقية التي كان اليونانيون ــ اللاتينيون يعرفون منها مصر وفارس فقط • وقد ترك المؤلفون القدماء من كتاب وجغرافيين ومؤرخين تحليلات صحيحة الى حد ما عن مركبات هاتين العقليتين ، وأشاروا الى الفروق القائمة فيما بينها وبين عقليتهم •

ولكن الانتباه تحول من جديد الى العقليات المختلفة مع بدء الحركة الكبرى للاكتشافات البحرية التي تمت في القرن السادس عشر • وتعود الوصوف المنهجية الاولى لنفسية الحضارات الموغلة في القدم ، كحضارة المكسيك والبيرو ، أو الحضارات البدائية كحضارات قبائل الهنود الحمر وجزر الكاريبي ، ولقبائل منطقة الامازون ، تعود كل هذه الوصوف الى هذا العصر • وأضاف القرن الثامن عشر الى هذه الحضارات حضارات

شعوب اوقيانوسيا وحضارات بعض جزر المحيط الهادي ، كما أضاف القرن التاسع عشر حضارات أفريقيا السوداء . وأصبحت كل المواد مكتملة لاجراء مقارنة انبثق عنها علم العروق الحديث ، لوضع نظرية عامة عن العقلية البدائية ، مع مؤلفات جيمس فريزر وليفي بروهل ومالينوفسكي الخ ... وتعتبر هذه المؤلفات اليوم مؤلفات « تقليدية » .

وقد ابرز جيمس فريزر اننا نصادف نماذج المحاكمات وردود الافعال ذاتها في كل المجتمعات البدائية ، مهما كانت العصور والقارات والاجناس . وحاول بروهل تحديد خصائص المنطق والفكر البدائيين ، وانواعهما ، وانماط محاكماتهما . ومنذ ذلك الوقت ، تمت أعمال أخرى عمقت هذه المعطيات وأغنتها . ومن بين هذه الاعمال الدراسات الرائعة التي قدمها جرانيه[1] عن الفكر الصيني وجذوره .

مطابقة (٢) العقليات

ينجم التقدم التقني وينتج عن التراكم . فاختراع طرق جديدة أكثر تقدما وكمالا ، وأشد فعالية لا يبطل الطرق القديمة . اذ تضاف الطرق الجديدة الى الطرق القديمة ، لكن القديمة تبقى صالحة للعمل . ولنضرب مثلا على ذلك اختراع آلات لصنع الاحذية . فاختراعها لا يبطل مفعول الطرق القديمة للحذاء الصانع ، بل يبقي هذه الطرق الى جانب الآلات الحديثة .

ولكن الامر لا ينطبق على الموضوعات الروحية ، وعلى علم الكونيات . فظهور نظريات جديدة أشمل وأكثر ملاءمة للوقائع يستبعد النظريات السابقة ويعتبرها نظريات بالية .

وفي مجال العقليات الروحية تطرد المعتقدات الجديدة المعتقدات التي سبقتها بقوة أكبر . وتحل محلها حلولا تاما في هذه النقاط . ويتضمن هذا التحول في العقلية اعتناق قيم جديدة . ويتلخص في الجملة التي قيلت أثناء

---

(١) جرانيه Granet رسام فرنسي يعتبر رائد مذهب الانطباعية في الرسم .

(٢) Stratification ـ مطابقة أو تفريغ أو تنضيد .
ـ المعربان ـ

تعميد كلوفيس : « احرق ما عبدته ، واعبد ما أحرقته » .

أمـا فيمـا يتعلق بالتشويهات الروحية والتبدلات الطارئة علـى المعتقدات ، فمن الصعوبة بمكان الحديث عـن ابتكار معين . فالخلق الفكري لا يستهدف في هذه الحالة القيم التي كانت قائمة فيما مضى ، بل أنه يستهدف خلق مسوغات جديدة لتبرير التحولات الطارئة على لائحة القيم.والمثال على ذلك ان جيلنا عاصر ثورة عميقة في الاخلاق والقوانين هي تقدم المرأة . وهذه الظاهرة ذات أهمية كبرى لانها تنطبق علـى نصف الجنس البشري الذي تغير وضعه القانوني والاخلاقي تغيرا تاما . وهذه الظاهرة هي من الشمول والعمق بحيث تشكل في علم الاجتماع ما يوازي تحولا بيولوجيا . ومع ذلك فقد حدثت هذه الظاهرة أمام أعيننا .

ولا يعني حلول المعتقدات الجديدة محـل القديمة ان المعتقدات القديمة قضي عليها تماما ، او انها زالت من الوجود ، مع أن هذا التبديل يتم أمامنا مع تطبيق قوانين جديدة وانشاء مؤسسات مستجدة . فـلا شعورنا يشبه أرضا ترسب الطمي فيها ، فتطابقت فيه واختفت في اعماقه آثار العصور الجيولوجية القديمة .

ان عقلية العصر القديم ، كالعقليات التي تلتها كائنة في اعماق الانسان ومهيئة للانبعاث من جديد . فقد يتخذ الطفل عفويا مواقف الرجل البدائي ومحاكماته . كما تسبب بعض الامراض ، وضعف الملكات العقلية نتائج مماثلـة .

ولكن بعض الاحداث الجماعية هـي التي تبدل بصورة خاصـة وفجائية عقلية جماعات بأكملها ، كما أن بعض الاضطرابات العميقة تثير اندفاعات جماعية . وتفجر عندئـذ الطبقة الرقيقة للاضافات الحضارية ، واخلاقياتها الرفيعة وتدفع الانعكاسات الموغلة في القدم الـى الظهور . وهناك لدى كل الرجال عقد اجتماعية حقيقية ، الى جانب العقد الفردية ، التي أحدثتها الظروف الخاصة بطفولتهم .

وهذه العقد (« كعقدة ابراهيم ») التي حللناها في الصفحات السابقة هي آثار عقليات قديمة وانعكاسات ، وانماط سلوك تتطابق معها ، وهي آثار الحياة الاجتماعية والقيم ، والتسلسل البدائي او القديم . وكانت كل

هذه العقد قد دفعت الى أعماق اللاشعور الجماعي ، فكمنت فيه ، وهي تعيش حياة جنينية في لاشعور كل فرد •

المسؤولية والذنب

ان طريقة ادراك المسؤولية وانزال القصاص بالمذنب هي احدى الخصائص المميزة التي تفرق بصورة جلية بين العقليات المتنوعة في مراحل مختلفة من الحياة الاجتماعية •

وقد تعودنا في هذين المجالين على حلول عقلانية وفردية في الوقت ذاته • فقوانيننا لا تعاقب الا على الجريمة التي ارتكبها فاعلها بصورة مباشرة • وعلى العكس نجد أن القانون البدائي يمزج بين العقوبة المدنية والعقوبة الجنائية • ولكن « الاتجاه الحضاري » يميل الى تضييق مجال العقوبة الزجرية كما لاحظ دوركهايم والى توسيع مجال العقوبة الاصلاحية •

غير أن العقلنة المتزايدة للمسؤولية أمر حديث • وتختلف اختلافا تاما عن المفاهيم في مجالات العقلية البدائية والعقلية القديمة ، اللتين سادتا فترة طويلة في المؤسسات • ونرى ظهور هذه المفاهيم من جديد بصورة منتظمة ، سواء خلال الاضطرابات النفسية الفردية بشكل نمو مفرط لمشاعر الاحساس بالاثم ، أو عندما تثور الاضطرابات الاجتماعية وتحدث زخما جماعيا • وان الحياة الاجتماعية هي دوما والى حد ما أوهام يتقاسمها أفراد المجتمع • غير أن هذا الطابع التخيلي لا يظهر بشكله الحاد الا في أوقات الازمات •

مسؤولية السحر والشعوذة

من النادر ان يعتبر المرض والموت ، والانفعالات العقلية ـ في أكثر أشكال العقلية البدائية شيوعا ـ حوادث طبيعية لانها مذهلة بصورة خاصة • وتعزى عادة الى الرقى المؤذية • ونجد حتى يومنا هذا أن معظم المجتمعات الافريقية تعيش في وسواس جرائم السحر والشعوذة •

ويستمد الساحر أهميته من كونه في مركز المذنب السحري • فهو يحمي أفراد المجتمعات المؤمنة بالسحر والسحرة من أذى هذه الجريمة من جهة ، ومن جهة أخرى يوزع الحجب والتمائم والتعاويذ التي تحمي

وتصون من هذه الجرائم • وينظم الساحر مراسم شفاء المرضى ، هـذه المراسم التي تهدف الى فك السحر ، « وأعمال الرصد » الضارة • ويقوم الساحر في الاحتفالات المخصصة لهذا الغرض بطرد الارواح الشريرة التي سكنت أجساد أفراد هذه المجتمعات بصورة عفوية ، أو تتيجة لاثر رقية مؤذيـة •

وان أخطر جانب في وظيفة الساحر هي أنه يتمتع بسلطة التحري عن مرتكبي الجرائم السحرية وتحديدهم • وقد وصف المهتمون بالشؤون الافريقية مرارا هذه المؤتمرات المرعبة التي يجتمع فيها أفراد القبيلة ليلا ، وهم فريسة لفزع جماعي تثيره المسكرات ، والرقصات ، والزمجرات ، وهم ينتظرون وسط الفزع والرعب انقضاض الساحر على المجرم الذي سيعاقب فورا وسط جو من الشعور بالارتياح ، والاحساس العام بالخلاص •

وتترك هذه الاشكال التي هي أكثر ما تكون بدائية وشراسة من أشكال السحر آثارا في عقول أكثر الناس تمدينا • غير أن التعبير عن أثرها يتخذ مظهرا مهذبا ، ومتباينا • ويدخل فيها أيضا نوع من تقسيم العمل • وما زالت هنالك حتى يومنا هذا مهن عديدة في أكبر عواصم العالم مخصصة لتهدئـة الخوف مـن المستقبل ، والاتصال بأرواح الآبـاء والاجداد ، والتخليص من الاضطراب ، وتعذيب الضمير ، ولتهدئة القلق والمخاوف • فاللواتي يكشفن المستقبل بواسطة أوراق اللعب ، والعرافات ، والذين يستحضرون ارواح الموتى ، والمنومون المغناطيسيون ، ان كل هؤلاء هم الاحفاد المتواضعون للدلفيات(1) والعرافات • وتتجاوب وظائفهم الالهية ، واستخدامهم لاعمال السحر والشعوذة مع حاجة كائنة في النفس البشرية ، وخاصة عندما تتعرض للاضطراب بسبب الاحزان وسوء الحظ •

والمسؤولية السحرية مسؤولية فردية بصورة خاصة ، تقع على كاشفي الحظ ، وعلى كتبة الحجب ، والرقى أو على السحرة الذين ساعدوهم في ذلك • ونحن هنا امام انتهاك مباشر ، وجريمة ترتكب ضد شخص أو عدة

---

(1) نسبة لدلفيه (نبية تجترح المعجزات باسم ابولون في معبد دلف)
ـ المعربان ـ

أشخاص مع الاستعانة بالسحر والشعوذة ، وهي جريمة تتطلب معاقبة فاعلهـا .

المسؤولية الروحيـة

تظهر التوراة ، وهي وثيقة رائعة من وثائق علم الاجناس الانتقال من المسؤولية السحرية الى المسؤولية الروحية . وكانت المسؤولية السحرية تحتل المكان الاول في الوسط الذي ولدت فيه ، وغالبا ما لعبت أيضا دور الاداة الحكومية أيضا ، ثم ابعدت تدريجيا الى مرتبة النشاط السري ، ومنع هذا النشاط فيما بعد منعا باتا . وقد قال الكتاب الاخير من كتب التوراة ما يلي : « لـن تتـرك ساحرة تعيش » . وأدى التنفيذ من كتب لهذا القول ، في القرن السادس عشر ، ابان عصر النهضة الى احراق مائة ألف تعيسة في المانيا فقط . ويفسر راشي الاكثر تسامحا هذا القول على الشكل التالي : « لن تعطي للساحرة وسائل الحياة والوجود بأن تدفع لها ثمنا لنشاطاتها الممنوعة » .

والمسؤولية الروحية هي المسؤولية التي تتفرع أساسا مـن ايذاء المقدسات ومخالفة المحرمات . ولكنها تتطابق مع عقلية أكثر تعقيدا مـن العقلية السابقة ، كما تتباين آثارها بصورة أكبر .

وتتطلب المسؤولية الروحية ، قبل كـل شيء ، التحديد الواضح للحرمات التي تحميها . وهذا يتطلب وجود تشريع حقيقي واقعي ، كمـا ينطبق الامر ذاته على مجال المقدسات التي يطبق عليها هذا التشريع . ولهذا فاننا نحتاج على الاقل الى خطوط أساسية لعلم لاهوت حقيقي . وينبغي أن تكون مفاهيم الالحاد ، وتدنيس المقدسات ، والذنوب التي تبقى غير واضحة المعالم ومتحركة في الديانة الوثنية ذاتها ، محدودة بصورة واضحة .

ان المسؤولية الروحية مسؤولية مزدوجة بأسلوبها . فمن جهة تنطبق بصورة فردية على مرتكب المخالفة الدينية ، وترتد في الوقت ذاتـه على الجماعة بكاملها . وبما أن هذه المسؤولية صممت في الاصل في بيئة القبائل التي يسود فيها النظام الابوي ، فانها لم تمتد الى جماعة أوسع . ولكنها طبقت فيما بعد على كيانات اجتماعية أوسع كالممالك الكبيرة الحديثة .

ان عددا من مخلفات العقلية السحرية الممنوعة هي أساس هذا التوسع

في الجرم الروحي . ومن هنا نبع مفهوم عدوى الدنس ، وتحميل الآخرين مسؤولية الجرم . وغالبا ما كانت بعض المجتمعات القديمة تعاقب الكل من أجل الجزء ، أو على العكس كانت تعاقب الجزء من أجل الكل .

وقام موسى منطلقا من وجهة النظر هذه ، قبل منع السحر ، بافحام سحرة فرعون ، لكي يقتص بعد هذا من هذا الفرعون . اذ عمد الى القيام ببعض المآثر السحرية[1] : تحويل العصا الى ثعبان ، ورمي مصر بالرزايا العشر الخ ...

وتقبل القوانين وعلوم اللاهوت القديمة كلها انتقال المسؤولية . وتقبل انتقال المسؤولية بصورة خاصة من جيل الى آخر : « اذ ترتد آثام الآباء على الابناء » ، وكذلك فان القانون الصيني القديم يطبق المسؤولية العائلية على نطاق واسع .

وتقبل العقلية القديمة أيضا انتقال القداسة بصورة وراثية ، وانتقال الفضائل العليا ، والفضائل التي تحتاجها الحكومات ، والوظائف العالية ، والممتلكات الواسعة . ويتخذ حق الوراثة ، والارستوقراطية الوراثية طابعا لاهوتيا في الحضارات والاديان المختلفة . وفي الصين كان رخاء الامبراطورية الواسعة ونظامها مرتبطين بتقيد ابن السماء التام بالشعائر والطقوس الدينية واحترامها . ومن الممكن ان يؤدي الحاد وهرطقة الملك الى حرمان المملكة كلها في الديانة المسيحية .

قصاص جرائم السحر

في المجتمعات الابوية ، ينبغي أن تتأثر قبيلة الضحية للجرائم المرتكبة ضد أفرادها . وعلى قبيلة القاتل أن تسلحه أو أن تدفع تعويضا « دية » عن الجريمة . هذا هو « ثمن الدم » في المجتمعات السامية القديمة والمجتمعات البربرية . وهذا هو مفهوم الفدية في القانون الجرماني القديم.

وعندما تكون المسؤولية روحية ، ينبغي أن تفتش الجماعة كلها ، هذه

---

(1) سورة الاعراف ــ الآية القرآنية ١١٤ ــ قالوا يا موسى ، اما أن تلقي ، واما أن نكون نحن الملقين ــ الآية القرآنية ١١٦ وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون ــ الآية ١١٧ ــ فوقع الحق وبطل ما يعملون .

ــ المعربان ــ

الجماعة التي تهددت « صحتها الروحية » عن المجرمين في داخلها ، وأن تتكفل بمعاقبتهم ، لانهم سببوا غضب الآلهة ولعنتها على الجماعة كلهـا بسبب جريمتهم .

وغالبا ما تتضمن المسؤولية الروحية الشعور بالذنب ، حتى لـدى المذنب نفسه . وكلمـا كان المذنب رفيع الوظيفة والمرتبة ، كـان لذنوبه آثار ونتائج أوسع . اذ تشمل هذه الآثار والنتائج المجتمع بكامله .

وفي فترة بتشبع[٢] ، جاء النبي الى الملك داود وعرض عليه الاختيار بـين الوباء أو الهزيمة العسكرية . وفي الحالتين سيدفع الشعب ثمـن الاختيـار .

وعندما كانوا يتجاهلون غلطة من الغلطات ، كانت الاعراض التقليدية تنبيء بوجود مخالفة روحية . وتعتبر الاوبئة والزلازل الارضية ، وثورات البراكين ، والجدب ، والقحط ، والطوفـان ، والمجاعات ، والسواف ، الاعراض التي تنبيء عنها .

والى جانب هذه الاعراض ، تأتي الهزيمة العسكرية لتجمل كل هذه النكبات . وكانت الجيوش المتحاربة ، والجيوش الوثنية تذهب الى الحرب ترافقها آلهتها التي تشارك في المعارك بصورة روحية . أما الجيوش المؤمنة باله واحد فكانت تعتبر الحرب حكما الهيا . ونجـد أخيرا في حضاراتنا الحديثة ، التي تلعب فيها العقيدة السياسية دورا يحل محل علم اللاهوت ان الحرب تعتبر « كامتحان للحكومات » . ويعزى الانتصار أو الهزيمة الى قيمة العقيدة السياسية التي تسود كلا من المعسكرين المتحاربين .

وقـد اعتنت كـل الحضارات القديمة باملاء عـدد مـن الطقوس والمحرمات بغرض زيادة فاعلية الجيوش بواسطة الوسائل الروحية . وكانت الحرب العادلة بالنسبة للرومان هي الحرب التي تعلن مع التقيد التام بهذه الطقوس . وتكلف لجنة خاصة من الكهنة باعلان الحرب . وكانت قرارات القادة التي تتخذ في الحملات ، تحاط بالمراسم والاضاحي ، وتفحص أحشاء الضحايا لاستخلاص الدروس الاستراتيجية .

---

(١) زوجة الملك داود ، وهي ام سليمان .

ـ المعربان ـ

وتسهر التوراة بصورة خاصة على الطهارة المعنوية للمقاتلين • ومنذ أن انهزم يشوع بن نون أمام مدينة عاي ، جاءته النبوءة وأوحت اليه بسبب هذه الهزيمة ، وكان سببها استيلاء أحد الجنود على الغنائم خلافا لما أوصى به الاله السرمدي • فجمع يشوع مجلس الشعب • وبما أن المجرم لـم يعلن عن ارتكابه جريمته هـذه ، أوحت اليه نبوءة خاصة بالمجرم وحددته • فاعترف بها بعد كشفه ، وعوقب برجمه بالحجارة • وهكذا انتصر يشوع •

الاجـرام المستتر

والى جانب مشاعر الاثم التي يحس بها المذنبون مباشرة ، والى جانب المشاعر الناجمة عن ظهور المصائب والنكبات العامة ، نجد في كل المجتمعات مشاعر معقدة مكونة من الخوف والقلق ، مستندة الى ذنوب غير واضحة وبعيـدة •

وتنتج هذه المشاعر المعقدة مـن الشعور بوجود مخالفات ارتكبها السلف فرانت بثقلها وأثرها علـى الخلف • ونجـد في الازمان القديمة التقليدية القلق ••• وهو القلق من حجب نار السماء واخفائها ، والتصدي لدور الآلهة الخلاق • فانشاء الجسور (الكباري) على الانهار ، والملاحة التي تتجاوز الحدود الاقليمية التي رسمتها الآلهة لكـل مدينة ، ولكل شعب ، ولكل قبيلة ، كانت كلها مخالفات يمكن أن تسبب غضب الآلهة •

وقد خلقت كل الحضارات القديمة جهازا ضخما واقيا وتوفيقيا ، ضد هذه المسؤولية الروحية ، ولمقاومة هذا الاحساس الروحي بارتكاب الاثم • ويستهدف هـذا الجهاز تخفيف مشاعر الآلهة وغيرتها مـن مخلوقاتها ، بواسطة الفدية قبل أي شيء آخر • وكان الانسان يقدم للآلهة أعجب مـا خلقته ، وأثمنه في الوقت نفسه ، فهو يقدم حياته قربانا للآلهة وفدية لها • انها تضحية بشرية أولا • ثـم حدثت ثورة فكرية هائلة عندما استبدلت الانعام بالبشر • وان الاهمية العرقية والدينية في الوقت ذاتـه لتضحية ابراهيم أنها علامة هذا التحول في الفدية • فقد كانت عملية افتداء الابن بالكبش عملا قام به الملاك الذي أرسله الاله السرمدي • وكانت عمليـة الاستبدال هذه منطلقا « لتحالف جديد » ، أي لعقد روحي يسود بـين

العبادة وفرائضها • على أن بعض الحضارات لم تتوصل الى التحلل من قيد منطق التضحية البشرية • وبقيت هـذه التضحية مرافقا الزاميا للظروف الخطيرة • وهكذا كان حـال القرطاجنيين خلال حروبهم • وقـد قدم « الآزتيك » ١٨٠٠٠ ضحية في صراعهم الاخير ضد كورتيس ، كتمهيد روحي لهذا القتال الاخير •

نوعـان مـن التضحية

ان طبيعة التضيحة معقدة جدا • فهي في الوقت ذاته غرامة وكفارة ، وشكل من أشكال الضمان • وتعني التضحية أن نقدم للآلهة ما يخصها من الخيرات الدنيوية التي أتاحت هذه الآلهة للانسان التمتع بها : من قطعان الانعام ، والحنطة ، والنبيذ ، الى المساكن الفخمة ، والمعابد •

وكانت الضحية تجعل الآلهة تشارك في مسرات الوجود التي تتيحها لنا ، بمناسبة الولادات والزواج • وكانت الضحية تلازم الجنازات أيضا • وفي هذه الحالة الاخيرة ، يضاف الى ذلك فدية لها طابع استعطافي من الآلهة يرجوها بأن يكون الزواج سعيدا ، وأن تستقبل أرواح الموتى استقبالا حسنا في العالم الآخر • وتظهر نصوص التوراة انه انقضى وقت طويل قبل أن يحس البشر بتحررهم وتخلصهم من التزام التضحية بأبنائهم ، فديـة للآلهة • وأعلنت نصوص التوراة فرض عقوبات صارمة على من تغريهم هذه التضحية فيعودون الى الالتزام بها • وتعاقب بالموت « أولئك الذين يقدمون لمولوخ أحد ابنائهم » (سفر اللاويين ٢٠ ــ ١) •

وتفيد التضحية أيضا في التكفير عن الاخطاء الفردية أو الجماعية ، ويرافقها طقوس تطهيرية (حمامات ، صيام ، خلوات ، حلـق الشعر أو ارساله بالعكس في مرحلة النذر أو العقوبة) • وتتعلق التضحية عندئـذ بوقائع محددة ، تخلق لدى المؤمن نوعا من « عدم النعمى المعنوية » • يرغب في التخلص منها •

وهنا ينبغي أن نميز بصورة اساسية بين نوعين مختلفين تمام الاختلاف من التضحية : ففي كل التضحيات التي سبقت ، كانوا يكرسون للآلهة أجمل الاشياء وأعزها بالمعنى العاطفي والاقتصادي ، ويكفرون بواسطتها عن ذنوبهم (فقد كانوا في الماضي يضحون بأولادهم) • وكانت المعابد

تبنى وتزين بأثمن المواد • وعندما ينبغي تقديم الفدية والضحية ، كان من الواجب انتقاؤها من بين الحيوانات التي لا تحمل بقعا أو عيوبا (كان الاله جوبيتر يحب العجول البيضاء) • وينبغي أن تكون الحيوانات جميلة فتية ، لا عيوب فيها ، ولا عاهات ، وان لا تكون مصابة بأمراض ظاهرة : كانت هذه الحيوانات لطيفة ومحببة ، كالثيران ، والعجول ، والحملان ، واليمام•

والى جانب هذه التضحيات المنصبة على الاشياء الجميلة ، هنـاك تضحيات مـن طبيعة أكثر غموضا : ففي معظم علوم اللاهوت ، وعلوم السحر ، يصور التيس على أنه حيوان مثير للقلق • وهو يمثل الرغبات الدنيا ، والمزاج المثير والمحب للعراك والتمرد والعصيان والميول العدوانية• انه حيوان غامض وخبيث • ويعتبر في كل مكان حاملا للمشاعر الكامنـة للنفس البشرية والتي هي مدعاة للخوف والعار في الوقت ذاته • انها مشاعر مستترة يحس الانسان في الوقت ذاته بأنه ضحيتها ولعبتها الثملة ونزوتها وعنفهـا •

ويرمز الاله بانوس الـى السكر والخصب • ويقـوم البدائيون المتوحشون في الوقت ذاته بالرقص والموسيقى الصاخبين المخصصين لدفع ثـورة الخصب لـدى الطبيعة • ويجسدونه بأقدامهم ولحاهم ، وقرون المعزى ، وهو نوع من حلول الاله في كل الكائنات مثير وداعر • وعلى حين نجد في الاساطير القديمة أن الثور يرمز الى القوة المتفجرة والى اشعاع متراي ، يتكفل المعزى بقوى الشر والظلام • ويشكل المعزى في القرون الوسطى مع الحية التجسيد الامثل للشيطان ، ويتصدر الطقوس الدينية الاكثر جموحا وشراسة في العبادات الافريقية •

ويمكن أن نتعرف على « اشكال الانتقال » بين العقلية السحرية والعقلية اللاهوتية ، وتحليلها بصورة أفضل في التوراة • فالـى جانب التضحيات المقبولة تضع التوراة سلسلة أخرى من التضحيات لا تنطبق على خطيئة أو مخالفة للشرائع محددتين ، مع ارتباطها بطقوس العقوبة ، بـل تنطبق على ذنوب مجهولة أو مستترة ، والى الرغبات القذرة والاجرامية •

وتوصف هذه التضحيات « بتضحيات التكفير » • وذكرت التوراة : « ستقدم معزى ككفارة ، لتكفر عـن ذنوبك » (٢٨ ـ ٢٢ و ٣١) •

وتتكرر هذه الجملة في التوراة عشر مرات في النص ذاته •

وهكذا يتم انتقال الذنوب الواضحة ، واغراءات العنف والجسد على الماعز ، هذا الحيوان الدنس • حتى أن المشاعر التي يحتمل أن يحس بها الانسان ، وان لـم يخضع لها تنتقل الى الضحية • لان الفسق والروح العدوانية شيئان داخليان • انها مشاعر تنطلق من داخل الفرد نفسه • فاذا قضى عليها وصدها وطردها ، تبقى مستترة في كل انسان ، ويحس هـذا الانسان بالحاجة الى التخلص منها بمعجزة •

كبش الفـــداء

وهكذا لا ينتقل الى كبش الفداء ، هذا الحيوان المثير للقلق ، والذي يرمز للقوى الغامضة والدنيا ذنب واضح متعلق بأعمال وقعت ، بل ينتقل اليه ذنب نوينا القيام به ، او كان مستترا في نفوسنا ، ولم نعترف فيه ابدا لانفسنا ، يعيش فينا كأعمق أعماق اللاشعور •

وهكـذا يتكفل كبش الفداء بأفكارنا السيئـة ، وباغراءات الطمع والشره ، والخبث ، والعنف ، والفسق • انه بديل سحري لكل الذنوب غير المحددة للقبيلة • وتتحرر القبيلة بالتضحية به من الذنب أو الجريمة ، ويفرج عنها همها ، وشعورها السيء •

ومع هذا تتضمن الطريقة التي صممت بها تضحية كبش الفداء ونفذت خصائص مميزة تفرقها بصورة واضحة عـن بقية الاضاحي التي نستطيع تسميتها بأضاحي الزهو والبذخ • وتجسد هذه الاضاحي قيمتين مختلفتين، كما يظهر ذلك في نصوص التوراة ، الواضحة في هذا المجال • ويتضمن طقس التضحية النقاط التالية كما تنص التوراة على ذلك :

١ ــ ينتقل الذنب الى ضحيتين •

٢ ــ يقوم رئيس الاحتفال الديني « باجراء القرعة » على كل مـن الضحيتين ، مخصصا احداهما للاله السرمدي ، ومخصصا الاخرى للقوى الشريرة •

٣ ــ يضحي الكبش الاول تبعـا للاسلوب العادي للتضحيـة في التـوراة •

٤ ــ يطرد الكبش الآخر الى الصحراء ، لكي يتيه فيها ويهلك ويموت

بشكل مشين • وينطلق الكبش محملا بذنوب الجماعة ، ويذهب ليتيه خارج الارض المقدسة للقبيلة •

عقــدة كبش الفــداء

تبرز الطريقة التي صممتها التوراة للطقوس المخصصة لكبش الفداء ، تبرز هذه الطريقة بصورة كاملة آليات السيكولوجية الجماعية التي تنطبق بعد أن تبسط وتضخم على اضطرابات وحاجات مماثلة •

ان المجتمعات كالافراد ، تحس لاشعوريا بالحاجة الـى ايجـاد المبررات ، ونقاط ارتكاز او امكانات انتقال لكل حالاتها النفسية السلبية• وتتوصل هذه الاضطرابات ، وهذه المعضلات ، وحالات القلق هذه ، وهذه التناقضات الـى اثارة مشاعر عدوانية تنتشر في وجوه شتى بعـد كبح جماحها • وتتخذ نتائج هذه الوقائع بصورة عامة شكلين :

١ ــ تشتمل التنشئة في كل المجتمعات الاشارة الى « عدو تقليدي معين » • فهو بصورة عامة قبيلة مجاورة ، أو قومية مجاورة ، تلعب أيضا دور العدو التقليدي والموروث تنفجر بين القبيلة وبينها من آن الى آخر نزاعات مسلحة •

وعندما يتعرض مجتمع من المجتمعات أو قبيلة من القبائل أو أمة من الامم الى أزمة عدوانية تعزى الى بنيتها أو الى صعوبتها الداخلية سواء كانت تشعر بها أم لـم تشعر ، فانها تلقي عادة بأثر هذه الصعوبات على عدوها التقليدي • فالخطيئة خطيئة هذا العدو ، فهو الخصم والمنافس • فهـو الذي يعوق تطورها ، ويحول دون توسعها • ويحرمها من مجالها الحيوي • واخيرا فان هذا العدو يهددها حتى أن وجوده ليصبح خطرا وعارا عليها • فهو يذكرها بأطماعه القديمة ، وبالحروب الماضية ، وبالظلم الذي تعرضت له وبالاعمال الجائرة التي ارتكبها • ويمثل وجوده بالنسبة اليها خطرا دائما لقوة معادية لقوتها • وهكذا نصل الى نقطة يصبح فيها التوتر امرا لا يطاق • انه « استعداد ذاتي » يفسر الارتياح الغريب الذي يرافق بدايـة الحروب في الغالب : اذ يتخلص المقاتلون مـن شياطينهـم الخاصين ، الذين اصبحوا يمثلون العدو ويجسدونه ، لان عملية الاسقاط النفسية تمت عليه • وانهم يحاربون هؤلاء الشياطين الى حد كبير •

وغالبا ما يضاف الى هذا الشعور شعور بأن العدو المحدد دنس في حد ذاته وطاغية أثيم ، ووثني أو كافر بالاضافة الى هذه الاطماع المباشرة. وسنحمله كل كراهيتنا وكل دنسنا . وقد ندرت في ايامنا هـذه أوضاع « الحروب المقدسة » . ولكن كانت كل جماعة في الماضي تحارب باسم آلهتها الخاصة التي كانت تتدخل في المعارك مباشرة .

عقلنة عقدة كبش الفداء

عندما يتعرض مجتمع من المجتمعات لنكبة ، ويخيل اليه انها نكبة ظالمة يتساءل عن الاخطاء التي ارتكبها ، وهل تستحق مثل هذا الجزاء الذي فرض عليه . ويكلف هذا المجتمع ، تبعا للعقلية السائدة فيه السحرة أو الاخلاقيين ، أو القضاة ، أو رجال الاحصاء أو العلمـاء في عصرنا اليوم لاكتشاف المسؤول الخفي عن النكبة التي حلت به .

وتؤثر حالة معارفنا مباشرة على ادراك المسؤولية الجماعية : فالوباء في عقلية السحر يثير التفتيش عـن المشعوذين أو السحرة ذوي النوايـا السيئة . واذا كـان المجتمع ذا عقلية لاهوتية فانه يفتش عمـن دنسوا المقدسات ، والهراطقة ، والكفار ، وعمن يهاجمون الدين ويشنون الهجمات المقذعة عليه ، واللوطيين أو المذنبين الآخرين الذين كانوا سببا في هـذه النكبات التي حلت بالمجتمع .

وأخيرا فان العقلية الحديثة تدرس المرض وأسبابه وبذور انتشاره ، وتحاول ايجاد الدواء له والوقاية منه .

ان هزة أرضية تحدث اليوم لن تكون سببا في اصدار قرار مـن المجلس الكنسي بحرق أشخاص عقوبة علـى مسؤوليتهم في معارضـة الكنيسة ، وتحميلا لهم للنكبة التي حلت بالمجتمع كمـا حدث في زلزال لشبونة[1] . ولكن عملية التفتيش عـن كبش الفداء ، وعن « المسؤول الخفي » ما زالت تتطابق بصورة لاشعورية مع حاجة عميقة في الانسان .

ويبدو أن ما تبدل فقط هو الاحكام المبررة والحجج الهادفة لانتقاء

(١) الزلزال الارضي الذي حدث في عام ١٧٥٥ .
ــ المعربان ــ

الضحية • وتغطي العقد الجماعية والمعايير القديمة ذاتها في انفجاراتها وظهورها بعقلنة مزيفة يبدو فيها التماسك المنطقي وكأنما يزداد صلابة كلما كان الاساس الذي يستند اليه واهنا مزعزعا •

ونحن لا نفتش في مجتمعاتنا ـ العقلانية جزئيا ـ عن المسؤول عن كسوف الشمس أو عن ارتفاع الامواج والعواصف البحرية • ولكن العقلية السحرية التي طردت تدريجيا من العلوم الطبيعية التجأت الى الميدان الاجتماعي • فنحن ما زلنا نسقط صعوباتنا الداخلية ، واحقادنا ، وحرماننا ، وشياطيننا على العدو الخارجي الذي نعزو اليه دوما النوايا السيئة • وعلى سبيل المثال ، يعتبر كل فرد منا سلاح الآخرين سلاحا هجوميا ، ولكنه يعتبر سلاحه الخاص سلاحا دفاعيا • ونعزو الهزائم والصعوبات الى الخصوم السياسيين أو الى الاقليات • فكبش الفداء هو شرط الوعي الجيد في الروح العدوانية •

وفي كل الحالات ، من المفزع حقا أن نلاحظ أنه ما زالت تسود عقدة كبش الفداء في قلب العقليات الجماعية الحديثة ، كرمز للحيوان الشرير الذي يجسده •

٣ ـ عقدة ديموقلس

ان تاريخ ديموقلس معروف • فهذا المداهن الذي تملق دنيس أمير سيراقوصه كان في الوقت نفسه غيورا ومعجبا بسيده لدرجة دفعت سيده الى أن يمنحه مكانه لعدة أيام • وهكذا وجد ديموقلس نفسه يتصدر حفلة ضخمة حافلة بكل مظاهر الابهة يحيط به خلالها كل رجال القصر ، وهم ينفذون أوامره • ولكنه لاحظ فجأة فوق رأسه سيفا ثقيلا مربوطا بحبل رفيع جاهز للسقوط عليه في كل لحظة وتوجيه طعنة نافذة اليه •

وتلخص هذه الحكاية ، التي أصبحت مثلا من الامثلة التي تضرب في الاخلاق كل مظاهر الخوف وعدم الطمأنينة • ويقول ت• ريمو في كتابه « سيكولوجية المشاعر » أن الخوف هو أول شعور يحس به المولود الجديد • ويبرز الخوف لديه منذ اليوم الاول • ولكن دوافع الخوف تتضاعف مع التقدم في العمر ، وتكبر وتتضخم • ويضاف الى الخوف

الغريزي كل أشكال « الخوف الاجتماعي » ، وهي الاشكال التي تنتج عن التقدم في السن ، وعن الحاجة ، والمعتقدات ، والقوانين ، وقيم التسلسل والاعتبار في المجتمع .

وتعتمد كل تربية ، في جزء كبير منها ، على تربية غريزة الخوف . وهي تعلم كيفية التغلب عليه ، تارة بانكار وجود الخطر ، او باقتحامه ، وتعلم الطاعة والخضوع والاستسلام تارة أخرى . وينقسم الكون الاجتماعي من وجهة النظر هذه الى نوعين : نوع الرجال والقوى ، الذين يشكلون غرض الخوف الناجم عن المهابة والاحترام ، والنوع الذي نستطيع بوعي تام ازدراءه ومقاومته أو تدميره .

وعندما تستيقظ الروح العدوانية لدى الطفل سرعان ما تصطدم هذه الروح بانفعالات المربين فورا بواسطة : العقوبات ، والاصلاحات ، والجزاءات المختلفة الانواع . وفي القانون التقليدي لم يكن الاعدام جزاء المجرم فحسب ، بل كان للاعدام طابع تعليمي ونموذجي . وكان الاعدام يتم امام الجماهير بشكل ينشر الخوف مع الايحاء بفكرة العقاب والتنكيل التي تقوم بين الاغراء بارتكاب المخالفة ، ومخالفة الشرائع والتقاليد ذاتها . وقد بقي هذا الطابع سائدا حتى في أكثر البلدان تمدنا وكان الاعدام فيها عاما ويعلن عنه مسبقا قبل تنفيذه ، ويجتذب كثيرا من جماهير المتفرجين . ولم يلغ الا منذ فترة قصيرة من الزمن .

* * *

ويمثل ديموقلس في أصل هذا المثل الاخلاقي عدم الامن في فترة الرخاء . ويرمز الى عدم وفاء الثروة لصاحبها ، وعدم ثبات أكثر الاوضاع استقرارا ، وعدم اليقين أو الثقة باستمرارها . ويتمثل عدم اليقين في العالم القديم بعدم استقرار السلم ، واحتمال وقوع الحرب : « ويلعب الحظ دوره في المعارك » . وفي اليوم التالي لاعمال الحصار ، والمعارك ، كانت الهزيمة تعني الرق والاستعباد ، وسيادة المنتصرين .

* * *

والى جانب عدم الامن ، والتهديد بخسارة الثورة الناجمين عن

الحياة الاجتماعية هناك عدم الامن البيولوجي ، وحتمية التقادم في العمر ، وحتمية الموت .

وان عدم اليقين في مدة حياة الفرد هي المركبة الرئيسية لجميع أنواع القلق الميتافيزيقي التي تتسلط على سن المراهقة وترافقه . ولهذا يحتل الشك ، وهو الاحتمال الاساسي للوجود ، مكانا هاما في الرومانطيقية التي هي بعض « المراهقة المعلبة والمحفوظة » . ومن ثم لا نفكر في هذا الاحتمال ابدا ، حتى اننا لا نتذكره الا من آن الى آخر حينما يضرب الموت ضرباته حولنا أو يشير ضعفنا البدني الى مراحل « جلد الحزن »[1] لدينا الذي بدأ يضيق مشيرا الى اقتراب ساعة المصير المحتوم .

ومهما تعود الانسان على هذا الاحتمال ، فانه لم يمارس من الناحية البيولوجية تجربة الموت . لان كلامنا خرج من سلسلة لا تنتهي من الخلايا الحية منذ الاصل الموغل في قدم الاجناس . ولهذا فالموت واقع غريب علينا من الناحية البيولوجية . وقد كرر الحكماء الاقدمون أن النوم هو صورة الموت ، الا اننا عاجزون عن تصور موتنا . ويبقى الموت بالنسبة الينا سببا من اسباب دهشتنا البدائية . ويبدو بلا معنى ، وسخيفا دوما ، وامرا لا نستحقه . ولا يفصل بيننا الا سيف ديموقلس . وحتى لو توقعنا الموت ، فانه يثير فينا الدهشة والذهول . لانه يأتي من خلال فرجة مفاجئة ، حتى أن الشخص الذي يحتضر مهما ضعفت قواه اثناء الاحتضار ينتقل في لحظة من اللحظات الى الموت بصورة مفاجئة . وكأنه نور انطفأ فجأة ، ويتحول الكل الى لاشيء ، والوجود الى العدم ـ جسديا على الاقل .

ونحن لا نعتقد أبدا باخلاص اننا سنموت ، لاننا لا نملك التجربة الملاصقة للموت . وعندما نتعرض للمخاطر ، أو نذهب للقتال ، نحس دوما بأن الآخرين هم الذين سيموتون . ان شعور عدم اليقين لا يبدل شيئا . فقد استمر ديموقلس يرتعد من الخوف في بعض اللحظات ، والسيف مشرع

---

(١) جلد الحزن ، رواية لبلزاك (١٨٣١) . تلقى رافائيل دوفالانتان هدية عجيبة هي جلد الحزن الذي يسمح له بتلبية كل رغباته . ولكن ما ان تتحقق رغبة من رغباته حتى يضيق الجلد . وهكذا أخذ يحقق رغباته رغبة اثر رغبة الى أن ضاق به الجلد فقتله .
ـ المعربان ـ

فوق رأسه وبقي جالسا على العرش اثناء الوليمة • فلا يمنعنا اليقين من الموت في يوم من الايام مــن الاندفاع في اعمال ومشروعات ، كان مــن الضروري أن يحولنا عنها الشعور بالعدم ، والاحتمال الحتمي بالموت • وقد مر ديموقلس بأدوار متعاقبة من الخوف والامل : الامل بمتانة واحتمال عدم سقوط السيف المشرع فوق رأسه •

وفي العشرين عاما الاخيرة كان عدد ضحايا حوادث السيارات أكبر من ضحايا أي حرب من الحروب • ومع ذلك لم تؤثر الدعاية التي نشرت احصاءات هذه الحوادث وما سببته من ضحايا بحال مــن الاحوال على صناعة السيارات • بل ان هناك ما هو أسوأ • فلكي تسترضي مصانع السيارات الجمهور تبتكر كل عام نماذج أسرع وأخطر من السيارات قبل حلول موعد العطل ، لا يؤثر هذا النشر على الجمهور ولا يحولهم عن السفر على الطرق المزدحمة ونراهم يتحركون في سياراتهم وهم في نشوة الفرح •

* * *

ان آثار عقدة ديموقلس ذات شكلين • أولا ، ان الاحساس بضعف مصيرنا يملي علينا الاستسلام والانقياد • ويقدم لنا بهذا الشكل محاكمة تبريرية رائعة لاتباع الكسل ، واتخاذ موقف سلبي ، والاستسلام للمصير استسلاما كاملا وعدم الانفعال امام أي حدث من الاحداث • أفلا نجد الشيء ذاته في الدعوة البوذية حيث نرى لقاء الامير الشاب المتكبر وغير المكترث بجثة من الجثث ، وبأبرص ، ثم بشحاذ ، أفلا يقدم هذا اللقاء نوعا من التماثل مع حادثة ديموقلس ؟ ان هذا اللقاء كحادثة ديموقلس اكتشاف للخطر الدائم • وقد صدم هذا الاكتشاف الذي يتضمن عــدم استقرار المصير وثباته بوذا • فقرر أن يدير ظهره للعالم وللوجود ، واستغرق في تأمل نهائي •

بيد أن التهديد يحدث آثارا أخرى ايضا : فهو يثير الغضب والروح العدوانية• ويحاول المرء المهدد بالخطر التفتيش عن المسؤولين عن تهديده : من الذي علق السيف فوق رأسه ؟ وان الخوف هو سبب معظم انفعالات العنف ، وهو ايضا سبب من اسباب أعمال الشجاعة النادرة احيانا • وقد

قال اونامينو[1] : « اليأس هو معلم المستحيل » • ـ ولكن الفزع أيضا يولد أشرس أعمال العنف •

وغالبا ما لوحظ أن الخوف مصيبة مـن المصائب يولد انعكاسات عدوانية أخطر بكثير من المصيبة ذاتها • ويثير التهديد بالمجاعة مثلا ، عندما يستغله المحرضون بذكاء اضطرابات أكثر بكثير من المجاعة الحقيقية ، لان المجاعة الحقيقية تولد الوهن أكثر مما تولد الاضطراب •

وبوسعنا أن نحصل على كل شيء من أمة أو جماعة باقناعهما بأنهما مهددتان • ويتضمن كل فن « أسياد الحرب » الفطنين تحريف أعمالهم العدوانية والباسها صفة الدفاع الشرعي • وقد دافع الحكماء من أمثال ماكيافيللي وموتتسكيو عن الحرب الوقائية وأوصوا بها : فهي احدى مظاهر الخوف •

* * *

وهناك شكل جديد من عقدة ديموقلس وهي « عقدة الازدحام »[2]• ويبدو أن هـذه العقدة تكبر وتتضخم في التجمعات السكانية الكبرى الحديثة ، حتى عندما نستخدم كل الوسائل لانكارها • فهل هناك تهديد أكبر من التهديد الذي تواجهه البشرية التي يتضاعف عددها كل ثلاثين عاما ، وسيبلغ عددها ما يقارب ٥ مليار نسمة في فترة قصيرة ، في حـين يعاني ٢ مليار نسمة من المعاصرين الجوع ، مع انهم يشكلون ثلثي تعداد العالم اليوم ؟

ولقد كانت عقدة الازدحام كالمحرك النفسي وكالمحاكمة التبريرية لاكبر مجازرنا ، وهي حرب ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ • وأصبحت في عالمنا المحدود ، والمحدد والذي ينكمش ويتقلص أكثر أسباب الارجاف فتكا وقسوة • ويحتمل أن توحي بأكثر الاوضاع اليائسة « الفرار الى أمام » • وقد هاجم الالمان جيرانهم بصورة وحشية باسم المجال الحيوي ، متذرعين بضيق رقعة

---

(١) اونامينو : كاتب اسباني ولد في بلباو (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) مؤلف كتاب: **الاحساس المأساوي بالحياة •**

(٢) Complexe d'Encom Lirement او عقدة الارهاق ـ المعربات ـ

أرضهم واضطرارهم الى استخدام العنف والشراسة كضرورتين حتميتين • ولم يكن استخدام العنف في ذلك الوقت الا وهما • ولكنه كان قريبا من الحق في ظاهره ، لذا فرض نفسه على دولة كبرى من أذكى الدول وأكثرها فطنة • وقد شاءت سخرية الاقدار أن تصبح هذه الدولة أكثر الدول رخاء في أوروبا بعد كل هذه الاحداث وبعد أن اقتطع منها ثلث أراضيها •

* * *

وهكذا نرى أن عقدة ديموقلس ليست عقدة فردية فقط : فهي أكثر فاعلية أيضا عندما تنطبق على المجتمعات • وعندئذ يغدو عملها عدوانيا : اذ يصبح المضطهد مضطهدا • ويتيح التاريخ لامة من الامم كما تتيح حياتها السياسية مجموعة من التظلمات القديمة ، والاحقاد ، والاعداء الموروثين ، الداخليين او الخارجيين • وليس هناك الا الخيار ، كما قال بول فاليري «فاثارة سخط البعض ضد البعض الآخر هي الخطوة الرئيسية للسياسيين» ولكن أفضل حل لايصال هذا السخط الى ذروته هو اتهام الخصم بأنــه يضمر نوايا سيئة • ويستقطب خوف كل المجموعة مجتمعة حول غرض موحد : ويتزايد الحقد ، وتصبح الارض جاهزة ، ويتأثر السلم ويصبح مريضــا •

فكيف نفسر بعض السياسات المخيفة التي أجمع الكل على استحالة تحقيقها اذا لم تكن عقدة ديموقلس موجودة في أعماقنا ؟ ان اكبر ثلاث دول في العالم اليوم ، والتي تملك كل منها أرضا واسعة تشبه القارة ، وموارد ضخمة ، وعددا كبيرا من السكان ، وتملك المستعمرات ولها دول تابعة تدور في فلكها ودول حليفة ، ان هذه الدول تجد نفسها مطوقة ، ومروعة ومهددة في وجودها •

ألا تشكل سيطرة مثل هذا الوهم على فكر عدد كبير مــن ملايين الافراد ، الاذكياء ، وعلى الرجال البارزين الذين يحكمونهم ، ألا تشكل هذه السيطرة دليلا محزنا على أن الاحساس بعدم الامن عقدة أقوى من كل المحاكمات • وتخلق هذه العقدة اجماعا في هذا الخليط من الخوف والروح العدوانية التي تميز السياسة الدولية • ــ وهكذا وبفعل قوى

غامضة تعمل في أعماق لاشعورنا ، يجد السلم نفسه مقوضا من الداخل .

* * *

ان مظاهر هذه العقد الثلاث التي تبرز بصورة أسرع ، وبصورة جلية ومفهومة مظاهر فردية . انها النماذج المثالية النفسية للروح العدوانية لدى كل الرجال ، اذا أخذ كل فرد منهم بصورة منعزلة . ومع هذا تقدم الجماعات البشرية ايضا ردود فعل مماثلة . فبأي سياق تنتقل هذه العقد والانعكاسات الناجمة عنها من المواقف والسلوك الفردية الى مواقف وسلوك جماعية للجماعة التي ينتمون اليها ؟ ان الافعال الفردية هي مركبات الافعال الجماعية ، لانها متكررة ويجمع بعضها الى بعض . ويسمح تكرارها باحصائها وتصنيفها . ومن هنا ، تصبح مادة للاحصاءات ، وتتيح المجال بالتالي لحساب الاحتمالات ، ولوضع الفرضيات المتعلقة بانتظامها وبصفتها الدورية المفترضة .

* * *

فهل نستطيع القول ان السلوك الجماعي هو محصلة سلوك الافراد؟ وان الروح العدوانية الهجومية هي مجموع الارواح العدوانية الفردية ؟

هنا لا بد من وجود فروق طفيفة وتباينات : وللعقد العدوانية خاصية مشتركة هي انها تحتاج الى أحداث خارجية ونقاط ارتكاز لكي تثير حدتها . وتحتاج الى وضع تكثر فيه التضحيات أو نزاع لا شعوري بين الاجيال لزيادة حدة عقدة ابراهيم . وهناك الحاجة لايجاد محول في ذنب الآخرين لشن آثار عقدة كبش الفداء .

هذه العقد الثلاث (تماما كميولنا الفطرية الاخرى) كائنة فينا كاطارات فارغة . وتمتلىء بمضمون محدد وتتخذ اتجاها مشتركا حسب نماذج الحضارات من جهة ، وحسب الظروف والاحداث من جهة أخرى . ولكن عملها حاضر تماما ، وخفي ، ومخادع ومتعدد الاشكال .

* * *

ومع ذلك تقدم عقدة ديموقلس ، من بين كل العقد الاخرى أهمية اجتماعية ، وتاريخية وسياسية خاصة ، بسبب عنف الانفعالات العدوانية

التي تثيرها وشمولها . **فالخوف المشترك هو الرباط الذي يشد المجتمعات بعضها الى بعض** . والحذر من المنافسين والجيران ، والخوف من هجماتهم . والتهديد بالحرب اذا اردنا تلخيص كل هذه الاخطار بكلمة واحدة يستقطب أفراد المجتمع وينظمهم . وعندما تسبق الروح العدوانية المشتركة وتتقدم غيرها من الانفعالات الجماعية تشيع الاطمئنان . وتلعب والانضباط ، والحماسة ، والولاء للحكام . وبوسعنا أيضا أن تتساءل الدور النفسي للضمان من الخوف .

ويعزز الخوف من العدو ويقوي التحام الدولة وتماسكها بصورة أفضل من كل الالزامات الاجتماعية ، كما يقوي الوئام في صفوف الشعب، والانضباط ، والحماسة ، والولاء للحكم . وبوسعنا أيضا أن تتشاءل كيف تتحمل الدولة دون أن تتفكك (ودون أن يحل التهديد بالصراعات الداخلية محل الصراعات الخارجية) يقين سلم ابدي ، او سلم طويل فقط . فالهدوء الخارجي يثير الفتن الداخلية .

وتفيد العقد العدوانية الثلاث دوما كأساس « لاخضاع » السكان للمحافظة على تبعيتهم وولائهم للدولة واحترامهم للتسلسل الاداري القائم . وتسمح هذه العقد بتحقيق الانسجام والتماسك اللذين ينطويان على كثير من معاني التهديد بفضل عمل يتجه الى أعماق نفسية كل مواطن من المواطنين .

ان عقدة ديموقلس هي تنمية الاحساس بعدم الامن ، والتهديد الماثل دوما . وعندما تستثار هذه العقدة ، فانها تثير الفزع و « الفرار الـى امـام » .

أما عقدة كبش الفداء فهي التركيز على عدو محدد : عدو داخلي أو عدو خارجي ينتقل اليه اثمنا ونسقط عليه شياطيننا الداخليين .

وتمثل عقدة ابراهيم نزاع الاجيال ، والوعي الغامض بالبنية المتفجرة بصورة خاصة ، أي وجود فائض من الشباب يتجاوز مطالب الاقتصاد ، ويخلق توترا حادا في المجتمعات ، من شأنه تنمية الـروح العدوانيـة الجماعية .

وتساهم هذه العقدة الكامنة فينا في انضاح الاوضاع الحربية • وهي الاطارات النفسية التي تتوضح فيها الروح العدوانية ، والمكان الـذي تسيل فيه • وتتيح لها المصادفات غذاءها ، وتعين لها نقاط ارتكازها •

وتستيقظ عندئذ العقدة الكامنة والنائمة في اعماقنا كجرثوم في لاشعورنا ، ويتضخم هذا الجرثوم ، ويتوصل الى اشغال كل حياتنـــا الانفعالية ، ثم حياتنا الشعورية • ويصبح محرك عملنا ، ويستولي على ما تتيحه الطرق الفكرية ، والمعتقدات ، وعلى كل ما هو سائد في عقليتنا ، ويستخدم كل الوسائل • ويفيده كل شيء كحجج وكمبررات • وهكذا يحدث ، في الغالب ، الانتقال من انعكاس غامض وشبه حيواني الى وضع أعلى السياسات ورسمها •

الفصل الحادي عشر

السلم النووي ؟

١ - الفرائض الدولية والأسلحة النووية

كان اللجوء الى القوة دوما الشيء الخفي في العلاقات الدولية . وقد سار الامبراطور غليوم الثاني على خطى الملك لويس الرابع عشر عندما حفر الحكمة التالية على مدافعه : « الحجة الاخيرة للملوك » . فاستخدام القوة يبسط المواقف المعقدة ، ويحسم العقد التي لا حل لها وتعادل القوة ما يسمى : « ربع ساعة الحقيقة » في لغة مصارعي الثيران . وقد انعكس الاضطراب الذي أحدثته الاسلحة النووية في مفهوم الطاقة العسكرية للدول ، وفي استخدام القوة ، على سياستها العسكرية . لان أسس هذه السياسة ذاتها قد تبدل تبدلا تاما .

فقد كان تقييم قوة الدولة ومنزلتها مستندا الى سعة أرضها ، وأهمية تعدادها ، وثرواتها المنابع المفترضة لطاقتها العسكرية .

وكانت القوة والامن حتى يومنا هذا مسألة حدود في الدرجة الاولى . وكان اجراء التحضيرات العسكرية في منتهى الهدوء ، وأمن استخدامها (تعبئة وتغطية) مرتبطا بالمجالين الجغرافي والزمني اللذين كانت الدولة تملكهما . وعندما تتعرض هذه الدولة للهزيمة ، كان عمقها وحده دفاعا بحد ذاته . وخلال ثلاث مرات في قرن أو يزيد قليلا ، كانت المساحات الهائلة لروسيا أفضل درع لها . فقد كانت خطوط مواصلاتها الطويلة

والبطء والصعوبات الناجمة عنها هي التي تفوقت وتغلبت على أقـوى الجيـوش •

وبدأ عامل الحدود يفقد قيمته مع استعمال الصواريخ ذات المـدى الطويل ، التي تزداد دقتها وسرعتها كل يوم • وهذا هو السبب الاول في تحول العلاقات بين الدول • لان احدى المبادىء الرئيسية الثابتـة الديناميكية في كل سياسة دولية حتى عصرنا هذا هي كسب الاراضي وتوسيع الحدود • وكان هذا العمل تجسيدا لارادة القوة القومية ، والغرض النهائي الدائم للدولة •

* * *

وتصمم حدود دولة من الدول ، من الناحية النظرية ، كنقطة انطلاق مفترضة للتوسع المسلح • وقد تركز الانتباه أخيرا على دور الحدود في المناقشات المشهورة لعصبة الامم : فقد اقترح ليتفينوف تعريف المعتدي بما يلي : « المعتدي هو الذي يجتاز حدود الآخرين بالسلاح » • واقترح اريستيد بريان التعريف التالي : « كل من يريد تحريك اشارة من اشارات الحدود هو محرض على الحرب » •

ويبدو أن السلاح الذري يجعل وضع الحدود هـذا غير القابـل للمساس مظهرا ثانويا في عصرنا • فبوسعنا الانتقال اليوم الى الهجـوم وتوجيه ضربات مخيفة ، حتى أن بوسعنا سحق خصمنا دون أن ندخل الى ارضه بالسلاح ، دون أن ينطبق علينا التعريف التقليدي للعدوان ، ودون أن نقوم بعملية الاجتياح • فقوة الدولة في عصرنا اليوم لا تتقدم أقرب ما يمكن من حدودها الجغرافية •

وهناك معطية أخرى للعدوان : كان انعدام حدود مشتركة في الماضي يجعل العداء غير ذي فعالية ، الا بالنسبة للدول البحرية • فليس هنـاك من عدوان متبادل اذا لم يكن هناك تجاور في الحدود • وفي هذه الحالة ، كان من الواجب على الاقل خرق حياد الدولة المجاورة للوصول الـى الخصم • وبقي استخدام الاساطيل الجوية خاضعا للقيود ، ذاتها ، لان المجال الجوي هو امتداد لارض كل دولة من الدول •

هذا التماثل اليوم ، وهو اساس الحق الجوي ، قد عفى عليه الزمن•

ولا يمكن أن يخضع السكاك [١] والجو المؤين [٢] الى القواعد ذاتها. وقد نعاصر القصف الجوي انطلاقا من الاقمار الصناعية . وهكذا تزول آخر العوامل المطمئنة للجيو ـ بوليتيك . فالمساحات الشاسعة لاي بلد من البلدان ، والاراضي الحيادية لم تعد تشكل حماية لاي بلد . وفقد انشاء الدول ـ الحاجزة ، الذي يعتبر في الماضي تتويجا لخطط السلم وانتصارا لديبلوماسية المؤتمرات ، بالرغم من فائدتها النفسية ، فقد انشاء هذه الدول كل فائدته الاستراتيجية .

* * *

وتبدلت الاهمية الاستراتيجية للسكان من جهة أخرى تبعا للمفاهيم التكتيكية والتسليح . واعتبارا من نهاية القرن الثامن عشر ، كان الخبراء يميلون الى ربط قوة الدولة بعدد الجنود الذين تستطيع زجهم في القتال .

ويبدو أن عدد المقاتلين لم يعد الورقة الرابحة الرئيسية مع دخول الاسلحة النووية حلبة الصراع . بل على العكس ،اصبح عامل عدد الجنود، كعامل تعداد السكان ، سببا من أسباب تعرض الدولة للخطر ، بدلا من أن يكون عاملا من عوامل القوة . فانتشار الجيوش ، وتبعثر السكان وتفرقهم هما وسيلة المجابهة الوحيدة ، حتى يومنا هذا على الاقل ، لتحاشي تعرضهم لآثار القنبلتين الذرية والهيدروجينية . علما بأنه **ليس للسلاح النووي أي تاثير على العصابات .**

ان عدد الفرق ، والمراكب الحربية ، والطائرات لا يوازن الاسلحة الذرية ، في ميدان القدرة على التدمير واحداث الاضرار البالغة . فهي ليست أسلحة يجوز مقارنتها بالسلاح الذري لانها ليست من النوع ذاته . ومن الواجب تصور طرق جديدة للمقارنة بين الاسلحة الهجومية . وينطبق الامر ذاته على التكتيك .

---

(١) Stratosphere ـ الغلاف الجوي بين السماء والارض (وهو مجال الصواريخ الباليستيكية) .

(٢) Ionosphere ـ طبقة مؤينة من جو الارض ما بين ارتفاع ٦٠ ك م و ٦٠٠ ك م . (وهو مجال الصواريخ الكونية والاقمار الصناعية) .

ـ المعربان ـ

ويلاحظ بعض الاستراتيجيين المحدثين أن الميزة ليست بالضرورة في صالح الهجوم ، في الحرب الذرية • فلنجاح « التدمير الخاطف » ، وهو الشكل الجديد من الحرب الخاطفة ، ينبغي الغاء كل طاقات رد الخصم • ولكن يكفي أن تنجو بعض وحدات الصواريخ المختفية في اماكن لم تتعرض للقصف الذري ، أو كانت بالاصل وحدات متحركة كالغواصات حاملات الصواريخ مثلا ، أو كانت في ارض اجنبية ، يكفي كل هذا لكي يصل الرد على القصف الذري بصورة فورية ، ويدمر المهاجم ذاته الذي لن يدوم انتصاره أكثر من عدة دقائق •

وهكذا فأن الحساب الرياضي يربط قوة « دولة ذرية » بعدد قنابلها وبصواريخها المخزونة حساب وهمي • لان من الممكن تدمير مدنها الرئيسية ومراكزها الحيوية برد يقوم به خصم يملك قوة ذرية أقل بكثير من قوتها ، مع أنها سحقته قبل قيامه بالرد عليها • فجالوت أكثر تعرضا للاخطار في الوقت الحاضر مما كان عليه وضعه في الماضي • وينتج عن هذا ، ان كل الدول كبيرها وصغيرها ، معرضة في كل لحظة « للتدمير ـ الخاطف » • فنحن نعيش عصر ديموقلس •

* * *

وبوسعنا أن ندرك الآن الحرج الذي يواجه زعماء الدول في هذا العصر • ويزداد هذا الحرج لان السلطة السياسية والرتب العسكرية الكبيرة ما زالت تنتمي حتى الآن الى الجيل القديم ، وهو جيل الحرب التقليدية •

وكلما اخترع سلاح جديد ، ينبغي أن توضع عقيدة استخدامه تدريجيا ، بواسطة المحاكمة والتجربة • ويبدو أن هيئات الاركان العامة ، والسياسيين في البلدان النووية لم يتوصلوا حتى الآن الى استخلاص عقيدة متماسكة عن استخدام الاسلحة الذرية •

وتتعقد الامور من جهة بالسرعة الهائلة لتطورهذه الاسلحة وتحولها• ويضاف الى ذلك من جهة أخرى اختراع قذائف نووية تكتيكية • فاعتبارا من أي وزن ، واعتبارا من أية طاقة يمكن اعتبار الرؤوس النووية ، والصواريخ « تكتيكية » ؟ ومن حسن حظنا أن « عقدة العفة » ازاء

الاسلحة النووية تسود عالمنا ٠ اذ لم يتجرأ أي انسان على انتهاك مبادئها حتى الآن ٠

ويحاول البعض ، مرتبكين بهذه الاداة المرعبة والمشوشة انقاذ الحرب التقليدية ، حرب الجيوش الضخمة ، وخطوط المراحل ٠ ويحاولون الحفاظ على الحرب « الطازجة والبهيجة » بمنع استخدام الاسلحة الذرية ومنـــع انتاجهـــا ٠

وحول هذه النقطة لا تسمح السوابق التاريخية بالتفاؤل ٠ فمنذ العصر الذي منح فيه البابوات استخدام القوس الزيار بين الجيوش المسيحية ، لم يتوصلوا ابدا الى منح اختراع سلاح جديد أو منـــع استخدامه ٠ وقد انضمت كل الدول المتمدنة الى الاتفاق الذي يمنـــع قصف المدن المفتوحة بطريق الجو ٠ وان ما حدث في عام ١٩١٤ أو في عام ١٩٤٠ معروف للجميع ٠ فكيف يمكن أن نكون واثقين بامتنـــاع دولة أو قائد مصممين على المخاطرة بكل شيء بدافع الجنون ، أو بدافـــع اليأس ، عن استخدام كل الاسلحة التي يملكانها ٠ فالذي ضحى بحياته لا يهتم بحياة الآخـــرين ٠

فهل تتوصل على الاقل ، مع الاحتفاظ بالسلاح الذري ، الـــى تضييق نطاق استخدامه ، وتحديده بشكل لا يتيـــح تدميرا كامـــلا ؟ (ولنلاحظ هنا أن مثل هذا الاجراء يعود أيضا الى « انقاذ الحرب »)[١] ٠ ان هذه المسألة مسألة اختراعات تقنية وتكتيكية في الوقت ذاته ٠

وبوسعنا أن نذكر ، للعزاء أو اشاعة الامل أنه من مفارقات التاريخ أن فصل حروب الابادة قد ختم بعد دخول الاسلحة النارية الى ساحـــة المعركة ٠ وليست المدافع أو الرشاشات ، أو الغارات الجوية مسؤولة عن أكبر المذابح التاريخية ، بل ان المسؤول هو العصا الحديدية للجنـــدي الروماني القديم ، وسهم الفارس المغولي ٠ واذا استمر هذا التطور ، ربما كان بوسعنا أن نتأمل بأن يوقف السلاح الذري تدمير البشرية ، وان نعاصر شكلا جديدا من الحرب الرقيقة مع خلفية نكبة عامة ٠

---

(١) لمؤلف هذا الكتاب كتاب آخر اسمه : Sauver la Guerre
ـ المعربان ـ

ولكن العوامل التقنية والاستراتيجية ليست هي وحدها التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار • فالحرب الرقيقة تطابق شكلا محددا من البنية الاجتماعية وعقلية معينة • وهي توافق بصورة عامة بنية وعقلية دول ذات نمو بطيء وحكومة ارستوقراطية : النبلاء الملوك او الاقطاعيين وفي العالم الحديث ، فتح طبع الحرب بالطابع الديمقراطي الطريق أمام الحرب الشاملة ، وفتح النمو السكاني المتزايد الباب امام الابادة الجماعية •

ولاول وهلة تبدو الاسلحة النووية وكأنها تزيد حدة الاثر التدميري اللامحدود للحروب • واذا وجدت الدول نفسها مضطرة الى الامتناع عن استخدامها كما نأمل ، يصبح من الصعب عليها أن تجد المبررات والمنافذ لتوسعها المسكاني • وعلى كل حال ، فان « النمو » السكاني العالمي بدأ في نفس الوقت الذي اخترعت فيه القنبلة الذرية ، وهو تطابق مقلق • فهل يعني هذا أن المبرر قد وجد اذا لم تتوصل الى الحد من نمو السكان ؟

ومهما يكن من أمر ، فان السلاح الذري يجعل الحساب الرزين للاخطار أمرا مستحيلا ، مع أن هذا الحساب وظيفة تقليدية للزعماء وهيئات الاركان • وينتج عن ذلك أن الدول ليست سيدة سياستها الخارجية • فقد انتقلت هذه الدول ، اذا سمحنا بالمقارنة في هذا المجال ، من تشريع سليم حيث كانت المخالفات والاخطار والعقوبات مختلفة ومتباينة الى قانون قاس يعاقب بموجبه على كل شيء بالموت الفوري •

والحرب ، حسب قول كلاوزفيتز المنظر الالماني هي متابعة السياسة بوسائل أخرى • ولكن ليس هناك حرب سياسية دون حساب اولي لمخاطرها وتكاليفها • وبما أن هذا الحساب أصبح مستحيلا ، فان السياسة الدولية تجد نفسها محرومة من أكثر دوافعها فعالية • وتؤدي كل قوة بعد الآن الى طرق مسدودة وتفضي الى مصائب عامة •

وبوسعنا التساؤل في هذه الشروط عن الاشكال الجديدة التي ستقوم بالفريضة التي سيأخذها القسر في السياسة الدولية •

٢ ـ الاسلحة النووية والسلم

يأمل البعض أن يكون السلاح الذري سببا في سيادة « توازن

الرعب » بين الدول الكبرى ، بشكل يضطرها الى الامتناع عن استخدام القوة في السياسة الدولية • ويقدر أن الطريق النابوليوني للصدمة المباشرة والشاملة بين الدول الكبرى قد اصبح طريقا غير سالك • فنزاعاتها ومنافساتها تصطدم اليوم بالحيرة امام اختيار مزدوج هو : « الجمود أو التدمير الشامل » •

ومع ذلك استمرت المعركة بين المعسكرين المتنازعين منذ عام ١٩٤٥ دون هوادة • وليس هناك ما يسمح بالاعتقاد حتى الآن ، وبالرغم من وجود الاسلحة النووية بامتناع الدول الكبرى عن تحقيق الاهداف التقليدية ، والامبريالية والعدوانية للسياسة الدولية • بيد أن كل شيء يرتبط بالادارة التي ستعطيها الدول الكبرى لفعاليتها ونشاطاتها ، لان علم اجتماع الحرب ــ علم الحرب (علميا واجتماعيا) يظهر أن اغنى الدول واكثرها فطنة وذكاء كانت أكثر الدول عداء لغيرها • ومنذ عصر النهضة ، وانتهاء الغزوات البربرية اصبحت الحرب نشاط ترف وبذخ وأكثر المشروعات كلفة وثمنا • ولا تولد الروح العدوانية لدى الفقراء الا دوامات لا اهمية كبيرة لها •

وقد مر كل شيء ، طيلة الخمسة عشر عاما الماضية ، كما لو أن الدول الكبيرة ، التي لا تتجرأ على الصدام مع بعضها ، تفتش عن طرق جديدة لتحقيق توسعها بواسطة دول تشكل طرفا ثالثا [١] •

وهكذا فاننا نعاصر تحريا تجريبيا لبديل جديد عن النزاعات المسلحة الكبرى ، عبر عمليات استطلاع وجس دموية تسمى حروب اليونان ، وكوريا ، والهند الصينية ، وسيناء ، وفي واحات الصحراء الغربية ، الفجيج ، وفي كشمير الخ ••••

* * *

---

(١) وهذا ما تؤكده المقالات التي صدرت في المجلة العسكرية الفرنسية عن : « الحرب الثورية والنفسية (مارس ــ آذار ١٩٥٧) » • راجع ايضا كتاب جابر بيل بونيه : « الحروب الثورية وحروب العصيان » مايو ١٩٥٨ وكلود دلماس « الحرب الثورية » و P.U.F. ١٩٥٩ مجموعة Que Sais-Je; ماذا أعرف ؟ والدراسات عن لورنس للعقيد ل • بواريه في المجلة العسكرية ــ المرجع المذكور سابقا •

ورأينا ولادة نظريات الحرب الثورية ، والحرب الباردة ، والحرب النفسية ، والتعايش الذي يتهددنا سلميا ، وهو الترجمة الحديثة للتعبير القديم « سلم مسلح » • ورأينا تبدل طرق التحالف والاخضاع • وفوق هذه المعارك يحوم التناقض المؤلم لعصرنا حيث ربحت ارادة القوة دولا كانت في الماضي من أكثر الدول نزعة الى السلم ، واصبح سكان هذه الدول التي كانت مسالمة في الماضي يغلون بالروح العدوانية ويبحثون عن أية وسيلة لتفريغ اندفاعاتهم الحربية • ولكن بأي ثمن والى متى ؟

* * *

وبرهنت كل النزاعات المحدودة منذ عام ١٩٤٥ ان دولة غنية تستطيع تجنيد عدد غير محدود من المقاتلين سواء بتطويعهم لحسابها او باثارة الحماس لديهم • وكانت اعداد المتطوعين والمأجورين متوفرة في كل جانب ، في حرب اليونان ، وفي الحرب الاسبانية ، وفي الحرب الكورية ، وفي حرب الهند الصينية او الكونغو • ويمكننا أن نتساءل الى أي حد أثبتت التجارب الاخيرة اعادة اعتبار وحدات المرتزقة التي شكلت في كثير من العصور « رأس حربة » كل الجيوش ، مع أن مسألة المرتزقة لم تعد موضع بحث منذ القرن التاسع عشر •

* * *

وهناك ملاحظة ثانية : تتميز الدول التي اظهرت انها اسهل الدول على التحريض ، وأسرعها للتضحية لدى أول نداء يوجهه « زعيم متسلط » تتميز هذه الدول ببنية ديموغرافية ــ اقتصادية متفجرة • ففائض الشباب عن حاجات اقتصاد وطني فاشل كبير جدا فيها ، وجاهز للانتقال من صف العاطلين السلبيين الى صف العاطلين المسلحين •

هذا هو الوضع المشترك لكل البلدان المتخلفة اليوم • لا تشكل هذه الدول من ذاتها ، وهي محرومة من الصناعة والتنظيم أي خطر على السلم : ولكنها تخبىء كنوزا عدوانية ، كالبلقان قبل عام ١٩١٤ ، والشرق الادنى اليوم • وان اول الاخطار الرئيسية في عصرنا هي أن نجد دولا متعددة ومتخلفة تزوج نزاعاتها لاسيادها وتجرهم اليها • وقد بدأت حربنا « حروب الثلاثين عاما » (١٩١٤ ــ ١٩٤٥) في سراجيفو •

وهناك ملاحظة ثالثة : لا يمكن أن تستمر الحرب الثورية أو حرب العصيان المماثلة لنموذج ثورات دول التبعية ، والبلقانية أو دول المستعمرات الا اذا كانت تملك دعم دولة أجنبية • وليس البلد المقاتل في الواقع الا ساحة المعركة التي تتقابل فيها قوات مسلحة تغذيها دول أجنبية • وقد تم تجهيز المقاتلين الذين حاربوا في الهند الصينية واعدادهم وتشكيلهم اما في فرنسا أو في الصين • وفي اليونان ، كانت الاسلحة والتجهيزات تأتي اما من الكتلة الشرقية أو من الكتلة الغربية • وفي هنغاريا ، أتت المعونة الحاسمة في عام ١٩٥٧ من التدخل المباشر للدبابات الروسية التي أعادت سيادة النظام في بودابست • وتعرضت هنغاريا نفسها الى حسم عكسي في عام ١٩٢٠ ، عند قيام حرب بلا ــ كون (١) الثورية • وقد توقفت الاشتبكات في كل الحالات ، وبرغم سخط المقاتلين وغضبهم ، بعد اتفاق تم من فوق رؤوسهم مباشرة بين الدول الكبرى التي كانوا أدوات لها •

ولكن لا يبدو في وسعنا بناء سياسة خارجية كبرى ، الى ما لا نهاية ، على هذا النوع من النزاع الذي يعتبر أسلوبا من اساليب القسر الدولي ذي المدى الكبير • لانه ما أن يزول أثر المفاجأة الاولى ، حتى يعود الوضع الحقيقي للظهور • فعندما تكون الحرب الثورية سببا في مواجهة خصمين معروفين بميولهما السياسية المعلنة ، يكون اسيادهما قد تورطوا في النزاع بصورة حقيقية • هكذا كانت الحال في الحرب الاهلية الاسبانية في عام ١٩٣٦ : فقد كان الالمان ، والايطاليون والروس ، الذين غذوها ومنحوها كل أسباب البقاء يؤمنون باستمرارها ، وباستمرار التجربة على الآخرين وفي منتهى الهدوء • ولكنها لم تكن الا مقدمة ، اذ اضطروا فيما بعد الى أن يتقابلوا بصورة مباشرة ، وأن يتعرضوا للاضرار والخسائر المعروفة • واذا كان الزعماء المتسلطون على هذا العالم قد نجحوا حتى

---

(١) **بلاكون** : ثوري هنغاري (١٨٨٦ ــ ١٩٣٧)استولى على السلطة في هنغاريا في عام ١٩١٩ . وهزمه الرومانيون ، فالتجأ الى الاتحاد السوفييتي . اعدم بتهمة الانحراف ، ثم رد اليه اعتباره بعد اعدامه .

ــ المعربان ــ

الآن في التوقف عند حافة الهاوية ، فان هذا لا يشكل سببا للاعتقاد بأن تجارب اليونان ، وكوريا ، والهند الصينية ، وهنغاريا ، وسيناء ، يمكن أن تتكرر الى ما لا نهاية دون تعريض العالم الى خطر نشوب حرب عالمية .

ومن المنتظر أن يكون للاسلحة النووية تأثير على السياسة الداخلية للدول . ولكن العمل لا يكون على جانب واحد في علم الاجتماع . فهو يشتمل على تقلبات وردات لا يتوقعها أكثر علماء الجدلية حنكة وذكاء . وهكذا تطابق تأسيس الديموقراطية مع مفهوم الامة المسلحة التي تجند ملايين من المقاتلين المجندين مجانا ، على عكس مفهوم الجيوش المحترفة في النظام القديم .

ولكن دخول هذه الجيوش المشكلة من المدنيين الحرب يتطلب اعدادا نفسيا للمقاتلين . وينبغي أن نفعمهم بشحنة محركة ، لانها الشرط الضروري لتصميمهم ووعيهم التام . ان حرب الجماهير هي التي جعلت تمرد الجماهير ممكنا . ويحتاج الجيش الذي تجند عناصره عن طريق الخدمة الالزامية بالضرورة الى مشاركة كل المواطنين في ادارة الدولة .

وعلى العكس ، ان السلاح الذري جاهز دوما بين يدي بعض الاختصاصيين . وهناك خطر من عدم امكان المحافظة على توازن القوى الذي يستند اليه مبدأ فصل السلطات . وتنزع احدى السلطات الى امتصاص السلطة الاخرى ، كما يحدث دائما في فترات الخطر الكبرى — وهذا الخطر ماثل يوميا في العصر الذري .

* * *

لقد عرض الجنرال بوفر [1] في كتابه الرائع فكرتين أساسيتين :

١ — استحالة وضع استراتيجية « معقولة » مع وجود الاسلحة الذرية .

٢ — الاهمية المعلقة على الاعمال الصغرى .

---

(١) يقصد المؤلف كتاب الجنرال اندريه بوفر « **مدخل الى الاستراتيجية العسكرية** » — منشورات دار الطليعة — بيروت . ولبوفر أيضا مؤلفان آخران عن الاستراتيجية — نشرتهما دار الطليعة — بيروت .
— المعربان —

ومع ذلك فان هذه الاعمال القاصرة ليست ممكنة الا عندما يرضى الكبار • « اتركوا الصغار يلعبون » • ولكن اذا ضرب أحدهما الآخر ضربا مبرحا ، فان أهله يغضبون • ونعود الى المعضلة ذاتها : الى أي **مدى يصل الخوف الشال ، وهو اساس « الردع » ؟**

وبمرور الزمن ، ستكون الازمات الدولية الخطيرة مشابهة للعبة البوكر • فالى أي مدى يمكننا معرفة ما اذا كان الخصم « يبلف » يخادع ويتظاهر ؟ والى أي مدى يمكننا أن نندفع ولكن بوسعنا أن نجازف ونقبل تحدي الخصم في لعبة البوكـر • ولكننـا لا نستطيـع أن نجازف في الاستراتيجية الذرية وأن نقبل الرهان ، ولا يمكن أن نعرف شيئا الا اذا تعرضنا لخطر رئيسي كما جرى في كوبـا •

وأشار الجنرال بوفر الى نهاية الاستراتيجية الكلاوزفيتزية وكـان على صواب في هذه الاشارة • ولكن ما الذي يحل أو سيحل محلها ؟

ان الحرب الهتلرية نفسها لم تسر على الاستراتيجية التي رسمهـا كلاوزفيتز • فقد كانت استراتيجية كلاوزفيتز استراتيجيـة « حـروب الملوك » ذات الهدف المدروس والمحدود ، والاخطار المحسوبة • وكان هتلر مغامر الرومانطيقية الجامحة ، جن بنشوة « كل شيء أو لا شيء » •

* * *

ويسود اليوم اضطراب كبير لدى الاستراتيجيين ولدى رجـال الدولـة •

فلأول مرة في التاريخ لا تخدمهم دراسة الماضي ولا تفيدهم في قليل أو كثير • فليس هناك من درس يمكن أن يتعلموه من معركة كان أو اوستيرليتز • فقد قوض التطور التقني كل شيء وقضى على التكتيك والاستراتيجية •

وينبغي الافادة من هذه الفترة الزمنية (التي تقع تحت رحمة اختراع تقني آخر) والتي تبدو الحرب خلالها في هذا الزمن طريقا غير ميسور بصورة أقرب الى المعجزات ، لنحاول اعداد **ادانة تفاقم النزاع** •

* * *

وستصبح السياسة العليا ، تلك السياسة التي تستهدف التفوق

بالسلاح الذري ، لعبة نفسية • وستقتصر قممها ولحظاتها الحرجة على السؤال التالي ••••• « هل سيتجرأ الخصم ••••، أو لا يتجرأ ؟ ••••»

وقد فهم الجنرال ديغول هذه الحقيقة بصورة تدعو الى الاعجاب عندما رد على فينوغرادوف (مقال اندريه فونتين في صحيفة لوموند بتاريخ ٣١ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٣) عندما رفع في يوم من الايام نغمة التهديد متحدثا عن برلين ، فرد عليه ديغول بما يلي : « حسنا ، يا سعادة السفير ، سنموت معا •••• »

وينتج فجأة عن تفاوت النسبة بين الاختراعات التقنية والاختراعات الاجتماعية نتيجة غير متوقعة : بعد ان وصلت القدرة على الايذاء التي حققتها التقنية الى ذروتها القصوى فالكلام الآن للعلوم البشرية ، ولعلم الاجتماع ، ولعلم النفس بالرغم من بقاء كل هذه العلوم في مرحلة أولية •

* * *

لقد خاض جزء كبير من زعماء أوروبا حاليا حرب عام ١٩١٤ وخاض الزعماء الاصغر منهم حرب عام ١٩٤٠ • وتطبع زعماء هاتين الحربين بسماتهما وميزاتهما • ولكنهم يتسمون كلهم من ناحية أخرى بعقدة العفة ازاء السلاح الذري • ونحن نستغل هذا ونفيد منه (فنحن نعيش بعد كل هذا من وقف تنفيذ الى وقف تنفيذ • وكان ترومان رجل الدولة الوحيد الذي استعمل هذا السلاح ، مع أنه من أكثر رجال الدولة بساطة وتواضعا كما يبدو • فقبل ان ينجح في السياسة كان قد أفلس في ادارة مصنع صغير للقبعات • وهكذا نجد أن أكثر الاسلحة تعقيدا ومأساوية وجهنمية وعظمة ، واغراء ورعبا ، لم يستعمله رومانطيقى ، وانما استعمله رجل يملك أنفه حس سليم • وكانت الآلهة تسخر عندما استخدمه •

وهكذا نرى الى أية تناقضات يؤدي تحري الوضع الناشيء عن الاسلحة النووية اذا تمسكنا بالمفاهيم التاريخية ومفاهيم السياسة التقليدية •

ومع ذلك فان الصراعات الدولية والتسليح لا تصبح فعالة وقوية الا عندما تتطابق مع الجموح الجماعي العدواني • فالانسان هو الذي يقتل ، أما الاسلحة فانها ليست سوى أدواته للقتل • ويمكن للانسان أن يحتفظ

بأكثر الاسلحة فتكا دون أن تكون لديه الرغبة باستخدامها . وليس هناك من خلاف ، لا يمكن حله بصورة ودية ، اذا ما عولج بدون انفعال أو غضب [1] .

ولكن نفس الدوافع التي تجعل الرأي حليما وهادئا في خلاف من الخلافات ، تستطيع ، عندما تجتمع بعض شروط البنية وبعض الافتراضات، اشعال هذا الخلاف وتأجيجه وتحويله الى خلاف يستعصي على الحل . وهناك بين الدول مظالم قديمة تهدأ أحيانا ، وتستيقظ أحيانا أخرى كالبركان الذي ينفجر دفعة واحدة . وعندئذ يتم حوار الطرش ، ويصبح السلم معرضا لاكبر الاخطار . ان الانفعال السياسي ينبثق عن الظروف .

* * *

وسوف تتوصل عشرات من القرون الحافلة بالاخفاق ، في يوم من الايام ، الى اقناعنا بأننا لن نقضي على الحرب بالنوايا الطيبة . فقد اتبعت النزعة السلمية التقليدية طريقا خاطئا في بحثها الجدير بالتقدير عن السلم . فاختارت طريق أقل جهد ممكن ، وهي مخدرة بالتعليل العرضي للنزاعات ،وأهملت الاسباب العميقة للجموح الجماعي الذي يحول أتفه الحجج والمبررات الى حجج قاطعة أحيانا .

وقد حان الوقت لطرح المشكلة الحقيقية . ألا تصبح الحرب كالحمى ، الظاهرة الخارجية أو الدلالة المرضية الوحيدة على الاضطرابات والاختلالات المتنوعة ؟ ولكن أسباب المرض أسباب أخرى ، ومن المهم التفتيش عنها بصورة منهجية . وقد توهم الناس حتى الآن أنهم يملكون المعرفة الفطرية « بظاهرة الحرب » . ويعتقد البعض أيضا أن الحرب أداة طوع أمر الشعوب والحكومات . الا نجد هنا المجال لقلب التعابير والافكار القائلة بأن الانسان هو لعبة الحرب ؟ ان الحرب تصعد الى رأس الشعوب

---

(١) هذا الرأي قابل للمناقشة ، ولا يمكن أن ينسحب على كل النزاعات التي يستحق هدف الرهان فيها المخاطرة . فالمظالم التي تحس بها بعض الشعوب التي اغتصب اجزاء من ارضها كفلسطين مثلا تدفع بشعبها الى عدم قبول أي حل ودي .

ـــ المعربان ـــ

وقادتها كما تصعد الخمرة الى الرؤوس ، وتغطي الحس النقاد وغريزة المحافظة على البقاء ، وتنسي الاهمية النسبية للجمازفة والخطر .

وهكذا فالمسألة في رأينا اجتماعية أكثر منها سياسية . ومن الافضل لنا ان نهتم بحل مسائل الروح العدوانية الجماعية ، التي تقرر استخدام السلاح أكثر بكثير من اهتمامنا بمشكلة السلاح ونزعه أيضا . ولهذا كانت مؤتمرات السلم ، ومؤتمرات نزع السلاح مليئة بالاوهام والخديعة . لان كل دولة مقتنعة بأمانة بأن سلاحها دفاعي ، في حين ان سلاح الدولة المجاورة سلاح هجومي ، وان السلم ينبغي أن يكون سلمها .

وتكمن المأساة في الحقيقة في هذه الامانة المخيفة . فالحرب وباء اجتماعي : ولا يمكن ايقاف الطاعون ومنع انتشاره بعقد المعاهدات والقاء الخطب . فلقد رأى التاريخ بصورة دورية تصادم ديناميكيات (فعاليات) عمياء ومتنافرة . ومن المهم أن نرتب وننسق الطاقة التوسعية للشعوب ، التي تزداد اليوم بصورة خطرة في عالم تضيق رقعته يوما بعد يوم . ان البشرية مهددة بالهلاك بسبب الافراط في الحيوية . ويجب أن يتم نزع السلاح على النطاق الاجتماعي والديموغرافي (السكاني) والا فانه لن يتم أبـــدا .

الفصل الثاني عشر

التعايش السّلمي

بعد حرب عام ١٩١٨ راود الشعوب أمل بأن هذه الحرب هي آخر الحروب . وتبدت معاهدة فرساي ، وهي ثمرة هذه القناعة ، وكأنها ميثاق عالم جديد . فوزعت الاراضي، ورسمت الحدود ،وبعثت القوميات المضطهدة المنصهرة . واعتقد واضعو هذه المعاهدة أنهم سووا كل النزاعات ، ووضعوا حدا نهائيا للمنافسات القائمة بين الدول . ومما لا شك فيه انهم اضطروا فيما بعد الى التخفيف من غلوائهم . بيد أن الوهم بعالم يسوده السلم بقي مدة طويلة حلما يراود أحلام الشعوب . وأكبر دليل على ذلك أن الرأي العام فرض على الحكومات المنبثقة عن انتخابات عامة (اثناء الاستفزازات الهتلرية) اتباع سياسة سلمية الى آخر حد من حدود العمى .

وكان الوضع النفسي بعد عام ١٩٤٥ مختلفا كل الاختلاف . ويبدو أن انتهاء الحرب قد ترك الشعوب ظمأى ، ومحرومة من احلامها في المجد أو من آمالها في معاقبة الذين أشعلوا الحرب ، وخابت هذه الآمال في تحقيق الاهداف التي لم ينجح أحد في تحقيقها . وبالاضافة الى هذا ، ساد مناخ الحرب الايديولوجية المقدسة ، أكثر مما كان سائدا في عام ١٩٤٠ : وانفجر ضغط هذا المناخ في كل الامكنة ذات المقاومة الاقل . وابتدأت هذه الحرب في اليونان ، ثم بدأت من جديد وفورا في مكان آخر ، واستمر الوضع على هذا الشكل ، وقفز الانفجار من قارة الى أخرى في عالمنا الضيق .

وأحس جميع الحكام بهذا الوضع كما أحست به الشعوب ووعته حتى أن أحد لم يغامر بتسميته أو اطلاق أي نعت من نعوت السلم عليه . ومن الناحية القانونية ، لم تعقد اية معاهدة سلم بارزة منذ عام ١٩٤٥ . فلقد كانت خيبة الامل التي أعقبت معاهدة فرساى قاسية وجارحة ، كما كانت أوهام هذه الفترة كثيرة التكاليف . فقد كلفت البشرية بصورة خاصة خسارة ثقتها بحكمتها الخاصة وبسلم المعاهدات والاتفاقات .

وبعد عشرين سنة ، بقيت البشرية في وضع موقت مشبع بالتهديد . ومن المؤكد أن عدد الذين كانوا يؤمنون في الماضي باحتمال استتباب سلم دائم ، عدد قليل . ولكن نوعا من الثقة بفضيلة النزاعات المسلحة المهدئة كانت تسود على الاقل . حتى المواجهات الايديولوجية ، والحروب الصليبية ، وحرب الثلاثين عاما ، حتى هذه الحروب والمواجهات أعقبها فترات طويلة من السلم . وفي ظرفنا الدولي الراهن اليوم ، لا يتجرأ أحد على التفوه بهذه الكلمة . ولا يتجرأ البعض على التفوه بها بدافع التشاؤم، في حين لا يتجرأ الكثيرون بدافع الحياء، لاننا محاطون جميعا ببؤر عدوانية. وقد اخترعوا كلمة « التعايش السلمي » ليسموا هذه الحالة الوسيطة بين الحرب والسلم . وتدل هذه الكلمة على ما يبدو أن الهدف الوحيد المتواضع الذي يمكننا تحقيقه في الوقت الحاضر ، هو كسب الوقت .

* * *

ان علم دلالات الالفاظ مليء بالتعاليم ، لانه يكشف أعماق قلوبنا . ويظهر قبول الكلمات ، وولادة تعابير جديدة تطور آرائنا ومعتقداتنا بصورة أفضل مماتظهره أفضل التحقيقات الاجتماعية . فاذا استبدلت كلمة « السلم » المريحة والمهدئة ، بكلمة أخرى تعبر عن الشيء ذاته ، أي اذا عبرت الكلمة الجديدة عن وجود الحرب « بالحرب الباردة » أو بكلمة « التعايش السلمي » وهي كلمة أفضل ، فان كل هذا الاستبدال يكشف الفوضى العامة ، وضعف الايمان بالسلم ، والسلم الموقت أيضا .

ان هذه التعابير الجديدة تعني أو بالاحرى تضمر شيئا رهيبا : فالخصوم في الحقيقة ينكرون على بعضهم بعضا الحق في البقاء والوجود. ويقول كل واحد منهم لخصمه : « ان وجودك اهانة ، ولا بد من وجود

حرب أبدية بيننا ، ولكنني امتنع عن خوضها موقتا بانتظار فرصة أفضل» . وتكشف الخلفية النفسية لهذا الوضع خليطا من عقليتي الحرب المقدسة والابادة الجماعية مجتمعتين .

* * *

ومع ذلك ، ومهما كان الرأي العام في هذا المجال ، ومهما كان ايمانه صلبا الى حد ما بالسلم الدائم ، فالحقيقة هي أن التاريخ بلغ أوجه دوما في المواجهات الدموية للجماعات الحاكمة . وينبغي أن لا نفهم من هذا المواجهات الدموية بين الحكومات النظامية فحسب ، بل مواجهات كل الجماعات القادرة على التسلح والذهاب الى الحرب . ولا أهمية كبيرة في هذه النقطة للوضع القانوني : فالشيء الوحيد الذي يعتد به أمام علم الحرب (علميا واجتماعيا) هو الامر الواقع . فسواء اكانت تسمية الحرب دولية ، أهلية ، أو تشتيتية [1] ، امبريالية أم مثالية ، فان الواقع الموضوعي باق . ويبقى معيار الجماعات المهيمنة والحاكمة ، مهما كان اسمها هو قدرتها على التسلح كما تريد ، واللجوء من ذاتها وبصورة وحيدة الجانب الى العنف والى الابادة الجماعية المنظمة .

ان « الهدوء » بين الجماعات المهيمنة ، سواء اكان هذا الهدوء وضعا شرعيا ، تحكمه المعاهدات ، أو امرا واقعا هو تعايش سلمي . وقد كان المعاصرون الذين اختاروا هذه الكلمة المتحررة من الوهم يتمتعون برؤية واضحة وفهم جيد للوضع الذي نعيش فيه . ولكن لا بد من تعميق هذا المفهوم . لانه يبدو في بعد نظره أكثر خصبا وفائدة من مفهوم السلم الغامض والملتبس الى حد كبير .

* * *

ولا يملك علم الحرب مادة للبحث والتنقيب الا في التاريخ والاحصاء. وان فنون التحقيق ، التي تستطيع أن تقدم كثيرا من الاشياء في ميادين

---

(1) ربما كانت الحروب التشتيتية انتفاضات تحررية . فعلى كل حال هذا التعبير تعبير غربي يقصد به كل حركات التحرر الوطني المضادة للاستعمار الامبريالي .

ــ المعربان ــ

أخرى ، هي مخيبة للآمال في علم الحرب • لأن الرأي فيه متبدل • وخاصة وأن هذا العلم يناقض بصورة شبه دائمة السلوك الحقيقي للحرب • فالرأي « غير المعني بالعدوان » سلمي دوما • الا أن هذا لا يمنعه من الانجرار في الحرب والانتقال من الوداعة والصبر الى السخط العدائي • فسرعان ما يعود الانسان الشرس[1] الى الظهور مع موكب النماذج المثالية المحبة للحرب • وقد قال جان جيرودو ما يلي : « عندما يتكلم الرجال عن آلهتهم وعن أجدادهم ، فان ذلك يعني ان الحرب قريبة • »

ذلك لان كل المقاتلين ، مهما كانوا ، يحسون بالحاجة الى الارتباط بالتاريخ ، ويصرحون دوما بأنهم ينتمون الى سلالة بعيدة من الاجداد الذين قادوا كثيرا من الحروب • وهكذا يتحدد تسلسل أعمال العنف من فوق فترات الهدوء ، التي تتناوب معها •

وبوسعنا معارضة هذه السيطرة المنسوبة للتاريخ وتقديم كل الاعتراضات الموجهة اليه منذ زمن طويل • ومما لا شك فيه أن هذه الاعتراضات تبقى صالحة فيما يتعلق بفرض نوايا واطماع أصحاب الادوار الاولى في النزاعات ، ومساوماتهم • ولكن الى جانب هذه الاجزاء التي يمكن تأويلها والمؤلفة « من أكاذيب الحياة الداخلية » هناك الواقع الثقيل للاعمال الحربية ، وللمعارك التي تؤكدها ، وقصص التدمير والخسائر ، ونهاية كل نزاع من توسع في الارض ، وهزائم ، وانتصارات ، وتبدلات في الهيبة والنفوذ ، والقوة والمنزلة •

هذه هي الحوادث والوقائع التي تشكل حقيقة الاعمال الحربية وأشرس صفحاتها بالنسبة للتاريخ • وهي ليست صالحة للتأويل والتفسير أبدا • فهي تطفوا وتسيطر على كل الجزء « الشفهي » من المفاوضات والآراء • وهنا يكمن على سبيل الاحتمال سبب الهيبة والنجاح الابدي « لتاريخ ــ المعارك » • لان هذا التاريخ هو الوحيد الذي يعطي الاحساس باليقين في معرفتنا بالماضي بشراسة تعاليمه ووضوحها •

وسنحاول في الصفحات التالية التفتيش عما كان عليه التعايش السلمي منذ الازمان القديمة حتى أيامنا هذه ، وسنتحرى أشكاله ،

(١) Homo Furious

ومظاهره ، وشروطه ومناخه الاجتماعي • وكيف تطورت كل هذه الاشكال والمظـاهـر •

عُرّف السلم بأنه : « عدم وجود الحرب » • ولكن هذا التعميم الذي يرضينا جميعا لا يكفي لتعريف السلم • لان السلم ليس متماثلا في كل الحالات • فكل سلم يوافق أوضاعا سياسية واجتماعية معينة ، وظروفا مختلفة أشد الاختلاف • وبكلمة واحدة هناك نماذج مختلفة من السلم ينبغي علينا أن نستخلص النماذج الرئيسية منها •

منذ فجر التاريخ ، ونحن نرى بعض المناطق المصونة والمحمية تنبعث وسط تعقد المعارك القبلية وتشابكها ، وعمليات الهجرة • وفي كل منطقة منها تمكنت حضارة من الحضارات من النمو والتطور بهدوء نسبي •

ومع كل هذا فنادرا ما توافق هذه الفترات المميزة سلما كاملا • ويسود فيها ما نسميه اليوم بالتعايش السلمي ، ولكنها سليمة تقريبا لا سلمية تماما . أي أن مجموعات الدول المستقلة المشكلة لهـذه المناطق المحمية والمصونة قبلت مبدئيا الحق بوجود بعضها ، ولا تحاول الواحدة تدمير الاخرى ، كما لا تحاول أن تغزو احداها الدولة الاخرى • ولكن هذه الوداعة لا تمنع اللجوء الى الحرب في حالة النزاع • وكانت هذه الدول ، اذا جاز لي هذا القول ، تشكل **مجتمعات ذات أعمال عدوانية محدودة** •

التعايش المتعدد الرؤوس (١)

يوافق التعايش المتعدد الرؤوس مجموعة مـن الدول المستقلـة المتعددة المرتبطة فيما بينها باتفاقات واضحة أو ضمنية تحدد النزاعـات المسلحة أو تمنعها قدر الامكان •

وتظهر التجربة أن هذا النموذج من « المنطقة السلمية » يتطلب في أول الامر وحدة في الحضارة ، وايمانا بالقيم ذاتها • وان أقدم الامثلـة المعروفة بصورة أفضل من غيرها هو العالم الاغريقي خلال الفترة الممتدة

---

(١) Les coexistences multicéphales ويقصد به التعايش الذي تواتر كما جرى في بلاد الاغريق .

ــ المعربان ــ

من نهاية غزوات التاريخ القديم التي تدفقت على اليونان حتى حرب البيلوبونيز .

ولا تمنع القاعدة التي كانوا يتقيدون بها جميعا استخدام العنف في العلاقات بين المدن . ولكنها كانت تفرض **الحرب المهذبة** . وكان قطع المياه عن المدن المحاصرة ممنوعا ، كما كان نهب المدن المحتلة ممنوعا أيضا . ولا يمكن استرقاق الاسرى . وكانت الهدنة تسمح باخلاء غير المقاتلين ، والجرحى والمرضى . وكان الحجاج كما كان الذاهبون الى الاحتفالات العامة مقدسين كل التقديس . وغالبا ما كانت هذه الالعاب ذاتها فرصة لهدنات تفرض تكريما للآلهة . وينتقل الاحترام ذاته الى السفراء والى الوفود السياسية ، حتى أنه ينتقل أحيانا الى الوفود السياسية المعادية . وأخيرا ، كانت المجالس الخاصة ، ومنتديات المدن ، تسهر على احترام هذه القوانين وتتقيد بها ، وتحكم في النزاعات .

كانت هذه القواعد ، في العالم القديم ، متعارضة تماما مع العادات الشرسة للحرب التي كانت تشتمل على تدمير المدن ، ونهبها ، وذبح السكان واستعبادهم . ويزخر التاريخ القديم بالحوادث التي يذبح فيها سكان المدن المحاصرة نساءهم واولادهم خوفا من أن يتحولوا الى أرقاء قبل أن يستقلوا وينتحروا في آخر مواجهة مع الخصم .

وكان النظام الاقطاعي هو النموذج الثاني من التعايش . وقد ظهر تدريجيا بعد الفترة المضطربة للغزوات البربرية . ونشأ بهذا الشكل نظام من القواعد والعادات ، مستند الى تسلسل وراثي في الالقاب ، ومناطق النفوذ ، والمخصصات العسكرية والاقتصادية . وهكذا وجدت الحرب المهذبة من جديد ، وتحت شكل جديد ، عبر الفروسية في النظام الاقطاعي القديم ، هذه الحرب التي كانت سائدة في اليونان قبل خمسة عشر قرنا .

وحاولت الكنيسة جعل هذه القواعد أكثر فعالية لحماية الفلاحين باقامة « الاشهر الحرم » ، وبانشاء الاماكن المحرمة والمصونة : أديرة الاسقفيات ، والاديرة الصغيرة ، مدارس الرهبان ، الكنائس ، الحرمات المقدسة . وفرضت حماية الحجاج الذين كانوا يجتازون أحيانا أوروبا

كلها كما كان يحدث عند الحج الى دير القديس يعقوب الكومبوستولي.

وتوافق هذه الفترة أيضا وحدة الحضارة ، كالسلم الاغريقي . وهناك الاجماع ذاته في المعتقدات : فقد كان للفارس ورجل الكنيسة نفس ايمان القروي البسيط . ومما لا شك فيه ان العنف ، والقرب من الاصول والعادات البربرية قد انبعثا من جديد في بعض الاحيان في انفجارات مرعبة . ولكن تبعتها توبات وتمنيات غطت أوروبا بالنظم التذكارية التي تدل على الندم . وسهرت الهيئات الكهنوتية على احترام هذه الاتفاقات ، كما في اليونان .

* * *

وقبل أن نتابع البحث عن « نماذج السلم » هناك ملاحظة تفرض نفسها على البحث . هذه الفترات لم تكن ، كما رأينا ذلك ، سلمية تماما . فقد تم كل شيء كما لو انهم اكتفوا بحجز الحرب وتخفيف آثارها بعد أن وجدوا أن الحرب متنفس حتمي . ولكنهم جعلوا الحرب أمرا مقبولا في الوقت ذاته . ومن الممكن مضاعفة تواترها دون تعريض المتحاربين لخطر التدمير الشامل .

وهناك سمة مشتركة أخرى : فلقد تطابقت هذه الفترات السلمية النسبية مع البنيات الارستوقراطية . وكان الجنود اليونانيون ، وكلهم من النبلاء والاشراف ، يذهبون الى القتال مصحوبين بأتباعهم المخصصين لخدمة الاسلحة . وكان المحاربون ، في المدن ذات البنية القديمة ، كاسبارطه مثلا ، يشكلون طبقة كطبقة النبلاء العسكريين في القرون الوسطى المسيحية .

وغالبا ما اتخذت الاعمال الحربية التي تقودها نخبة متميزة ، متشابهة في الاخلاق والتربية ، صفة الرياضة الخطرة ، المشوبة بالتحديات ، واستخدام الثروات في التجهيزات والسلاح والدروع . كانت الحرب امتياز الطبقات الحاكمة ووسيلة من وسائل ترفها ورفاهها . وكانت بورجوازية المدن التجارية كقرطاجة وفينيسيا أو انفرس تسارع الى منح نفسها امتيازات عسكرية . وارتبط الفرسان في كل مكان بالبنى القبلية .

ونجد الفرسان في مختلف الحضارات ، في الصين ، وفي الهند ، وفي اليابان ، وفي المكسيك ، وفي بولينيزيا ذاتها .

وهناك سمة أخرى مشتركة : اذا كانت الحرب بين الفرسان وجيوشهم حربا مهذبة ، واذا كانت المدن محترمة بصورة عامة حتى اثناء الحصار والانقضاضات ، الا أن الامر لم يكن كذلك في البلدان المسهبة وفي بلدان الفلاحين . فلم يكن المقاتلون يمتنعون عن اتلاف المزروعات والاشجار المثمرة ، ونهبها وازعاج الاقنان وارهاقهم .

التعايش المتكاثر الرؤوس (١)

أدى الانتقال من النظام الاقطاعي الى النظام الملكي في أوروبا الحديثة الى نموذج جديد من « التعايش شبه السلمي » . انه تعايش الممالك الكبيرة التي مازالت باقية حتى يومنا هذا .

وينجم النظام الملكي من الناحية القانونية من تعزيز مبادىء الاقطاع وتطبيقها بصورة أقسى . وفي البدء ، كانت المراتب الاجتماعية للاقطاعات والاشخاص غامضة ومائعة . ولكنها عندما توضحت وتحددت أصبحت كالهرم تشكل السلالات الملكية قمته . وهكذا حدثت مركزية سياسية في بعض المناطق الجغرافية الكبرى ، وفي مناطق القوميات ، وساعدت التقنية العسكرية الجديدة على ذلك .

ولكن الحرب ، في الوقت ذاته ، لم تعد صغيرة مبعثرة قليلة الاهمية **فقد كسبت في الوزن ما خسرته في التواتر** . وهناك شيء غريب اذ حدث تطور مماثل في الجانب الآخر من القارة القديمة عندما استبدل الاقطاع المنتشر ، في الصين ، الذي يتوافق مع ميلاد الطاوية[٢] « بالممالك المحاربة وهي دول متنافسة خاض بعضها كثيرا من الحروب ضد البعض الآخر » .

* * *

وهكذا فان السمة الخاصة بالعهود الاقطاعية هي تعايشها الوثيق مع

---

(١) Les coexistences pluricéphales

(٢) الطاوية ــ فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصيني ــ القرن السادس قبل الميلاد .

ــ المعربان ــ

الحرب في كل فترة بقائها ٠ واستردت جزءا من توترها بانتشار مسارح العمليات وضيقها ٠ وكانت البزة العسكرية هي التي تبرر الحصول على الامتيازات الاقطاعية ٠ ودخلت المدن اليونانية ومدن العصور الوسيطة في النظام الاقطاعي : فقد كانت المدن قصورا جماعية ٠

وعندما كانت دولتان يونانيتان صغيرتان تدخلان في النزاع ، كانت الاعمال الحربية مقتصرة على اراضيهما الصغيرة ٠ وتبدلت الامور عندما نمت مدن قوية ذات اتجاه توسعي استعماري كآثينا ، وعندما نشأت الاحلاف القوية ٠ كما أحدث تركيز الاقطاعات ومناطق النفوذ تحت سلطة الاسر الحاكمة الكبرى نتائج مماثلة في نهاية القرون الوسطى الاوروبية ٠

واذا ما تابعنا بحث الحالتين المشخصتين لليونان ولاوروبا الاقطاعية لاحظنا أن تطورهما النهائي كان مختلفا تمام الاختلاف ٠ فبعد أن انقسمت اليونان الى حلفين متنازعين لم تنهض من حربها الكبرى ، وابتلعتها الامبراطوريات الاجنبية المتعاقبة في نهاية الامر : الامبراطورية المقدونية ، والرومانية ، والبيزنطية ، والعثمانية ٠

وأفسح الاقطاع الاوروبي بدوره المجال لسياق التجمع ٠ فقد توصلت السلطة المباشرة للعاهل الرئيسي الى امتصاص الدول الصغيرة صاحبة السيادة من بين الدول التابعة له والتي تدور في فلكه ٠ وأفسحت المجال بهذا الشكل لولادة الحكم الفردي ٠

وقد سمح الحق الوراثي للعرش في الاسر الملكية في عدد من الحالات في انهاء هذا التجمع دون الاحتكام الى السلاح والزامه ، بفضل الزواج والوراثة ٠ وهكذا نجد مقاطعات الدوفينه ، وبروفانس ، وبريتانيا ، وشامبانيا ، واللورين تنضم الى الدولة الملكية ٠ وفي اسبانيا ، كانت عمليات زواج ملوك الكاثوليك خاتمة توحيد المملكة ٠ ووحدت وقائع مماثلة انجلترا بايقوسيا ٠ وفي الفترة ذاتها ، لم تتمكن ايطاليا من اتباع الثورة المركزية ذاتها : فقد كان وجود جمهوريات اقليمية ، كما كانت سياسة الكرسي البابوي تجعلها مستحيلة ٠

* * *

ومع ذلك فان سياق توحيد الملكيات الاوروبية كان محدودا بمبدأ

القوميات قبل أن تتخذ شكلها النهائي . ويضاف الى ذلك وجود حدود طبيعية تفصل بين المجموعات القومية الكبرى . ونادرا ما تمكن توحيد الاسر الحاكمة ، الذي كان فعالا بين السلالات القومية ، من الاستقرار وسط الامم المختلفة : وأكبر مثال على ذلك هو امبراطورية شارل كنت التي لم تستمر الا جيلا واحدا . وأخفقت أيضا مطالب أسر ملوك انكلترا في عرش فرنسا بعد قرن من المعارك .

* * *

وهناك سمة ظاهرة بشكل خاص في التطور السياسي لاوروبا ، وفي التطور السياسي للصين . فقد بدأت الملكيات الموحدة والمنظمة ، فورا ، بعهد طويل من « الملكيات المحاربة » . وانتهى هذا العهد في الصين بالانتصار الشامل للامبراطور الاول الذي وحدها بالقوة .

وفي أوروبا بدأت فترة الحروب الملكية ابتداء من عصر النهضة . وتضمن هذا العهد عدة حروب محدودة ، كانت تدور بصورة عامة بين دولتين . ولكنها كانت تتسم بصورة خاصة بالهيمنة والتسلط . وكانت هذه الحروب تحدث تقريبا مرة في كل قرن . ومن المفيد أن تتذكرها لاننا ما زلنا نحتفظ بذكرياتها المؤلمة : السيطرة السياسية ـ العسكرية الاسبانية في القرن السادس عشر ، ثم السيطرة الفرنسية ، ثم الانكليزية ، ثم السيطرة البروسية من عام ١٨٧٠ الى عام ١٩٤٥ . ولكن كل هذه المحاولات أخفقت في ابتلاع الدول الاخرى . لان مبدأ التوازن الاوروبي الذي كان القاعدة الكبرى غير المكتوبة للسياسة الغربية ولد في الوقت نفسه ، بصورة عفوية . وكانت « المجموعة الاوروبية » مصممة كمجموعة من الدول صاحبة السيادة ، تشكل كل دولة منها وزنا مضادا للاخرى . ولكن هذه المجموعة لم تضع حدا نهائيا للنزاعات المسلحة ، بل حددتها .

وعندما كان أحد اعضاء المجموعة يتجاوز حدوده ، كانت المجموعة تتعصب وتتجمع ضده لتعيده الى جادة العقل والصواب . وكان **التحالف** هو الاداة التقليدية لمحاربة تطرف الروح الديناميكية العدوانية . وقد تم القضاء على كل محاولات السيطرة على أوروبا بواسطة تحالفات متتابعة .

ومع ذلك لم يؤد تقسيم اوروبا الى دول قومية كبرى الى نتائج

مؤلمة بالرغم من المعارك التي تمت بينها ، فقد احتفظت هذه الحروب ، في انتشارها العام وشيوعها ، بميزات الحرب المهذبة • فقد كان شرف الضباط المنتمين الى الطبقة النبيلة العامل الاساسي في التقيد بانضباط صارم في المعارك • ومن جهة أخرى فرض ما سماه المؤرخ س• فريرو « دولية البلاط » المؤلفة من أسر حاكمة ، تتشابه بعضها مع بعض ، وترتبط بعلاقات شخصية ثابتة ، فرض هـذا الوضع التزام الجميع بالاعتدال • حتى أن الجيوش النابليونية ذاتها تقيدت بهذه العادات • فلم تنهب أو تدمر أية مدينة في الحالات العادية دون مبرر « على البارد » ، ولم تعدم الرهائن ولا الاسرى ، كما لم تحدث مذابح ولا وقع نفي لغير المقاتلين •

وكان الامر على هذه الشاكلة في أوروبا حتى حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ضمنا • وكانت هذه الحرب آخر الحروب المهذبة ، التي جعلت تعايش مجموعة من الدول صاحبة السيادة ، والمتمتعة بالحق المطلق باعلان الحرب على هواها ومشيئتها في كل لحظة ، وضد من تريد ، أمرا مقبولا • لان تقنية الاسلحة الجديدة ، في غياب رجل كهتلر ، تستبعد بعد الآن امكانية التقيد بالتمييز بين المقـاتلين والمدنيين ، في دول متجاورة وذات كثافة سكانية كبيرة ، كما تستبعد احترام المناطق أو التجمعات المحرمة • وربما كان بوسعنا أن نستنتج أن عصر التوازن الاوروبي قد أصبح تاما وكاملا لهذه الاسباب ، المادية أكثر من المثالية •

ومع ذلك ، فان مما يلفت النظر أن نلاحظ قارتين كبيرتين في الوقت ذاته هما امريكا اللاتينية وافريقيا ، تنظمان أنفسهما علـى أسس مماثلة لاسس المجموعة الاوروبية القديمة •

الفصل الثالث عشر

التعايش[٧]
والخصومة بين طرفين

مقابل السلم النسبي ، أو بالاحرى مقابل النزاعات المحدودة لمجموعات من الدول المستقلة ، نجد السلم الشامل الذي يسود عندما تسيطر سلطة واحدة على « عالم جغرافي » مفصول عن بقية الاراضي المسكونة بحدود طبيعية لا يمكن اجتيازها تقريبا (كالمحيطات ، والجبال أو الصحارى) .

فما هي التطورات التاريخية التي سمحت بفرض السلم على الجميع ، وسيطرت في نهاية الامر على الاختلافات والتباينات ، والمصالح المتباعدة ؟

تنشأ الدولة الواحدة عن مفهوم أكثر طموحا . ويتمتع تصورها وتصميمها بقيم متضادة ومتكافئة : تنشأ الرغبة برؤية دولة وحيدة تمتص كل الدول الاخرى عن المثالية الصافية والمتفائلة . ولكن هذه الامنية هي أيضا الحجة التي يتذرع بها أكثر الامبرياليين شراهة ، وأكثر الفاتحين ضراوة وعنفا .

ويقدم لنا التاريخ عدة نماذج للدول الموحدة . وقد تمكنت كل دولة منها من الامتداد الى الحدود الجغرافية لعالمها .

ويبدو أنه لا وجود حتى الآن لمثل تاريخي لدولة موحدة نشأت بصورة سلمية . وتتم عملية التوحيد بصورة عامة على مرحلتين . في المرحلة الاولى ، تتوصل الدولة ، بعد سلسلة من النجاحات الى اخضاع جزء واسع

من الاراضي التي كانت تتمتع بالسيادة • وعندئذ تصطدم بدولة أخرى ، نجحت هي أيضا ، في العالم الجغرافي ذاته ، في التطور بصورة مماثلة • أي أن عمليـة التوحيد تؤدي في بادىء الامر الـى انشاء دولتين كبيرتـين متنافستين تدعي كل منهما بالتفوق والسيادة •

وكانت النزاعات الثنائية هي أكثر الاوضاع عدوانية في التاريخ • وكانت نهايتها مختلفة كل الاختلاف تبعا لما اذا كانت احدى الدولتين المتنافستين الكبيرتين قد نجحت في سحق الاخرى أم لم تنجح كما حدث في حالة قرطاجة وروما • وبعد الحروب البونية[١] لـم يكن لدى روما خصوم ولا شركاء على مستواها وبنفس قيمتها ، وافترست بسرعة ما بقي من منطقة البحر الابيض المتوسط •

وفي حالات أخرى ، لم تنجح أية دولة من الدولتين المتنافستين في الحصول على النصر الشامل • بل استنزفت كل منهما الاخرى ، أو اجهدت بعضها بعضا ، وتركت الساحة حرة بهذا الشكل لمنافسين جدد • وكانت هذه الحال هي حال اسبارطه وآثينا بعد حروب البيلوبونيز • وكان هذا المصير أيضا هو مصير المنافسات الكبرى في التاريخ الحديث لاوروبا ، وتاريـخ فرنسا والمانيا • وفي لحظة مـن اللحظات التاريخيـة شكلت الامبراطورية العثمانية ثقلا مضادا لكل الدول المسيحية ، ثم تراجعت بعد حصار فيينـا ومعركة ليبانت[٢] • وربما تتأتى عظمـة الحضارة الغربية وتنوعها ، وخصبها الخلاق من انها لم تخضع ابدا الى تسويات وتوحيد الدولة الموحدة : ٣٠ عاما في عهد شارلمان ، وعشر سنوات في عهد نابليون، وثلاث سنوات في عهد هتلر ••• وهذه الارقام لا تشكل فترة زمنية طويلة في عمر التاريخ •

وغالبا ما كانت الدولتان المتسلطتان المتنافستان تحاولان التفاهم بعد

---

(١) الحروب البونية هي الحروب التي نشبت بين روما وقرطاجة وأدت الى تدمير قرطاجة بعد ثلاثة حروب دامية •

(٢) مدينة بحرية في اليونان ، على مضيق ليبانت ـ حدثت المعركة في عـام ١٥٧١ م بين الاتراك ودون جوان امبراطور النمسا • ـ المعربان ـ

أن تصطدما مدة طويلة دون التوصل الى نتيجة حاسمة • وبهذا الشكل صمم نابليون تقسيم أوروبا ، وهو في قمة مجده بين دولتين موحدتين ، وكاد ينجح في عقد هذا الاتفاق مع الكسندر قيصر روسيا •

وبعد أن وقع الخلاف بين الامبراطورين ، بقي مصير العالم معلقا على نهاية الحملة ضد روسيا • فلو أن هذه الحملة نجحت ، اذن لربما أمكن اقامة دولة موحدة نابليونية على كل أوروبا القارية • ويبدو أن الاوروبيين احسوا بذلك ، لانهم انتظروا نتيجة حملة الغزو هذه قبل أن ينحازوا من جديد الى أي من الطرفين •

ومن الغريب ، أن الضرورات الجغرافية أرادت أن ينقاد هتلر الى طريق مسدود مماثل لطريق نابليون • فهو أيضا قد تفاهم في بادىء الامر مع روسيا بعد أن احتل كل أوروبا الغربية ، ثم حاول سحقها — ولكن الثمن كان باهظا جدا ! — وما أن تم القضاء على هتلر ، حتى حل روزفلت مكانه في يالطا • وحدث الوضع ذاتــه في يالطا ، اذ استبعد الشركــاء الآخرون الذين اعتبروا وكأنه لا صوت لهم في الفصل ، وجرى تقسيم مناطق النفوذ ، أي أعيد وجود تنافس كبير بين دولتين كبيرتين •

وبعد أن تم توزيع مناطق النفوذ بين هذين « المتسلطين » الكبيرين ، اتبع كــل منهما صيغة مختلفة عــن صيغة الآخر لفرض سلطته في داخل منطقته : وكانت صيغا ليبرالية بالنسبة للامريكيين ، وصيغا ديكتاتورية من جانب الروس[1] • ولكن الامور عادت من جديد ، من وجهة نظر القوى المتجابهة الى دولتين متنافستين • ويبدو أن القوة المستقلة الموجودة في العالم ليست قادرة حتى الآن على تغيير طابع هذا التوازن الثنائي • وربما

(1) اننا لا نتفق مع المؤلف في هذه النقطة . ولا نريد أن ندخل فــي التفاصيل ، فتسمية صيغ الانظمة داخل المعسكرين بالديكتاتورية والليبرالية امر لا يتفق مع الواقع . فالعالم يعرف تمام المعرفة الدور الذي تقوم به امريكا ضد ارادة الشعوب في جنوب شرقي آسيا وفي أنحاء متفرقة من العالم . ان امريكا ديكتاتورية عالمية ، في حين يساعد الاتحاد السوفييتي كل حركات التحرر الوطني .
— المعربان —

تستطيع الصين اذا توصلت الى تنمية وتجهيز نفسها أن تنجح ، وتحقق تهديداتها الكلامية حتى الآن ، في « تحويل اللعبة بين الاثنين الى لعبة بين ثلاثة »[1] ، مع كل ما يشتمل عليه هذا الوضع الجديد من تعقيدات وأخطار جديدة . وقد نرى أحد العملاقين ينحاز الى العملاق الثاني لازعاج العملاق الثالث ، أو نرى الصين ، كما تفعل اليوم ، تحرض الدولتين الكبيرتين على الاقتتال كي تسود على انقاضهما ، وتستغل ضعفهما .

فاذا تمكنت أوروبا من توحيد دولها ، ربما كونت عندئذ دولة ثالثة مجاورة لها نفس الوزن . ولكنها في هذه الحالة ، ستضطر ، احتمالا ، الى اتباع سياسة حيادية صرفة ، بسبب تعدد القوميات فيها ، ويصبح وضعها كوضع سويسرا اليوم التي لا تستطيع التورط في حرب دون أن تغضب احدى قومياتها .

الدولة الموحدة وتناقضاتها

لم تكن النماذج التاريخية المعروفة حتى الآن في « السلم بين دولتين » دائمة وثابتة . ويخضع تطورها للخيار التالي : اما أن لا يتجرأ المتنافسان على مهاجمة احدهما للآخر ، أو انهما لا يريدان . ويتطور الوضع العام عندئذ تدريجيا.ولا تبقى الدولتان المسيطرتان وحدهما بسبب تقلبات السياسة الداخلية وظهور قوى جديدة في الخارج، وتجدان من واجبهما أن تعتمدا على دول تشكل طرفا ثالثا . ويصبح توازن التعايش متعدد الاطراف من جديد .

وتزداد حدة هذا التطور بسبب تأخر حدوث الانفجار العام المنتظر بين الاثنين « الكبار » والذي يخشى الجميع وقوعه ، فيتراخى الانضباط في داخل معسكرهما الخاصين ، لان الانفجار العام يبدو امرا لا تبرير له ، خاصة وأن الخطر يتباعد . وتجد الدول التابعة نفسها وقد اتجهت نحو الغاء تبعيتها ، وأخذت تتمسك بروح استقلالها . وتستعيد هذه الدول سيادتها الكاملة . ونعود بهذا الشكل الى اسلوب التعايش المتعدد

(1) حسب تعبير اندريه فونتين .

الاطراف لدول مستقلة وغير متكافئة ، تخوض حروبا محدودة ، أو تلتجىء الى اشكال من التحالفات الموقتة ، ويختلف تشكيلها من وقت الى آخر حسب الظروف •

ويحدث الانفجار العام في الحالة الثانية بين الدولتين « العملاقتين »• فاما أن تضعف احداهما الاخرى وتخسران سيطرتهما ، أو تنتصر احداهما على الاخرى ، ويولد هذا القتال الاخير بينهما دولة موحدة •

* * *

هذه لمحة سريعة عن الطريقة التي توطدت فيها العهود الكبرى من السلم الدولي عبر التاريخ :

أ ـ مجموعة دول تفرض كل مجموعة منها الاحترام على الاخرى •

ب ـ خصومة دائمة بين دولتين رئيسيتين تفرضان على الدول الاخرى حياد الخوف ، أو الانضمام الى أحد المعسكرين •

جـ ـ دولة موحدة نجحت في ابتلاع كل الدول الاخرى ضمن اطار عالمها الجغرافي •

ولكن ماذا يجري داخل كل نموذج من نماذج السلم الثلاثة ؟ رأينا في حالة التوازن المتعدد الاطراف انه من الممكن أن تكون الحروب كثيرة ولكنها محدودة •

وعندما يسود وضع التوازن بين دول مستقلة ، ولكنها تقع تحت سيطرة دولة متسلطة كبيرة ، ينقلب الوضع • فالدولة المسيطرة هي التي تتحمل على الاقل ثقل أهم عبء في تسليح الدولة الصغيرة المستقلة ، ان لم تتحمل وزن الحرب كلها • وأفضل مثل على ذلك هو مثل **السلم البريطاني** الذي دام من سقوط نابليون الى حرب عام ١٩١٤ • وكان يقتضي اعالة اسطول جبار • وكانت بريطانيا قد فرضت السلم في بادىء الامر على الدول التي تشكل امبراطوريتها الاستعمارية الواسعة • وبالاضافة الى هذا ، كانت تسهر في أوروبا على تحديد النزاعات ، **وتحديد الانتصارات** أيضا ، وهي تميل في كل مرة الى جانب المهزومين •

وعندما تسيطر دولتان متنافستان على عالم جغرافي ، تتحمل الدولتان عبء التسليح فيه• ولقد رأينا ذلك في آثينا واسبارطه ، وروما ، وقرطاجه ،

ونرى المثال ذاته اليوم بين امريكا وروسيا •

ولكن الدولة الموحدة وحدها هي التي تنجح في فرض سلم خارجي شامل • لانها بعد أن تبتلع كل الدول المنافسة لها لا تتعرض لاي خطر • فلا يوجد في عالمها خصوم يستطيعون مناوأتها الى أن تنهار وتتفكك • ويقتصر نشاطها العسكري على حملات وقائية أو تأديبية على حدودها البعيدة •

ولكن هل تجلب الدولة الموحدة ، حتى وهي في ذروة قوتها السلم حقا ؟ وبعبارة أخرى ، هل تستثنى هذه الدولة من أن تشهد عهود التدمير العنيفة للممتلكات والاشخاص ؟

هنا تسوء الامور اذا أحسنا التعبير • فاذا رجعنا الى الامثلة المعروفة ، نجد أن هناك عدة أنواع من الازمات تنتظر الدولة الموحدة :

أولا ــ هناك **تهديد الحكم الشرعي** • وهنا نجد أن الجيش الذي « فقد وظيفته » الاجتماعية بعد أن تحرر من كل الاخطار يميل عندئذ الى توجيه قوته الى الداخل ، ويصبح في غالب الاحيان منبع السلطة السياسية ذاتها لا تعبيرا عنها فحسب • فيحل الحكومات ويشكلها ويتصرف بالدولة •

والتهديد الثاني هو تهديد « **أسياد الحرب** » حسب التعبير الصيني • اذ يتنافس قواد الجيوش أو حكام المقاطعات فيما بينهم ، ويستقلون عن السلطة المركزية أو يكافحون من أجل الاستيلاء عليها • وقد تأسست كل أسر اباطرة الرومان على هذه الطريقة •

ولكن الحرب ، بالشكل الماكر هذا ، تعود من جديد الى الدولة الموحدة • وقد اتخذت كل حرب من الحروب بين القادة الرومانيين أبعاد حرب دولية : فقد كان المتنافسون يسيطرون على جزء من الامبراطورية ، وينهلون منه المواد التي يحتاجون اليها لتغذية النزاع • كان اوكتاف يسيطر على ايطاليا ، واسبانيا ، وافريقيا ، والغول • اما انطوان فقد كان يسيطر على شرق البحر الابيض المتوسط ، بما فيه مصر • وهكذا اصبحت الفضيلة السلمية للدولة الموحدة حجة خداعة ، وأصبحت كل التضحيات والتدميرات التي فرضت على الشعوب التي وحدت دون جدوى •

ويزخر تاريخ الصين أيضا منذ توحيدها بالحروب الاهلية الكبرى ،

المدمرة والمخربة أكثر من الحروب الدولية • ويقدر المؤرخون أن تمرد تاي ينغز وحده ، الذي يعتبر معاصرا (١٨٥٠ ــ ١٩٦٤) خـرب عـدة مقاطعات ، وذهب ضحيته ٣٠ مليون من الضحايا • كما ذهب ضحية تمرد المسلمين في يان ــ نان وكان سو ، في القرن التاسع عشر ١٠ ملايين مواطن أيضـا •

* * *

ولكن التاريخ الروماني بعيد جدا • فلنعط أمثلة حديثة معاصرة • ان هذه الامثلة تظهر « عدم صفاء » السلم في الدول التي وجدت نفسها وقد تحررت من الاخطار الخارجية بواسطة انعزالها الجغرافي أو بظرف سياسي ملائم • ويكفي أن نذكر خلال المائة عام الاخيرة بالاضافة الى الحروب الاهلية الصينية ، الحرب الاهلية الامريكية ، والحرب الاهلية الاسبانية ، والحرب الاهلية الروسية مع ما رافقها من مجاعات ، هذه الحرب التي كان عدد ضحاياها أعلى من عدد ضحايا حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٧ التي سبقتها • وفي أيامنا هذه نجد عددا متزايدا من الدول الصغيرة ، متحررة من التهديد الاستعماري ، تتفرغ في كل امان الى الاضطرابات السياسية العنيفة والى أصدار بيانات الانقلابات العسكرية بين الحين والآخر •

ومع أن كل هذه الاحداث تشكل سلاسل مستقلة (حسب تعبير كورنو) ، فانها تقدم مع ذلك سمة مشتركة : ومن الواضح أن المحاولات الناجحة في كل سلسلة من هذه السلاسل لاستتباب السلم وسيادته ، لم تؤد الا الى نوع من الاستبدال فقط : فقد حلت الحروب الاهلية الواسعة الابعاد محل الحروب الاجنبية •

ولكن الوظيفة العلمية والاجتماعية للنزاعات المسلحة تبقى حتى ولو حدثت هذه النزاعات تحت علم الانقسامات في الدولة ذاتها ، أو تحت أعلام دول مختلفة • أي أن التدمير الدوري للحياة البشرية وللثروات موجود في كل الحالات •

* * *

وفضلا عن ذلك ، يقدم كل نموذج للدولة الموحدة حله الخاص للوجه

الآخر للمشكلة ، ولا يقتصر هذا الحل على نموذج الدولة الموحدة ، بل يتعداه الى كل نموذج قادر على اعتبار نفسه في موقع منيع لا تنازعه فيه أية دولة بسبب انعزاله الجغرافي ، أو قوته التي لا جدال فيها وهذا الوجه هو : استقرار المؤسسات السياسية ، والتسلسل الاداري ، والتوازن الديمغرافي ــ الاقتصادي الثابت • وقد كان للسلم الروماني والسلم الصيني ، والسلم البريطاني ، كما كان لليابان وامبراطورية الخلفاء الراشدين ، ومن ثم كان للامبراطورية العثمانية في فترتها المجيدة ، اسلوبها الخاص في التوازن الداخلي والبنية الخاصة • ولكن هذا الموضوع مسألة أخرى ، تستحق أن تدرس بالتفصيل وبصورة منفصلة •

الفصل الرّابع عشر

السّلم اليوم

المسلمة التي تنطلق منها أبحاث السلم

تنطلق كل التطلعات السلمية ، وكل الامنيات بايجاد عالم تستحيل فيه الحرب ، أي عالم يستبعد وقوعها ، من مسلمة تشبه الحرب ، على الصعيد الاجتماعي ، بحالة مرضية ، فيكون السلم الحالة السليمة ، أي حالة المعافاة التامة .

والذين تجرأوا على اثبات هذه النظرية عن « الحرب ــ المعكرة »[١] لصفو السلم بشكل قاطع ، أو عن التعبير عنها بوضوح ، هم افراد قلائل . أذ بأي حق يمكننا القول ــ بالمنطق الاجتماعي السليم ــ عن ظاهرة انها غير عادية ، بينما يتكرر ظهورها دوما في كل زمان ومكان ، وكأن التاريخ نتاج هذا التناوب بين الحرب والسلم ؟

والحقيقة ، أنه لمن الحكمة أكثر أن تترك جانبا الاجابة على هذه المسألة شبه ــ الميتافيزيقية : ايهما طبيعي أكثر من الآخر السلم أم الحرب ؟ . ــ لقد سبق أن أجاب سبينوزا[٢] في مناقشة مماثلة ان كل ما

(١) Guerre-Pertucation

(٢) سبينوزا ، باروخ (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) فيلسوف هولندي يهودي الاصل مستقل الراي مما ادى الى طرده من الجماعة اليهودية وحرمانه من حقوقه الدينية . ولم يمنع هذا الموقف من اهتمام فلاسفة العالم به واهم كتبه « الاخلاق » وفيه يبسط فلسفته التي تدور حول التوحيد بين الله والطبيعة فترى الربوبيه ماثلة في الاشياء كلها .

ــ المعربان ــ

هو موجود في الطبيعة فهو طبيعي ــ فاذا ما اقرت هذه الحقيقة ، يصبح من حق الجميع اختيار الظواهر التي تفضل من بين كل الظواهر الطبيعية • ومع توخي البحث عن الوسائل التي تزيد من توافر تلك الظواهر المفضلة ، فانه يتحتم مقاومة الظواهر الاخرى التي من شأنها الحاق الاذى بالانسانية، أو تعريض الحضارة للاخطار • وبكلمة واحدة العمل على توسيع نطاق السلم بتضييق نطاق الحرب •

❋ ❋ ❋

هل يعتبر السلم حالة المجتمعات الطبيعية ؟ ــ او على الاصح ــ الا ينتهي السلم ليكون دوما فترة تجميع كل القوى المكرسة لتستهلك ، فيما بعد ، في الحرب ؟

أن اتخاذ موقف معين من هذه النقطة ، لا يقودنا لحل هذه المشكلة • لانه سيجرنا الى نقاش حافل اصلا بالمتناقضات • ولكن بوسعنا أن نقبل مناقشة الافكار والابحاث كما لو كانت معطيات عن ذلك التماثل بين السلم والصحة الجيدة •

فالصحة توازن ، وسباق تام وصامت بين جميع أجهزة جسمنا • ومع هذا فان كل عضو في هذه الاجهزة قابل للاختلال في اية لحظة • وبالتالي فانه يصبح قادرا على الحاق الاضطراب بالمجموع • ــ لقد قص ج• ج• روسو كيف اجتاحه الرعب والوسواس ، لمدة طويلة ، عندما قرأ لاول مرة بحثا فسيولوجيا ، وكيف شعر وكأن امراضا مختلفة واضطرابات قوية تحاصره ، حتى خيل اليه أنه يعاني فعلا اعراضها •

والعجيب أن من الممكن أن يستمر هذا التناسق مدة طويلة • ونحن نعرف ملحة جول رومان[1] الشهيرة : « ان الصحة حالة عرضية بالاصل ولا يمكنها اطلاقا ان تكون بشارة خير » اليس عجيبا أن تقوم الاجهزة بالعديد من الوظائف الفسيولوجية ، بانتظام وبدون أي عائق ، وباغتباط

(١) جول رومان (١٨٨٥ ــ •••) روائي فرنسي يؤيد نظرية « الوحدة التامة » بين اعضاء المدرسة الادبية الواحدة • ومن مسرحياته المشهورة « الدكتور نوك او انتصار الطب ١٩٢٣ » •
ــ المعربان ــ

لاشعوري ، لوحدها أو مكملة لعمل غيرها ، مستقلة أو مترابطة مع غيرها ، ثم يشعر المرء أن معدته أو قلبه هما فعلا مسرحا لاعراض هذا الاضطراب أو المرض ؟

ويجمع السلم من جانبه ، عندما يكون مستقرا ، بين الرضاء العام وبين التوازن والتعاون العفويين .

وعندما يصبح السلم موضع الاهتمام الكبير وموضع التساؤل المستمر عنه ، ففي هذا اشارات عن أن السلم بات مهددا . واذا ما تطلب هذا الرضاء العام منا الجهد المتعاظم ، واذا ما اصبح ذلك التعاون مصدر القلق والمضايقات ، فان هذا يعني ان السلم مريض جدا . واذا كنا ، خطأ أو صوابا ، نشعر بأن مشاكل الجوار والتعاون او التعايش اصبحت مشاكل لا تقبل حلا . واذا تولدت عن ذلك خلافات وتهديدات متزايدة ، أو بكلمة واحدة اذا وصل بنا الامر الى ضرورة وضع حد لكل هذا ، فهذا يعني اننا وصلنا نهاية السلم . واقتربت اللحظة التي يتردى فيها السلم الى عالم الحرب .

* * *

تتطلب اطالة فترة السلم توفر الانسجام بين الجميع داخل وخارج الدول على السواء . وتتطلب مزيجا من السهر ، ومن التسامح ، ومن القوة ، كما تتطلب من الفكر والاهتمام المؤيدين من الجميع . ويقول ر. بوانكاريه « السلم عملية بناء مستمرة » لقد كان بوانكاريه رجل قانون بكل معنى الكلمة ، ويتمسك بشدة مطلقة بالنصوص القانونية والمعاهدات. انه كان المثل الرائع لمدى ما يمكن أن تلحقه **الاوهام القانونية** من آثار سيئة على امثاله . أي أنه انتهى بأن يقرن السلم بتلك المعاهدات التي لم تظهر الا عقب نهاية حرب ما في الغالب .

ويمزج هذا الاتجاه بين الدافع والاثر . فالمتعارف عليه أن اتفاق الاطراف يأتي دوما قبل توقيعهم الاتفاقية . وان توقيع اتفاق ما ، يعني ان ثمة امورا معينة قد انجزت قبل التوقيع ، وان ثمة توازنا ما قد أقر .

أن النصوص القانونية تثبت اتفاق الارادات ولا تخلقها (١) •

والسلم شيء سريع العطب تماما مثل الصحة ، فهو بحاجة الى كثير من الظروف الملائمة والارادات الحسنة المتضافرة • لقد كان منطقيا أن يطلق على « المجلس الاوروبي » انموذج السلم الذي سيسود مطلع القرن العشرين ، قبل أن يمزق الغضب هذا العالم كما لو كان يريد تعويض ما فاته منذ عام ١٨١٥ •

وبكلمة واحدة تتطلب اقامة السلم توافر الكثرة بينما يكفي معتدى واحد لاشعال الحرب • وسيلحق به الآخرون رضاء أو قهرا • فهم ليسوا احرارا في الاختيار أو التفضيل • ان معيار استقلال الدول هو في قدرتها على الرد المسلح على كل تحدى ، وبتعبير آخر ما من أحد يملك السيطرة على سلمه •

* * *

اقيمت منــذ بضع سنوات وخاصة في الولايات المتحدة الامريكية معاهد هامة لابحاث السلم ، وظروف استمراره ووسائل دفاعه عن نفسه • ولقد أوجدنا في أوروبا ايضا معاهد لدراسة علم الحرب تدرس في غالب الاحيان المسائل ذاتها اما بنفس الطرق أو من جوانب أخرى • نشرت كل هذه المعاهد ورعت اعمالا ذات أهمية كبرى • ومع هذا فقد اعطت حصيلة تلك الاعمال انطباعا مرعبا الى حد كبير •

فقد اظهرت هذه الاعمال أن السلم ، من أول وهلة استقر فيها ، أي من أول توقف الاعمال الحربية ، وكأنه صرح مليء بشقوق تهدد بتوسعها في كل لحظة وبالتالي تؤول به للانهيار •

ان كل المواضيع التي درستها تلك الاعمال سواء أكانت متعلقة بحل النزاعات (علم النزاع)[٢] ام بنزع السلاح او بدراسة أوجه النظر المختلفة

---

(١) الحرب ايضا اتفاقية لها صيغتها الخاصة حول اتفاق الارادات .
ــ المؤلف ــ

(٢) Conflie Tologie علم النزاع في البسيكولوجيا علــم يتعرض لدراسة التصارع في نفس المرء بين نزواته ومحرمات المجتمع .
ــ المعربان ــ

أو بتحليل الحالات المولدة للحروب أو بتوازن القوى بالتسليح أو بنزع السلاح ، كلها جهود كرست ، كما يظهر ، لسد ثغرات هذه الشقوق . ان كل هدف من اهداف هذه المواضيع ، ومـا تسعى اليه يوجه لسد ثغرة محددة من تلك الثغرات المهددة للسلم .

لقد تعرض السلم ، وهو ما زال وليدا ، الى التقوض من الداخل ومن الخارج . فما تكاد الحرب تضع حـدا للحالات المولدة للحروب وتحل عقدها ، حتى نرى ظهور وخلق حالات جديدة أخرى . فالسلم هو الذي يخلق الاستياء ويوجد اختلال توازنات جديدة . انه هو الذي يولد ، آجلا أم عاجلا ، الحرب ، أو على الاقل ، الروح العدوانية الجماعية . بل قد نجد في معسكر المنتصرين من يعتقد أنه قد حرم من انتصاره لتوقيفه مبكرا عن العمل ، وتركه للبطالة ، ولم تتخذ بعد ، الى أقصى حد ، المتطلبات والاحتياطات التي من شأنها منع انتعاش المهزومين . وبكلمة واحدة فان ثمة سؤالين كبيرين يطلان بوجهيهما : ١) كيف يمكن للسلم أن يطمئننا ؟ ٢) كيف نعلم ونصدق انـه بدد التهديدات ؟ وكيف ايضا سيتم تحمـل السلم مستقبلا ؟

* * *

تتولد الحرب من المآزق التي يقع فيها السلم . وانه من السهل جدا ، مع كل أسف ، « انهـاء سلم » اكثر مـن انهاء حرب . اذ يكفي الاصغاء لاغراءات الروح العدوانية . ففي العنف تنقضي مشاكل السلم ، وفي هذا التخلص جاذبية أكثر مما في تلك المشاكل والمعارضات التي تعقد الحل .

من النادر أن يستطيع السلم ، في عالمنا هذا الذي هو صنع التاريخ ، الغاء الحتميات الجغرافية(١) والحتميات القومية . فكل نزاعات الجوار التاريخية الكبرى وكل موانع تقدم الحضارات والفعاليات القومية ، تعود كلها للظهور من جديد ولكن بمسميات جديدة . ان كوكبنا مرقط بمناطق حساسة : صراعات البحـر الابيض المتوسط ، صراعات الراين والمحيط الهادي والدانوب وجنوب شرقي آسيا ، كلها صراعات مستعدة للظهور من جديد بأشكال جديدة ولتأخذ دورها في الثوران . وتنعقد المحالفات

---

(١) Géo-Politique ـ الجغرافية ـ السياسية .

والمنافسات الجديدة حول كل صراع . وحتى عندما يؤدي السلم الى تحقيق اكثر الحلول حسمية : كالضم ، والتكتل الدولي ، والاتحادات ... فان الدولة الجديدة ترث ، بشكل عام ، كل نزاعات الدول التي تكونت منها الدولة الجديدة .

وتتشكل الامبراطوريات وتضمحل وفق مسيرة تكاد تكون متماثلة لدى الجميع الى حد كبير في خطوطها العريضة . وبالرغم من اختلاف وقائع كل مسيرة ، فقد انتهت كل منها الى الاشمئزاز من رتابة تاريخ كل أولئك المفكرين الكبار .

واستعمال العنف أمر لا غنى عنه في كل مرة يراد فيها جمع الدول وضم الاراضي ، وكذلك لا بد من استعماله ايضا في كل مرة يراد بها الانفصال من جديد . حالة ما تكاد تتوضح الا وتترافق بمصادر عنف جديد . وهذه هي ايضا مسيرة العلاقات الدولية .

مثلا اقيمت في القرنين ١٨ و ١٩ امبراطوريات استعمارية كبيرة وضمت اليها كل الامم الغربية . ولم يأت منتصف القرن العشرين حتى شاهدنا بدء سقوطها . لقد كانت سلسلة انهيارات متتابعة .

ولكن هذه الخاتمة ، لكل ما كان قائما أو لكل ما سيقوم ، تعتبر حادثة تاريخية كبيرة سوف تنتقل عدواها ، لانها تلقي النور الساطع امام جميع النظم الامبراطورية التي ما زالت قائمة . ففي الوقت الذي اجتاحت فيها روسيا كلا من طشقند وسمرقند وبخارى بعد أن جرى اجتياح الجزائر(١) ، وكان كل من الامير دوتوريد وكليف أوف انديا من معاصري

---

(١) لسنا مع المؤلف في هذه المقارنة التي عقدها بين احتلال فرنسا للجزائر وبين ضم طشقند وسمرقند وبخارى لروسيا . فالذي احتل الجزائر شعب غريب عنها ، لا يجمعه مع شعب الجزائر العربي اية صلة : لا في التكون التاريخي ولا في اللغة ولا في التكوين النفسي ولا في الطابع الحضاري القومي وليس بينهما سابق اشتراك في الحياة الاقتصادية وليس في هذا الاحتلال الا عدوان خارجي استعماري ، لا يحقق الا مصلحة الاستعمار ، وهو ضد اماني الشعب العربي . اما انضمام طشقند وسمرقند وبخارى وغيرها الى روسيا ، فهو على العكس تماما من كل اهداف فرنسا في احتلال الجزائر .

ــ المعربان ــ

هذه الأحداث . وجرى اجتياح القفقاس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أي في الوقت الذي اجتيحت فيـه الهند الصينية . واخيرا قامت الصين ، باجتياح التيبت بعد أن اجتاحت منشوريا وضمها اليها . وتشكل كل هذه الاحداث منابع خصبة لحالات مولدة للحرب بكل شدة .

* * *

أثار هذا الانحطاط السريع للسلم عددا مـن ردود الافعال : عزي بعضها للقدر ـ بسبب استحالة اطالة فترة السلم مدة أطول بالرغم من كل الجهود فقد كانت الحرب دوما حتمية .

ولكن حتى مع اعترافنا بصحة هذا احيانا ، فان القدرية ليست الا شواهد سلبية فهي ليست تفسيرية ولا حتى تحليلية . والقدرية هي أكثر الفلسفات خمولا : فهي جمود يأخذ شكل العقيدة . ان كل حتمية تتطلب أن يقدم عنها تفسير . انها حصيلة لقوى وظواهر متعارضة خليق بها أن تكون موضع الدراسة . وعلينا أن نحلل ونجزيء الروابط التي تولـد الحرب ـ روابط الماضي وروابط المستقبل ـ وان ندرسها من مختلف الزوايا ، ومن عـدة وجهات نظر ، بحيث تتمكن مـن اجراء المقارنات والتحاليل والتصنيفات وسوف تتيح لنا هذه البيانات امكانيات مهمـا كانت بسيطة .

* * *

وعزي القسم الآخر من ردود الفعل لعوامل ارادوية[1] محضة . فهي تفترض مـدة السلم في الاساس تطول وتستمر فقـط باتفاق الارادات الواعية . وينبثق هذا الاتجاه ، مع كل أسف ، من فلسفة خاملة أكثر مما هي عليه القدرية كلها .

ذلك لانها تفترض بالاصل ، امكانية التحكم بأية ظاهرة ، بشكل حاسم ، وحتى لو كانت أكثر تعقيدا وحركة من السلم ، وذلك بالتأثير على

(١) ارادوية من الارادية (مذهب يجعل الارادة تتدخل في كل حكم وتستطيع أن تعلق هذا الحكم) .

ـ المعربان ـ

أعراض الظاهرة واسبابها الاولية فقط • بينما يظهر كل تاريخ الفنون والتقنية أنه لا يمكن تحقيق عمل حاسم الا من خلال الاسباب التي تأتي ثانيا • ان ارادة السفر الى القمر قد تكون تعبيرا عن رغبة ولكن تحقيقها يتطلب الكثير من البحث والدراسة والاهتمام • ولهذا اذا لم تكن الارادة الحقة الصريحة هي الرائدة ، فان السلمية التقليدية لن توصل طلاقا الا الى الاخفاق •

* * *

يمتد بين الارادية الصرفة والقدرية البحتة قطاع وسيط ضخم يضم بالتأكيد العلوم الانسانية وخاصة علم الحرب وعلم النفس الاجتماعي •

فالانسان معرض ــ بطريقة معقدة ــ أي ليست متساوية أو متماثلة ــ لضغط لاشعوري احيانا ، واحيانا اخرى لضغط ينبثق من البنى الاجتماعية والروابط المحيطة به • ولا يسلم حتى الموجهون انفسهم من الوقوع تحت هذه الضغوط ، مهما كانت الوظيفة التي يشغلونها ، ومهما كان ترتيبهم في التسلسل • فانهم يعومون في الهالة الاجتماعية نفسها ، ويخضعون لعوامل الدفع الجماعي نفسها ، التي تخضع لها الجماهير التي يقودونها •

ولكن كل تصرفاتنا الواعية ، وكل محاكماتنا التي ارتكزت عليها تلك التصرفات ، تصبح كلها وهمية ، اذا كانت قرارات تنسحب آثارها على الجماهير • لان التبريرات المعقولة التي نقدمها في ، معظم الاحيان ، عن اعمالنا ليس لها أية علاقة بالاسباب الحقيقية لهذه الاعمال • وان ابسط الاسباب التبريرية هي التي نعطيها في الموضوعات المتعلقة بالحرب والسلم لتبرير دوافعنا الجماعية • ان الدور المطلوب من هذه الاسباب التبريرية هو أن تعطي تلك الدوافع المعنى والبرهان شبه العقلاني والذي يتوافق بشكل خاص مع العقائديات والمعتقدات والقيم المعاصرة •

* * *

لم تجر معظم الدراسات عن الحرب وعن اسبابها الا من خلال وجهة

نظر كلاوزفيتز[1] أي انها جرت فقط على اعتبار الحرب حربا مقصودة لذاتها . ولا يخرج هذا المفهوم عن الحرب ، اساسا عما هو في مخيلة مؤرخ رسمي ، ويحاول هذا المفهوم بطريقة جذابة ابراز دور الموجهين كمرسلين من العناية الالهية . وهذا المفهوم ايضا تبريري فهو يتطلب وجود مسؤولين ليعلنوا أو يعاقبوا .

ونعتقد من جهتنا ، أنه يوجد في المجتمعات بنى وروابط يطلب من علم الحرب وصفها وتحليلها بأناة ، لانها تحمل كل الاسباب العميقة للنزاعات . ولهذا نجد كثيرا من الحروب **غير المقصودة لذاتها** . فقد قارنها احد المؤلفين الهولنديين ، السيد رولينغ ، بحوادث الطرق .

ونرى أن الظروف التي تنطلق فيها معظم النزاعات ، تنتظم ضمن ما يمكن أن يعتبر من الاسباب العرضية . كتلك التي كان يريدها مالبرانش[2] . ولكي تتمكن من شرح وجهة النظر هذه جيدا فاننا سنلجأ لمقارنتها بحادث يقع يوميا فعلا . لنتصور عربة فقدت مكابحها وهي في اعالي طريق جبلي وهي تنحدر فوقه مجتازة المنعطفات بسرعة متزايدة . ولكن هل تنقلب في المنعطف الثاني أم المنعطف العاشر ؟ — هل تخترق افريز الطريق ؟ — هل تسقط في احد الوديان ؟ — هل تصطدم بعربة أخرى ؟ — ان هذا الحادث العرضي الاخير سيكون : هو السبب العرضي للحادث .

بينما سببه الحقيقي : هو اختلال توازن العربة المنطلقة بدون ضوابط

---

(1) هو الجنرال كارل فون كلاوزفيتز (١٧٨٠ — ١٨٣١) قائد بروسي ومؤلف في الاستراتيجية الحربية وخاصة في الحرب الشاملة التي يشن فيها الهجوم بكل الوسائل الممكنة ضد المواطنين والمواقع وممتلكات العدو جميعا دون رحمة . وكان لنظرياته اثر في تطور الاستراتيجية .

(2) مالبرانش نقولا (١٦٣٨ — ١٧١٥) فيلسوف فرنسي ديكارتي تطرف في الثنائية التي تفرق بين العقل والجسم ، وانشأ فيها مذهب « التوافيقية » . وخلاصته أن التفاعل بين العقل والجسم محال . والمعونة الالهية وحدها هي التي تجعل توافقا بين حوادث الجسم ومعرفة العقل لتلك الحوادث بحيث تتوازى افكار العقل مع الحوادث المادية دون اتصال بين الجانبين . ولمالبرانش كتاب « البحث عن الحقيقة » ترجم الى الانجليزية .

ولا مكابح على منحدر طويل • ان شكل وقوة هـذه العربة وخصائص الطريق الجبلي الذي وجدت فيه هي كلها العوامل التي كونت هذا الاختلال الابتدائي الفعال الذي فرض وقوع الحادث • تلك العوامل هي التي كونت التركيب الحاسم الذي أدى لهذا الحادث • يستنتج من ذلك وجود مدى كبير أو قليل من الاحتمالات ، يستدعي أخذه بالحسبان • ويأتي في المكان الثاني سبب آخر : ان انفصام المكابح ، وهو عمل غير متوقع في المعيار الفردي ، يؤدي فجأة الى دعم وقوع هذا الاحتمال ، ويمثل انفصام المكابح في فرضيتنا : الروابط في المجتمع •

ـ وأخيرا • لا يكتسب الظرف الابتدائي للحادث ، الذي اصبح فيما بعد امرا واقعيا ، الا خصائص واقعة ما ، مع أنه هو السبب العرضي • وهكذا يمكن للحادث السياسي ، أو سبب النزاع ، أن يضع النـار في البارود : وامامنا حوادث انفجار « المين »[١] وبرقيـة « ايمس »[٢] او سراجيفو[٣] •

* * *

لقد تبين لنا الآن ، **وجود ثلاث درجات من السببية** وراء الظواهر المدمرة للسلم •

وتتوافق الدرجة الاولى مع بطء التآكل في صرح السلم : أي بطء اختلال التوازنات التي تقوم عليها • ويطلق على هذه الدرجة من السببية : السبب الهيكلي : ويخلق هذا السبب استعدادا مسبقا ومستقرا للحرب أو السلم • ويضع كل ثقله في هذا السبيل دوما • ويمثل هذا السبب ايضا ،

(١) مين : مدرعة امريكية حدث لها عام ١٨٩٨ انفجار مجهول السبب ادى لغرقها . واتهمت اسبانيا بتدبيره مما ادى لوقوع حرب بين الدولتين .

(٢) برقية ايمس ادى نشرها من قبل بسمارك عمدا الى اعلان فرنسا الحرب على بروسيا في ١٩ يوليو ١٨٧٠ وتدور هذه البرقية حول ترشيح امير من اسرة هوهنزولرن لعرش اسبانيا .

(٣) سراجيفو . قرية في يوغوسلافيا اغتيل فيها الارشيدوق فردينـاند ولي عهد النمسا وأعتبر هذا الحادث السبب المباشر لنشوب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

ـ المعربان ـ

ميزة موضوعية ترتكز على معطيات احصائية مؤثرة حتى ولو لم نرها أو تخطاها انتباهنا . مثل الانتاج والتصنيع والابتكار والسكان الخ ...

وتتطابق الدرجة السببية الثانية مع الحوادث السياسية والعقائدية ويطلق عليهـا : السبب العرضي : حيث تتقابل صدفة كـل التحالفات ، والاتحادات ، وتقلبات الرأي العـام ، والاحزاب ، ونشاطات العقائـد والمعتقدات على اختلاف انواعها .

وتتطابق الدرجة السببية الثالثة مع الحوادث غير المتوقعة ، والتي تتطلب بالنتيجة التدخل وفق ما يراه الرأي العام أو الموجهون . وقد تولد مثل هذه الحوادث الحرب او قد تكون هذه الحوادث عرضية أو تافهة سياسيا . ولكن تأثير السبب الموجب يتغير تغيرا كاملا وذلك حسب حدة الروح العدوانية الخفية . ويتعلق هذا التغيير في تقييم الحوادث ، بشكل عام ، بعدم اتزان حركة البنى والروابط ، لان هذه الاخيرة هي التي تتحكم بالنزوات ، وتحدد الدوافع الجماعية وفعاليتها .

***

وينبغي أن ندرس هـذه الظاهرة نفسها ايضا مـن ناحية حدوثها الدوري[1] فالحروب بدون أي شك لا تأتي على وتيرة واحدة ولكن توالي وقوعها **امر لا يمكن نكرانه** . ولكن في توالي الحروب والسلم هوامش من القلق يجب أن يؤخذ بالحسبان . وينبغي أن لا يدخل في هذا الحسبان فقط تشتت النزاعات في المكان والزمان ولكن ايضا بنموذجيتها ودرجة تباين حدتها . ان أهم المعالم الاساسية المميزة لكل حضارة هو انموذج دورية نزاعاتها المسلحة .

كيف ينتكس السلم ؟ لقد وضعنا انفسنا في مطلع هذا الكتاب في اللحظة العصيبة التي تتوقف الحرب فيها ويقوم السلم . وبوسعنا ، الى حد ما ، تصوير هذه اللحظة : انها تمثل نوعا من النظام ، الذي يفرضه

---

(1) نشر المؤلف اول مذكراته عن هذا الموضوع في مجلة العلوم الاقتصادية (ليبيج) العدد ٣٦ يونيه (حزيران) ٣٩ ص ١٦١ وما بعدها . انظر ايضا « التاريخ العالمي للحروب » منشورات دار Plon ، عام ١٩٦٥ ، ص ٢٨٧ وما بعدهـا .

القسر ، أو انه نظام ينبثق من التوازن الجديد بين القوى عقب انتهاء القتال •

وينطلق كل شيء من جديد ، ومن هذه النقطة • هذا التوازن الجديد سوف يجد نفسه وقد تغير شيئا فشيئا ، كنتيجة طبيعية لتلك التوسعات غير المتوازنة على كل صعيد : اقتصادي ، سكاني ، سياسي وعقائدي ، وهذا التغير سوف يؤدي حتما لظهور ضغوط جديدة واعية أو غير واعية •

من الناحية النفسية ، يمكن أن تنسى حتى الذكريات الحرى • فالنسيان ظاهرة من ظواهر علم النفس الاجتماعي الاساسية • ان مدة عشر سنوات كافية لمحو دقائق الحوادث حتى لدى اولئك الذين عاشوها • اما بعد عشرين عاما ، فان هذه الحوادث تصبح ظلالا حتى لدى اصحاب اقوى الذاكرات • ويصبح من المستحيل محاولة بعثها في الذاكرة بدقة وحدة • وبالتالي تغدو هذه الحوادث صعبة التصديق أو على الاقل مبهمة • بل في الحقيقة أنه لن يبقى أي منا ذلك الرجل نفسه الذي كان قبل عشرين عاما • وعلى هذا الاساس النفساني بني التاريخ التسجيلي ، وهو ايضا اساس وجود النظم الحقوقية كلها •

ويحدث **تتابع الاجيال** آثارا أكثر جذرية ايضا • فالجيل الاول عاش الحوادث ، وسمع الجيل الثاني قصصها ، مباشرة من شهودها ، اما الجيل الثالث فلا يجد فيها الا مجرد تاريخ مضى • وبمعنى آخر انه مستعد لاعادة الكرة من جديد • فالمنتصرون : تراودهم فكرة بعث انتصارات الاجداد ، والمهزومون : تنتابهم روح الانتقام والتقويم •

وهكذا يجد السلم نفسه مهاجما بشكل لاشعوري من قبل جميع الاطراف : المستويات الدنيا في المجتمع ، تدفعها الى ذلك عوامل التغيير الاقتصادية ــ السكانية والسياسية اما المستويات العليا في المجتمع فتدفعها الى مهاجمة السلم العوامل النفسية والسياسية التي تغيرت بحكم تغير الذكريات وظهور الروابط والتوازنات الجديدة •

وتتراكم هذه الآثار • وعندما تصبح فعالة يبدأ السلم بمعاناة اضرارها • فيشاهد الجميع ولادة الدعوة الى استخدام العنف ، وتأكدها ، ويشاهد تأكد التعصب والنزوع والفضول العدواني ايضا • ويشاهد ولادة

اساليب جديدة مقبولة لمباشرة العدوان ولاعادة النظر بجميع ركائز السلم التي سبق أن أرساها آخر عدوان كبير . وان ما نشاهده في يومنا هذا من ازدهار عقائد حرب العصابات ، والحرب الثورية والارهاب و « تعبئة الجماهير العريضة » الخ ... ليس في الواقع الا محاولات للبحث عن وسائل جديدة للتقنية ، كفيلة باعادة النظر بالتوازنات التي أرساها سلم ١٩٤٥ . ويستهدف كل هذا السماح للروح العدوانية بالتعبير عن ذاتها تحت اشكال جديدة وفي حمى « مظلة نووية » .

* * *

لقد حاول للزعماء عبر التاريخ وحتى يومنا هذا ، صيانة السلم والحفاظ عليه . كما حاولوا تأخير موعد النزاعات الدموية ، باستخدام القوى المعطلة أو باللجوء الى المهدئات . وهكذا تمكنوا من ربح بعض الوقت بشكل عام . وهو وقت طويل في حالة لويس ـ فيليب[١] ، وقصير جدا في حالة شامبرلان[٢] . ولكنهم حتى الآن لم ينجحوا الا في تأخير موعد النزاع ، بل في معظم الاوقات كانت فترات الهدنة ، كما كان ذلك في حالة يونيخ ، غير صالحة الا لزيادة حدة الضغوط وزيادة اخلال التوازن . وهكذا فان الانفجار المؤخر لن يكون الا اشد عنفا . وأنه سيقذف بالسلم من أعلى مكان .

يعتبر السلم حتى الآن (ولنكرر هذا القول « حتى الآن ») مثل الحياة دوما حصيلة احكام مرجأة ـ ذلك لانه بالنسبة لنا ، فاننا نقول مع برجسون[٣] « لا يمكن تحديد مستقبل الانسانية لأنه متوقف عليها » .

---

(١) لويس فيليب (١٧٧٣ ـ ١٨٥٠) دوق اورليان ، اصبح ملكا على الفرنسيين سنة ١٨٣٠ بعد إن اطاحت ثورة يوليو بحكم شارل العاشر ازداد في زمنه عدد الطبقة العاملة المحرومة وانتشرت المبادىء الاشتراكية وازدادت المعارضة ضده لانه تخلق باخلاق الطبقة البورجوازية وناصر الملاكين واتخذ عدة اجراءات رجعية وانتهى حكمه بقيام ثورة فبراير ١٨٤٨ .

(٢) شامبرلان جوزيف سياسي استعماري بريطاني اجرى عدة محادثات مع هتلر بقصد صيانة السلم . والى هذه المحاولات يشير المؤلف .

(٣) برجسون ، هنري (١٨٩٥ ـ ١٩٤١) فيلسوف فرنسي فاز بجائزة نوبل في الادب وهو ثنائي في فلسفته ، ويعتقد بأن في العالم اتجاهين متعارضين هما الحياة والمادة . ـ المعربان ـ

وقد كان باستطاعه القادة بدون أي شك تبديل سياستهم • ولكن كيف ينزع الفتيل من عدوان قد تهيأ للانطلاق من عقاله ؟ واصبح اللجوء الى اساليب التقنية والبيانات الكافية غير مجد • فقد انحسرت كل الجهود لتتركز على المهارة السياسية المضمونة ، وعلى بعض الامثال القديمة التي ثبت دوما فشلها مثل : « اذا اردت السلم فاستعد للحرب » •

وتبدو المشكلة الرئيسية في ايامنا هذه على الشكل التالي : كيف يمكن تنظيم النمو والتوسع دون أن يؤدي ذلك بالضرورة الى العدوان ؟ ذلك لان كل سلم يتضمن عوامل اختلال توازنه والتي يمكنها فيما بعد تدميره ، اذا ما تعثرت خطى التنمية وانحرفت المهام عن اهدافها •

* * *

ويزداد القاء المسؤوليات ، في موضوع الحرب والسلم ، على عاتق رؤساء الدول والقادة • وبخلاف ما كان يظن من أنهم هم الذين يقودون الرأي العام ، فان الرأي العام ، على العكس ، هو الذي يخضعهم لتعبئته •

وبدقة أكبر ، يشكل القادة انفسهم جزءا من الرأي العام • فهم كالآخرين يتعرضون لضغط الروابط اللاواعي والماكر • فقد تبين بنتيجة تقص اجتماعي قامت به جامعة ستانفورد عن اسباب اندلاع حرب ١٩١٤ ، تبين ان قرارات رؤساء الدول كانت مرتبطة باحساساتهم عن الوضع الخارجي • لقد كان موقفهم يتحدد « بتحسساتهم المتغيرة » •

ولكن هذه التحسسات لم تكن موضوعية • فقد كانت تتلوى بحسب الظروف الداخلية والخارجية من جانب الى آخر ، واحيانا كانت متبلدة الاحساس بها • زد على هذا ان ذلك التقصي استهدف فقط السلطات التي كانت مسؤولة عام ١٩١٤ ، « ان تكاثر الاحساسات المتعلقة بالقدرة القتالية تتناقض بمقدار ما يزداد تكاثر الاحساس بالتهديد »(١) • وبكلمة أخرى : ان تخيلات الرؤساء واحساساتهم تنغلق كلما ازداد تخيل الاخطار والتبعات ، أي تخيل حقائق الحرب والمعارك • بينما تنفتح تخيلاتهم كلما

---

(١) المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية (الاونيسكو) ١٩٦٥ ص ٤٨٢ — المؤلف —

تضخمت أكثر فأكثر التهديدات التي تحيط بهم • الى أن تتوالد لديهم انعكاسات الرعب فتدفعهم الى « الفرار الى الامام » •

وهذا ما سوف يفضي بهم بالتحول شيئا فشيئا ، تدفعهم رغبة عميقة جامحة تعمي الابصار ، الى اللجوء لعدوان صريح مكشوف ، بغية تبديد الكرب والشعور بالتهديد • وعندما يصلون الى هذه النقطة فان هذا يعني بأن تراكم القوى النفسية والمادية قد وصل الى نقطة الانفصام والهياج • وفي هذا يقول ارنست يونجر « اذا استمر هطول الثلج طيلة الشتاء ، فان قدم ارنب كافية لاحداث الانهيار الثلجي » • ولكن اية اجراءات ، وأية اساليب يمكن باتباعها تجنيب السلم من الوقوع في مثل هذه الخاتمة ؟

* * *

اذا سلمنا بوجود علم للحرب ، ولو كان غير مستكمل وما زال قيد الدرس ، فانه يخلق املا ضخما • لان وجوده سوف يتيح للرأي العام وللقادة الانطلاق من قاعدة علمية تتيح لهم تحليل المواقف وتشخيصها ، وليس كما كانوا قبل ذلك دائما يتوخون استخدام العنف والتهديد ونشر الهلع • وان ما يجب أن يحدث هو أن نعيد ، في معظم الحالات ، النظر بتحسساتنا لهذه الاوضاع ونصححها ، تماما كما نصحح اخطاء البصر • ومهما كانت نزعة الرجل تسلطية ، فانه لا يستطيع فرض سيطرته على الموقف ابدا • فلا بد له من بعد نظر ، وتجرد •

وسيكون بمقدور علم الحرب ابطال الضغوط المولدة للحروب ، بل سيكون بمقدوره تسبيبها واعتبارها كلها نتائج اختلال التوازن الاجتماعي وليست وليدة القدر أو الجبرية ، أو مجرد نزاعات بسيطة • سوف يساعد علم الحرب على تهدئة الانفعالات الى حد ما ، ومعالجة بعض التحركات والتحرشات كأنها مشكلات أو امراض ، أو سوف يتيح على الاقل اللجوء الى التحليل العلمي ــ الحربي الذي سوف يزودنا بالمعرفة والايضاح •

ان اصعب الامور في هذا المجال هو حماية الناس من انفسهم • ان بوسعنا منع وقوع جريمة ما ولكننا لا نستطيع منع الانتحار • وبالرغم من أن الخوف من الجحيم قد افزع الرجال طيلة عدة قرون ، فان عددا كبيرا من المؤمنين لم يمنعهم فزعهم من الجحيم ، من التردي فيها عمدا • أن أشد

ما نخافه اليوم ان يوصلنا الفزع النووي الى مثل هذا المصير ٠

ان اتاحة وقت للتفكير فيما بين مقدمات عدوان جماعي وبين انطلاقته الحاسمة تعتبر نتيجة قيمة ٠

* * *

يمكن أن يصم البعض ، ومنهم الارتيابيون ، الاستعانة بعلم الحرب ، انها « فرار الى الخبراء » ٠ ويمكن للبعض الآخر أن يسخر من هذا الايمان الساذج بهذا العلم الوليد ٠ ولكن في سبيل عدم اضاعة أية فرصة ، فان الحذلقة الكلامية أفضل من التقاتل ٠ ومهما كانت درجة السخف التي يمكن أن يوصف بها هذا الايمان ، فانها اقل سخفا من الاسلوب الذي جرى الجميع على اتباعه حتى الآن : تتقاتل أولا ٠٠٠ ثم ننتقد بعد ذلك كل مصادر العدوان وكل المسؤوليات ٠ اننا لو قيدنا انفسنا بالبحث والتفكير بكل المسببات الحقيقية للحروب وليس بأسبابها الاستطرادية والظاهرية فقد ينقذنا هذا من الوقوع دوما تحت رحمة حادث سخيف : تهور طالب معقد من قرية بلقانية ، او هذيان دهان ثرثار ٠ وفي كل مرة يولد فيها ضغط عدواني ، يولد معها الى جانب المشكلةالسياسية تساؤلات حول مشكلة علم الحرب ، ومن الواجب الاجابة عليها ٠

وقد قال احد خطباء الثورة[1] « تحرك الرذيلة الحرب اما الفضيلة فتقاتل » بل وتقدم على القتال بسهولة : لان اكثر الفضائل نبلا توصل ايضا لتدمير السلم وتغذيه الروح العدوانية ٠ فالايمان يدفع للتعصب والعدوان العقائدي ٠ ويدفع حب القبيلة لعدوان عنصري ، ويدفع الوفاء بالتحالفات الى سلسلة من الحروب والحروب الاتحادية ، ويدفع الارتباط بالوطن لاقامة الامبريالية ٠ والسخط السفيه يسبب الحوار السياسي ٠ ان كل انسان يريد السلم ولكنه ، بنفس الوقت ، يزرع سرا في اعماق قلبه اهدافه من الحرب ٠ وحتى يومنا هذا قد يكسب بعضهم الحروب احيانا ، ولكنهم دوما ينتهون بخسران السلم ٠ ولقد آن الاوان لمحاولة صنع شيء ما يحول دون الوصول الى هذه الخسارة ٠

---

(١) احد خطباء الثورة الفرنسية : راجع كتاب الذكاء والقيم المعنوية في الحرب ــ تأليف الجنرال جان بيريه ــ منشورات دار الطليعة ــ بيروت للفصل السابع ــ للقيمة الخلقية للحرب ــ ص ٩٥ ٠
ــ المعربان ــ

فهرس الموضوعات

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الثمن : ٤٠٠ ق. ل.